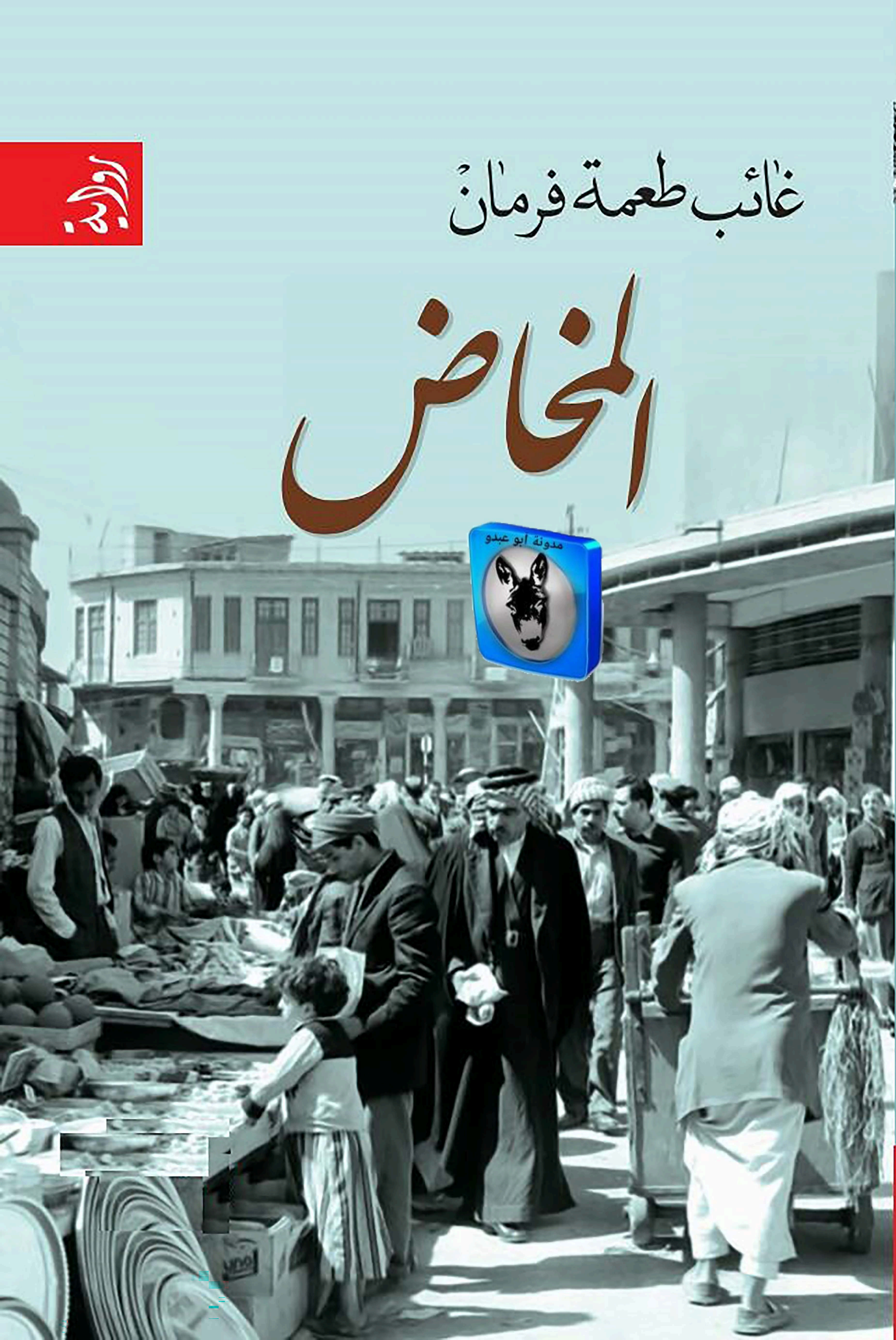

غائب طعمة فرمان
المخاض
مدونة ابو عبدو

غائب طعمة فرمان

المخاض

منشورات مكتبة التحرير - بغداد

إلى

تلك الجذوة المتوقدة في ضمير الشعب أبداً وبها يحيا وأحيا

غائب

الفصل الأول

- ١

لم أرهم في الساحة حين خرجت إليها ثانية لم أجد فيها غير السائق الذي عرض عليّ خدماته إلاّ أن الساحة نفسها قد رشّت بالماء واكتست لوناً آخر لاح القار أسود منطفئاً مخدداً بعجلات السيارات وشعّت ذرات التراب بنّيّة فواحة برائحة عذبة في الأرصفة وتحت شجيرات الدفلى التي بدت أوراقها الخضر المتناسقة مثل ريش طائر أنعشه البلل، فانتعش وفاح برائحة حارة وفتر الوهج الذائب الذي تساقط على جفني عندما هبطت الطائرة مثل ذرات الزجاج فاستطعت أن أمد بصري في الساحة مفتوح العينين فأرى صف السيارات المتروكة والسائق متكئاً على باب سيارته مطويّ الصدر على خيبة ووراء الساحة خلف السائق رأيت السدة المرتفعة تجري عليها السيارات وكوكبة من الخيالة تصورتها عائدة إلى معسكر الوشاش الذي كنت أعرف أنه هناك وإلى اليسار قليلاً محطة بغداد ذات القبة الزرقاء محطة فكتوريا المشوهة كما-كانوا يسمونها تركتها ناقصة حين رحلت والآن ألمح بعض العربات تتناثر وراء السياج وتسطع خضراء في شمس تموز وخلف المحطة هناك وراء الخط الحديدي القادم عبر جسر الصرافية لا بد أن ساحة السكك قائمة على عهدها يحرسها الثوران المجنحان على بوابة المتحف الجديد . والباصات الخشبية الواطئة تتكور في جانبها الأيسر معبأة

بركابها الريفيين وباعة الأطعمة بعرباتهم المتنقلة وعربات المرطبات والألبسة المستعملة وبعد الساحة يمتد شارع الصالحية المشجر في الوسط بأشجار جوز الهند العقيمة ومن هناك تبدأ بغداد

هبطت الدرجات إلى الساحة تلوى القار تحت قدمي تنبه السائق العجوز إلى مقدمي ودفع عينيه الصغيرتين متسائلاً وتكور فمه قبل أن يقول

ها عمي سيارة ؟

– دعني أنتظر قليلاً لم أفقد الأمل في مجيئهم هل تعرف بائع سكائر هنا ؟

تلفت مثلي وقال

– لا يوجد ولكن يوجد باعة كثيرون في الساحة عند محطة القطار القديمة

– الساحة عند المتحف ؟ أما زالت هناك ؟

– وأين تذهب ؟ أخذها العهد البائد ؟ هل تريد سيكارة

قدّم لي علبة سكائر « لوكس »

– شكراً عندي سكائر – وأخرجت له علبة سكائر أجنبية ولكنني اشتقت إلى السكائر العراقية الجافة

تبسم السائق عن صف جيد من الأسنان

– خذ سيكارة إذن من زمان لم تدخن من سكائرنا

– منذ ستة أعوام

– أوه . كل هذه المدة وأنت في الخارج

كل هذه المدة

مدة طويلة يلحق الإنسان فيها أن يتزوج ويطلّق ثلاث مرات

ضحكت مجاملة وتناولت السيكارة من يده وسألته

– أما زال الناس يطلّقون بهذه السرعة ؟

– وكيف يجوزون ؟ يمكن الطلاق خف في الأشهر الستة الأولى من الثورة كان الناس يريدون أن يعرفوا القضية وبعد ذلك عادت حليمة إلى الميدان

عادت كثيراً

يمكن أسوأ لأن الاستقرار معدوم في هذا البلد والإنسان إذا لم يكن مرتاحاً في حياته طلّق زوجته

نظرت إليه باسماً شيخ جاوز الخمسين قصير القامة كبير الرأس نحيل الرقبة أصلع إلاّ من شعر أشيب يحيط رأسه من جوانب ثلاثة له عينان صغيرتان وفكان كبيران وأنف مكور وفم صغير بينهما شارب خفيف أشيب ضرب حافة سيارته بيده ونزع بصره عني واشرأب ورائي صائحاً « سيارة عمي التفت فرأيت رجلين يحملان حقيبتين خيّبا ظنّه واتّجها إلى سيارة من تلك السيارات المتروكة وسمعت السائق يتفوه بشتيمة ويتأفف ويقسو فكاه شعرت بحرج وكأنني أخرته أسرعت عائداً إلى المبنى كان البهو فارغاً فتملكني الضيق لأوّل مرة لماذا لم يأتوا ؟ لم يتسلموا البرقية التي أرسلتها لهم من بيروت ؟ أخطأوا في موعد قدوم الطائرة ؟ كل شيء جائز فلماذا انتظر ببلاهة وكأنني في بلد لا اعرفه ؟ ألقيت عقب سيكارتي وذهبت إلى الكمرك، وحملت حقيبتي وخرجت .

– ها . سيارة .

نعم لا أظنهم سيأتون

ما دام العنوان عندك فلماذا تنتظرهم ؟

وضعت حقيبة في الصندوق وأخرى في الحوض الخلفي وركبت إلى جانب السائق قدم لي السائق سيكارة أخرى اعتذرت عن قبولها ولما ألحّ قبلتها ووضعتها في جيب سترتي الأعلى قال السائق وهو يدير المحرك

— أهلاً بالوطني

ضحكت وسألته لماذا ينعتني بذلك قال لأنك تحب السكائر العراقية الناس وبكوا على سكائر « الغولد فلاك

— بكوا على سكائر الغولد فلاك

بكوا على كل شيء يريدون [illegible]رة وجمهورية وعرق وكاوليه نفضل هذه المحطة العالمية

— صحيح أنها عالمية ؟

— أيّ عالم فيها ؟ فارغة

وأشار إلى باب المتحف الجديد أيضاً وقال « يذكر على زمن جاني

كان قديماً ولكن الخضرة كانت رائعة نفس الخضرة [illegible] التي لها علاقة بالطفولة مررنا بصف أشجار الجوز الهندي كانت [illegible] مثل حرس شرف صفّ لاستقبالي ورأيت قاعدة الملك فيصل بلا تمثال ومقهى الصالحية والسينما والحانة التي تعرفت فيها على الخمرة لأول [illegible] صحة عمر ثم الجسر والمقهى المعلّق إلى اليسار [illegible] وفكرت أن أمي ممددة على الحصير بعد أن رشّت [illegible] الماء [illegible] شاي العصر وعندما سأصل ستقول « إشي عجب [illegible]

جيت اليوم لشرب الشاي وكأنني لم أرحل ولم أجب بقاع الدنيا شرقها وغربها وسمعت السائق يشتم ورأيت نفسي عند سيد سلطان علي أحسست برنين مرتين شارع الرشيد القديم الرنين الصامد الذي كان يجعلني أتصور أنه مصفح بالحديد وليس مبلطاً بالقار

جو أن تستدير في شارع الكيلاني

تصور ! أنت في نص بغداد وتريد أن تنتظر من يوصلك

قلت مفاخراً

— هذا الشارع أعرفه ركناً ركناً

ما حدث فيه وما تغير على جانبيه دكاكينه وما تعاورها من حلاقين وباعة ووكالات أزقته وما شهدت من أفراح وجرائم ومآتم والمناطق التي يتجمع فيها ماء المطر أبداً والمناطق الجافة على الدوام مررنا بسينما الزوراء الصيفي والقصر ذي المدخل المصقول والعرصة الخربة ومعمل السكائر ومدرسة الراهبات والكنيسة وتتابعت أمامي البيوت الكئيبة على اليمين ومقهى عموري يقابله دكان العلوجي وفجأة ملأ بصري خواء طلبت من السائق أنْ يقف

— أهذا شارع جديد أم هو شارع غازي

هذا شارع الجمهورية وشارع الكفاح إلى الأمام

خيل إلي أنني دخلت شارعاً غير شارعي التفت فرأيت امتداد الكيلاني كما عرفته برج الكنيسة مدرسة الراهبات المعمل العرصة نزلت من السيارة وعدت إلى الناصية تعرفت على دكان مجيد العلوجي رأيت الأكياس على عهدي بها جوز. فستق ماش هرطمان والميزان بارزاً بين الأكياس

لمحت صبياً في أقصى الدكان يبدو رأسه الأشعث مثل رأس كيس مشدود ثم رجلاً لا أعرفه ينزوي في ركن مرتفقاً أحد الأكياس ماسكاً ذقنه كان نحدق بي مستغرباً سألته عن مجيد مبرراً تطفلي

أي مجيد هذا ؟ أبو ذاري ؟ — وكأنني أجبته بنعم حرك ذراعاً طويلة إلى الأمام وقال دون أن يبدل من جلسته جامداً خاملاً كأنه لصق بالكيس — أنت نائم او غريب ؟ مجيد مات من زمان
تأسفت وأدرت له وجهي قابلني مقهى عموري المغلق سألته عنه فأجاب

— ولمن يُفتح ؟ هل ظلت رجال حتّى يفتح لهم ؟ ها أنت شايف خرابه

في طريقي إلى السيارة مررت بأنقاض حدقت ببعض الدكاكين المغلقة فيما يلي المقهى كان آخرها قد قلع سقفه وهدم الحائط المواجه للشارع وكان نصف الجدار الداخلي من دكان آخر مهدماً تلوح من خلاله رؤوس بيوت في الجهة الأخرى وقطعة شعثاء من السماء ربما ذلك دكان رجب القنادرجي لطخات صبغ على الحائط المهدم في المكان الذي كان يعلق فيه الجلود والدكان الذي بعده كان دكان حسن الحلاق في الماضي وفي الجانب المقابل دكان غلام الصباغ وبعده سعيد أبو الفحم ارض كالحة لا أثر للفحم فيها كان اللون الأسود يصبغ كل شيء على مسافة أمتار منه ثم يبدأ « عقد الطاق » والأزقة الداخلة فيه والمتفرعة منه

ها ؟

— لا أدري قلت للسائق في انقطاع من أمل يبدو أن كل شيء أمحى من الأساس .

أوه هدمت محلات بكاملها

يبدو أن بيتي قد هدم أيضاً البيت والزقاق وكل شيء

– وأنت لا تعرف بهذا

– لا أعرف أهذه منارة الخلاني ؟

– نعم

– كان بيتي هناك في « عقد الطاق » ما بين المنارة وجامع العندروسي

اسأل استفهم لست مستعجلاً على العموم لا تخف البيوت لم تهدم على أصحابها وأهلك انتقلوا إلى بيت آخر

حاولت أن أتذكر الأزقة التي خلفتها قبل ستة أعوام. كان هناك زقاق القصابين تليه عرصة السكراب. لا. عرصة السكراب أبعد كانت هناك دربونة النخلة وجامع الرواس على مقربة من مقهى أبو كربات. يبدو أن الجامع هناك في الجانب الآخر من الشارع. حيث توجد المراجيح وكان جامع العندروسي بالقرب من دكاكين حبو. عبرت الشارع هرولة ومرّغت قدميّ بتراب الخرابة التي تطل عليها منارة الخلاني صعدت إلى فوق. قابلتني جدران قبيحة طينية اللون وثغرات شوهاء هي بدايات أزقة بترت بتراً. لم أتعرف على واحد منها. رأيت دكاكين لا أظن أنها كانت موجودة يومئذ. وحيطاناً جدتها واضحة وأبواباً جديدة. وستارات من ألوان غير مألوفة لي شربكة ومتاهة لم أعرف لها رأساً من عقب. أطلال لم يلتفت إليها قلب مني ولا عين أردت أن أعود من حيث أتيت. تذكرت دكان حميد الزعرتي كان مقابل الخلاني تماماً. ولكنني وجدته مسدوداً بحائط واضح بمربعه الظاهر الجدة والساحة التي أمامه ليست بالساحة الرحبة التي كنت أتذكرها غريبة عليّ تماماً . ومخنوقة برائحة التراب والخراب والقدم. تعلق بصري بكل خارج

من دار وكل عابر سبيل. وكل زمرة أطفال تلعب. ثم فطنت إلى عبث اللعبة التي ألعبها كأن الأطفال لم يكبروا والرجال لم يشيبوا، والشيوخ لم يودعوا الدنيا إلى غير رجعة ثم ان بيتي لم يكن هنا كان في « عقد الطاق غير بعيد عن جامع العندروس ودكاكين حبو في المكان الذي تجري فيه السيارات الآن عدت إلى السيارة ولم أجد حولي بيتاً واحداً أسأل أهله. كان كل شيء غريباً عليّ مهجور

— ها ؟

عبثاً لم أهتد إلى شيء

— لا حول إلاّ بالله ألم تسأل ؟

ومن أسأل وأنا لا أعرف أحداً

أليس لك أقارب معارف ؟

الأفضل أن تنقلني إلى أقرب فندق

خجلت أن أقول له إنني بلا أقارب ليس لي في الدنيا غير أمي وأبي. وأخي عدنان أما أولئك الذين جاؤوا من بهرز وقالوا نحن أعمامك. فلم أعتبرهم كذلك حتى في ذلك الحين

— ٢ —

« هكذا إذن هكذا

أطبقت باب الغرفة الصغيرة وألقيت جسمي على السرير هذا هو السبب إذن السبب في أنني لم أتلق رسالة منهم كانت رسائلي تضيع مفقودة العنوان كل رسائلي وتساؤلاتي خلال عامين من عمر الثورة وانفتاح الطريق كل تضرعاتي لسماع كلمة منهم خبر إشارة على أنهم أحياء . ...

كم كنت أتحرق إلى شتائمهم وتساؤلاتهم «وين حل الدهر بيك» حتى هذا لم يرسلوه لي صمت نسيان تام والسبب وجيه ولم يكن يخطر على بالي لم أكن أتصور شيئاً من هذا كنت أتصوره مجرد إهمال غسل اليد من ابن جرعهم المرار تعبوا وشقوا من أجله ولما شب صار يخلق لهم المصاعب ثم هاجر إلى غير رجعة عقوقاً ونكراناً للجميل ليذهب إلى جهنم وبئس المصير براءة من الله ورسوله تعب طاغٍ يفلّ مفاصلي تعب محرق كالنار لم أخلع ملابسي ولم أغتسل بل انطرحت هامداً مضني ولكن أيمكن هذا ؟ بهذه الدرجة القاسية ؟ يختفي كل شيء من الوجود ؟ لم أصدق كان رأسي يوشوش وكأنما صُبّ ماء كدر ولا يتقبل أية حقيقة والذكريات في حالة الضعف والهوان تكتسب قوة طاغية قوة على التلبس بثوب الواقع وهكذا تصورت أن أهلي ما زالوا في بيتهم القديم وأنا هنا في أحد الفنادق التي يستريح فيها المسافر ريثما يستأنف السفر والطنين الذي يتمرغ على طبلة أذني الآن هو بقايا طنين الطائرة التي نقلتني من الشرق إلى الغرب ثم عادت فنقلتني إلى الشرق كل شيء باق على حاله الزقاق البيت الذي عشت فيه أهلي والجيران مجيد العلوجي وغلام الصباغ والجميع كانوا ملء ذاكرتي حتى كنت أشم روائحهم وأسمع خفق أصواتهم يهمس من مكان بعيد وكل ذلك حرك الدم في عروقي حركة لهفة حادة لرؤيتهم نهضت من سريري وشعرت باحتباس الهواء وبالحر. فتحت النافذة فانصبت الضوضاء مثل شلال غير منظور أشرفت على شارع الرشيد كان الليل قد خيم والأضواء قد أضيئت رأيت سقوف السيارات تلمع وظلالها تسابقها والأرصفة تغص بالناس تتصاعد إليّ أصواتهم كهمهمة موصولة وكأنما هي صدى لزئير المعدن على الأرض ترامت إليّ روائح مألوفة كأنما فتحت باب غرفة قديمة قضيت فيها شطراً من حياتي وانحبست فيها أنفاسي وأنفاس من أعرفهم قلت لنفسي في تلك الروائح والظلال والدندنة شيء يخصني شيء مني صديق أو واحد من معارفي وأنا هنا حبيس هذه الغرفة

الصغيرة مثل رجل في غيبوبة تملكني الذكرى وتجرني فلماذا لا أنزل وأراهم هناك على الأرض ؟ أغلقت النافذة واغتسلت . وعدلت من هندامي وبعد دقائق كنت مع الناس في شارع الرشيد

تعرفت على المكتبة الإنكليزية الصغيرة التي كنت أشتري منها الكتب ومحل بيع الأدوات الاحتياطية ومقهى البرازيلية ومطعم عمو الياس دخلته فرأيته قد وسع من الداخل ولكن لم يلذّ لي لسانه البارد كما كان يلذ لي في الماضي دفعت الفلوس وسرت مع السيل المتجه إلى الباب الشرقي لم يتغير شارع الرشيد وجدت كل شيء في مكانه ولو أنه اكتسى غلالة غبراء من القدم ما أفظع الغبار هنا ! إنه يتصاعد من تحت عجلات السيارات وأقدام الناس على السواء ويكسف الأنوار في الشوارع ويجعلها تبدو بعيدة مخنوقة والعجيب أن الناس لا يبدو أنهم يتضايقون منه كانوا يسبحون فيه متعودين في الماضي كنت مثلهم لا أحس بالاختناق أما الآن فكأنني في بلاد غريبة دخلت شارع أبي نواس من تحت جسر لا أعرف اسمه وتوغلت عميقاً خلال مقاه متلألئة الأنوار . لم أصادف أحداً أعرفه لم يناديني أحد يعرفني وجوه مألوفة تمر بي وكأنها نسيتني سرت وحيداً حتى وجدت مشرباً جديداً اسمه «الجندول» بارداً وملوناً بألوان مريحة دخلته وانزويت إلى مائدة صغيرة في سردابه الهادىء طلبت زجاجة بيرة احتسيتها بسرعة وراقبتها تتحول إلى خدر لذيذ في أوصالي فرغت مائدتي فطلبت كأس عرق من الساقي وأسفت حين هز رأسه معتذراً كأنني سألت عن صديق قديم فأجاب بأنه لا يعرفه طلبت زجاجة بيرة ثانية تعيد الصفاء إلى نفسي المشة الآن أستطيع أن أفكر بجدية في مصير أهلي مع الخمرة يصفو الدماغ وتأتي حالة البلورة الذهنية تتفتح تلافيف الدماغ مثل حلزون أشبع وأترع أن أهلي هنا في بغداد ليس انتقالهم من عقد الطاق يعني ضياعهم السائق على حق حين قال : البيوت لم تهدم على أصحابها لا بد أنهم يقيمون في زقاق آخر أو ربما في

شارع أعرض في بيروت قرأت أن للعراق في كل يوم ثورة فلعل إحدى هذه الثورات قذفت بأهلي إلى شارع أعرض وأقل قذارة من الأزقة التي تربيت فيها ولكن كيف أجد هذا الشارع الملعون من يدلني عليه أعلن في الصحف في الإذاعة ؟ شاب في الثلاثين من عمره يبحث عن أهله والرجاء الاتصال بفندق الثورة أم أطوف في بغداد كلها ؟ محال أترك ذلك للمصادفة ؟ ومتى كانت المصادفة إلى جانبي ؟ طوال حياتي كانت ترفع راية القرصنة ضدي والموجع أنني سأقضي ليلتي الأولى في وطني وحيداً في فندق عفن ذلك عكس توقعاتي كنت أتصورهم سيرضون عني عائداً محملاً بالهدايا مكفراً عما سلف مقسماً أغلظ الايمان بأنني لن أغادر وطني بعد الآن ماذا كسبت من الغربة ؟ لا شيء ولكنني عدت على أية حال سليم الروح والجسد يداي قويتان وعقلي ما يزال يعمل أنا مستعد أن أبرز لهم كل شيء حتى تأخري ولكن اين هم ؟ ورأيت سوداويتي الشمطاء أمامي مدت لي لسانها لتثرثر في أذني فأردت أن أشله بزجاجة بيرة ثالثة وشعرت بالسكر يهاجمني فجأة ما أن كففت عن التفكير حتى سمعت طنينه وشعرت بخفقان جناحيه حولي خرجت وتمشيت في شارع أبي نواس وكان الناس قد تكتلوا إلى عصائب قصف تناهت إلي أصوات الراديو بالأغنيات ممزوجة بضحكات مجهولة. وصعب علي أن أذهب إلى الفندق لم تكن الساعة قد بلغت العاشرة والبيرة أرخت بعض العقد من أعصابي وملأت جوانحي بعاطفة الحياة فدخلت باراً وشربت كأس عرق لم يكن مذاقه لذيذاً بينما استمعت بتلذذ أكثر إلى لغتي الجهيرة تعربد في أفواه السكارى شتائم وتمنيات خرجت من البار أكثر سكراً وقررت أن أذهب إلى محلتي لأشهد آثار الجريمة هناك ضعت في ساحة التحرير ودار رأسي عند نصب الثورة الشبيه بشعار مرفوع في مظاهرة يقودها الباعة والمتسولون ثم لم أعرف في أي شارع أدخل ركبت سيارة وأحسست بأن الناس صامتون كالخرس مقهورون كما هم في بلاد الآخرين لا يحبون السكارى ولو كانوا من الذين

أضاعوا أهلهم وهم في الغربة أطبقت فمي حتى نزلت في المحطة التي أعرفها بعد شارع الكيلاني سرت متعثراً بالحفر على رصيف ضيق وشممت رائحة دهن سيارات مقزز ورأيت دكان حلاق متوهجاً بنوره والمرايا ورجع إليّ تصوري بأنني عائد إلى البيت أنا تعبان وجسمي ثقيل وقفت أترنح على الرصيف كان مقهى عموري ما يزال مغلقاً خشخش شيء تحت قدمي علبة سكائر فارغة استدرت فرأيت الخراب كالهاوية وفي قعر الهاوية أضواء ، وسيارات تمر خطفاً تجولت في الفراغ المظلم صعدت قدماي وهبطتا وتعثرتا بأشياء كثيرة وفجأة رأيت شبحاً أمامي بحلقت به كان يقف أمامي صامتاً أضاءه مصباح سيارة مارق فرأيت البندقية على كتفه توترت أعصابي

ها شني غرضك هنا

اشلون ما عندي غرض ؟ هذا بيتي

بيتك ؟ أنت سكران لو مجنون ؟

– بيتي قسماً بهذه البندقية بيتي

– لا تمد يدك

– بس أنت واقف على بيتي هذه حجرتي

شعّ في عيني ضوء سيارة فأغمضتها

– تحسب نفسك تقدر تضحك على الناس ؟ أفندي من كذب

– صحيح من كذب بس أنت خوش آدمي

– لا تصبغني قل لي شنو غرضك ؟

– بيتي وحياتك هذا كان بيتي

أخاف وراك شي تعال افتشك

رفعت ذراعي ضاحكاً وأوشكت أن أضمهما على كتفيه وأذكر انني قدمت له سيكارة وشيئاً آخر وجرى بيننا حديث عذب بعد ذلك وأذكر أنني مررت ببرج الكنيسة واستثقلت صعود درج الفندق الضيق خفت أن أقع وأموت وعندما استيقظت كان أول ما تبادر إلى ذهني أنني منبطح في الشارع سمعت رنيناً معدنياً بالقرب مني فتحت عيني فألفيت نفسي مستلقياً على السرير بملابسي وعاد إليّ الإحساس بجسمي موجعاً عرقاً مسحوقاً وكأنما هرسته أقدام كان العطش يلهب حلقي ويجف قصباتي حركت ذراعي ورفعت جسمي عليها رأيت علبة سكائر مسحوقة بالقرب منها وغمرني ذلك الإحساس اللعين بالتقزز الإحساس الذي ينتابني كلما استيقظت بعد سكر مخبول الإحساس بالندم والعار والقذارة وخيانة نفسي وارتكاب عمل قبيح أزاء الآخرين نهضت ممتعضاً. وتناولت سيكاره من العلبة المهروسة وأشعلتها فتحت باب الشرفة الضيقة ليتجدد الهواء وأشرفت على شارع الرشيد كان مقفراً مهجوراً كما شهدته ذات مرة في ساعات منع التجول كانت المصابيح تغسله بضوئها الفسفوري الميت تحابي أمكنة وتهمل أخرى فتبدو الأعمدة الكونكريتية الجبارة مثل مقاصير قديمة مهجورة السكون قطعة شاش سميكة تغلف كل شيء ثم سمعت دمدمة عن يميني عميقة ومتنامية ظل الصوت يقرض شاش السكون كفأر عربيد حتى خرجت من تحته سيارة برزت من صوب الجسر ورأيت رماح الأضواء تتناوشها حتى غابت موكباً من الضوضاء المهزومة إلى يساري نظرت في ساعتي كانت تشير إلى الثانية والنصف وتذكرت أنها ما تزال على توقيت بيروت قدمتها ساعة وأشعرني ذلك بحركة الزمن وقربي من انبلاج الصبح فكرت بأن الساعة « هناك » أكثر من توقيت بغداد بساعات الصباح يبزغ هناك ، والشمس، وعالم آخر وشياولان ري جو هو فان . . . ماذا تفعل الصغيرة الآن ؟

ني في بيتها أم هي منطلقة بدراجتها في أحد الشوارع في طريقها إلى العمل مرتدية فستاناً أم عادت إلى البنطلون بعد رحيلي ؟ ألم تقل أنها تلبس الفساتين من أجلي وتتحمل تقريع الآخرين ؟ الآن أصبحت حرة لم أعد أضايقها ولا أسبب لها مشاكل الآن أصبحت لي مشاكلي الخاصة. لا بدّ أنها جمعت فساتينها؛ وألقتها في الصندوق القديم تابوت البرجوازية كما كنا نسميه وهل يهمني ذلك الآن ؟ بفستان أو ببنطلون لي أو لشخص آخر لم يعد يهمني شيء أصبحت في عالم آخر بيني وبينها آلاف الأميال وسدود وأبعاد عبر الروح والجسد لقد أصبح كل شيء ذكرى لا تلمس باليد

تركت الشرفة وانبطحت على سريري بعد أن خلعت ملابسي واستسلمت لها

حاولت أن أتذكر وأنا مستلق على السرير متى بدأت علاقتي بها

في رحلتنا إلى الجنوب تسلقنا جبالاً سامقة وسرنا حذاء مهاوٍ سحيقة ودخلنا في أنفاق طويلة أضيئت فيها مصابيح العربات وفجأة توقفنا في بقعة خضراء تحرسها جلامد حمراء داكنة وقالوا انزلوا لتروا العالم حتكم ولكنهم نصحونا بارتداء المعاطف نزل الناس في معاطف وفي بطانيات أو اشتركوا في دثار واحد أخذ كيفما اتفق بينما بدت الطبيعة لعيني وديعة مسالمة لا تعرف الأذى كانت الشمس باهرة بلونها الفاقع الشفاف تبرز من تحتها الأشياء قشيبة نظيفة.وكأنها خرجت لتوها من مصنع الطبيعة. وكان الصمت عميقاً كأن الصوت لم يخلق بعد كأن العالم ينتظر مكتوم الأنفاس المحاولات التي ستشنجه بصراخها وبكائها وعربدتها نزلت بلا معطف ووطئت الصخر الأحمر كحجر ياقوت لم يصقل بعد والعشب الشبيه بفراء أخضر لحيوان في حالة سبات وأشرفت على الدنيا وقفت على شفا الهاوية بدم منها عالم الناس هناك . خلف شفوف رقيقة بيضاء وخضراء وبرتقالية . . . هناك حيث

تمتد أعمدة بيضاء عملاقة ومستطيلات اهية الحصرة وبقع رق مغبشة لامعة كالمرايا القديمة هناك يفرش العالم عادياته في قعر الهاوية حيث الدفء والضوضاء والتواضع بينما الصمت هنا يجمد كل شيء ويملأ النفس بذلك الإحساس الصوفي بالوحدة والخوف والتفت عن مسند أتكىء عليه فرأيتها ورائي تبتسم مقتربة مني

هل أعجبك المنظر ؟

نعم يبدو أن كل شيء وادع مسحور فلو ألقيت نفسي في الهاوية فسأطير على تلك الأبسطة الشفافة ولا أصاب بأذى

قالت موسعة بسمتها

— ستنزل على الأرض متجمداً كالحجر لماذا لم تلبس معطفك كما قالوا لك

وأشعرني كلامها بالبرد رعشة خفيفة هزت جسدي كتلك الرعشة التي يحس بها طفل تذكره أمه بظلام الليل وبرودته تقدمت الأم مني وخلعت معطفها وألقته علي و. عليها تكورت إلى جانبيها كطفل مذعور وحاولت أن تكون قامتي بقصر قامتها أحسست بملمس جسدها الدافىء الطري يداعب العظام التي هي جنبي ورحت في غيبوبة لذيذة لم أصغ إلى ما قالته عن عظمة الإنسان الذي يتسلق الجبال شاقاً الأنفاق ملقياً الطرق فإن واجبها كمترجمة أن تعرف هذا الجانب من عظمة الإنسان أما أنا الطريد الفالت من عالم الجائعين المتشردين فقد كنت أحس بعظمة أخرى للإنسان عظمة الدفء الذي يمنحه، عظمة التصاق جسد بجسد، كنت اجيبها عند الضرورة القصوى بـ « نعم باردة ساهمة فقد تجمعت كل حواسي في حاستين فقط اللمس والنظر حتى صوت صافرة قطار جأرت قبيحة كنفير الثبور . التفتنا فرأينا

الركاب جميعاً في القطار وحين غادرت كساءها أحسست بكل زمهرير العالم المنطفيء ينصب في جسدي ركضنا سوية وأطبقنا باب العربة على علاقة نامية

ثم التقينا ثانية أنا أتذكر ذلك وكأنه شريط سينمائي يعرض أمامي الآن كان لقاء أعذب وأقرب إلى حياة البشر في تلك السفينة المسماة « فجر الجنوب نعم أتخيلها الآن تماماً مصورة في خيالي شبيهة بالسفينة التي وصفها مارك توين في « الحياة على المسيسيبي عريضة ولها دولاب إلى الوراء وصالون كبير مبطن بمخمل أخضر حائل اللون ومقاصير قائمة على الجانبين وبار مهجور حُوّل إلى منبر أقلعت بنا من مدينة لا أذكر اسمها وحملتنا عبر عظيم أياماً ثلاثة في النهار كنا نرى ضفافاً خضراء زاهية تمتد امتداد البصر أو غابات من البامبو مثل حزمة هائلة من الأعواد الخضر وفي الليل كانت السفينة ترسو في مرافىء مجهولة كنت أستيقظ ليلاً على لغط الملاحين، وأصوات تشبه أصوات حبال تسقط في الماء، وكركبة مثل دحرجة براميل أو بالات وطرطشة ماء واهتزاز و « هو هو و ه » طويلة خناء وفي اليوم الثالث عبرنا المضايق حيث يطبق على النهر جبلان شامخان يبدوان من الأسفل مثل فكي تمساح أخضر وقللت السفينة من سرعتها كثيراً حتى راقبت كل شجرة وكل مغارة في جبل وكل سيف وكل أخدود ورفعت بصري إلى فوق فرأيت بيوتاً قليلة وحيدة في الجبل وكأنها خلقت معه وإلى الأعلى منها رقعة قماش حريرية تظللنا هي سماؤنا التي لا تطاول وعندما بدأ الجبلان ينفرجان أحسسنا بأنفاسنا تتسع ورأيت الأرض الأم تفتح لنا ذراعيها الممتدتين على شكل ربوات طويلة شعرهما قصب البامبو وأظافرهما من أحجار حمر وكانت ليلتنا الأخيرة على ظهر الباخرة صاخبة سمحوا لنا بشرب خمرة الجنوب المعتّقة ورقص بعضنا أزواجاً ودعوا الشباب منذ عشرين عاماً أو أكثر . وجلست

أراقب الرقص مهموماً لا سيقان تغري بالفرجة ولا حركات تهدهد القلب والجسد. ولا رقة فستان فوق الركبة. رأيت الزوجين اللذين وكلت بهما شياولان يرقصان مخمورين عجوزان يستعيدان رقصات شبابهما وهي منزوية قرب شباك مفتوح تقدمت منها بجسارة الكأس الثالثة وقلت

– وددت لو أرقص معك ولكن لا أعرف الرقص هذا حظي

– وأنا أعرفه بشكل رديء جداً ولهذا خفت حين رأيتك قادماً فقد تصورتك قادماً للرقص

أنا قادم للمحادثة ألا تعرفينها ؟

– قليلاً مثل معرفتك للرقص

– كنت تتحدثين في سقف العالم عن عظمة الإنسان بطلاقة

– أوه كل إنسان يستطيع أن يتحدث عن الإنسان والمفروض بي كمترجمة أن أعرف هذه المواضيع

– إذن فلنلتزم بالمواضيع التي تعرفينها – وصمت لحظة وقلت لها أول شيء خطر على بالي – يبدو أن رحلتنا موشكة على الانتهاء

– بالضبط وسيأتي طريق العودة الممل

– لعلك كنت في رحلة مماثلة ؟

– سافرت إلى المدينة التي سنصل إليها غداً مرات عديدة وعدت من نفس الطريق مرات عديدة

– الحق معك كل الطريق مملة إذا سُلكت مرات

– هذا ما يبدو وأنت نفسك ألَمْ يسبق لك أن سلكت طريقاً واحدة عدة مرات ؟

في الماضي نعم كانت حياتي رواحاً ومجيئاً في طريق واحدة والآن

كل الطرق جديدة علي فأنا الآن « فاغا بوند كما ترين

ولم أسمع ضحكتها من صخب الموسيقى ولكنني لمحت شفتيها تنفرجان وكتفيها ترتعشان طلبت إليها أن نخرج تخلصاً من ضوضاء الموسيقى فاستجابت.. وفي جانب السفينة غمرنا ليل ندي فواح برائحة أعشاب ونباتات مبللة وقليل من زفر السمك وكان العالم المرئي ينتهي على بعد مترين منا، ثم تبدأ الظلمة حالكة كالحبر الصيني اتكأتْ على حاجز السفينة وحدقتْ في الماء بعمق وكأنها تريد أن تمرّ على ذيل سمكة وتركت جسمها لي لأتملاه في الضوء المهلهل المتسرب من بعض المقاصير المغلقة الأبواب تمليت بروفيلها الدقيق المفلطح وخصلة الشعر السوداء النافرة تتدلى على جبينها وجيدها اللامع الرقيق ورمانة كتفها وكل النصف الأعلى الأهيف النحيف من جسمها نحافة جعلتها تبدو لعيني فتاة في الرابعة عشرة حتى لعجبت كيف كانت تنطق بالطريقة التي تتحدث بها النساء اللواتي غلبهن العمر وتسأل بعد دقائق من الصمت والحديث العادي أسئلة يولع بها الكبار عادة والمسنات من النساء في أغلب الأحيان هل تركتَ عائلة في بغداد ؟ نعم زوجة ؟ لا أباً وأماً وأختاً ؟ وخطيبة ؟ ألم تكن لك حبيبة هناك ؟ (كانت تستجد في الظلمة فلم أعرف ما كان يرتسم على وجهها وهي تتفوه بهذه الكلمات)

لا

ألم تحب

أحببت ولكن لم أحبَب

وزادت لهفي إلى أن أرى تعابير وجهها . كأنني أمام امية ودع ألقته

لتعرف حظي ولكنها صمتت واستمرت في صمتها حركتها برومانتيكية مبتذلة أخذتها من أريك ماريا ريمارك

حقاً لم تحبني أنثى غير أمي.

ورأيت صدرها يهتز بضحكة أو بعبرة وتمتمت بشيء من خلال أصابعها المطبقة على فمها سألتها

وأنت

متزوجة

حسبت أنني أكذب فردت بكذبة مضادة ولم أصدق بكذبة هذه الفتاة الصغيرة بالطبع جاريتها في نفس المضمار

وعندك خمسة أولاد ؟

ــ اثنان

وضحكت ورمقتني بنظرة

الفصل الثاني

ـ ١ ـ

استيقظت على منبهات سيارات كانت تعدو ورائي كالذئاب نباحاً مسعوراً وهي التي نبهتني إلى أنني في غرفة غير غرفتي المطلة على مدرسة المغتربين حيث كنت أصحو على زقزقة العصافير أو إذا تأخرت في النوم على دبهبة الأطفال فتحت عيني قلقاً وهززت رأسي على المخدة وهو أول ما أفعله في الصباح عندما أستيقظ بعد سكرة لأعرف ما رسبت الخمرة في رأسي لم يكن إلاّ صُداعاً خفيفاً . وشجعني ذلك على النهوض تذكرت بعض خواطري في الليلة الماضية فنظرت إلى ساعتي الثامنة والثلث بتوقيت بغداد هذه المرة بغداد الطفولة والصبا والجزء الأخير من الشباب ! فتحت الشرفة فإذا أنا في القلب منها اغتسلت على عجل وارتديت ملابسي ونزلت إليها رأيت الناس يسيرون إلى باب المعظم عجالى وعلى سيمائهم الجد والتقطيب، ربما من خمار البارحة اتجهت إلى اليسار فرأيت سينما الزوراء قد حُوّل اسمها إلى سينما الشعب ومقهى المربعة قد أحيط بسياج حديدي قبيح إلاّ أنني رأيت الحلاق الأرمني القديم يخرج كرسياً من دكانه وقد ترهل وشاب رأسه وإلى جانب دكانه بقال يملأ فم دكانه باجانة كبيرة من اللبن وصحن قشطة هائل تناولت فطوري واقفاً وعدت أدراجي ورأيت بائع الجرائد

جباراً ما يزال في مكانه عند مقهى السويسرية القديم قدم إلي الجرائد وهو يتفرّس فيّ بعينيه الواسعتين وقد جمدت يده في الهواء قلت

نحن متعارفان في الماضي يا جبار

هز رأسه وأطلت من فمه الرقيق ابتسامة عريضة

نعم أستاذ تذكرتك أيام السويسرية

أما أنا فعرفتك من النظرة الأولى ولكن لم أسلم عليك لأنني ظننت إنك نسيتني كيف حالك

عايشين أين كنت في هذه الغيبة

في خارج العراق

تغيرت قليلاً

كبرت الشيب بدأ يغزو رأسي

ضحك جبار مستهيناً بشعرات رأسي البيض وأدار لي عارضه

هذا هو الشيب يا أستاذ

كنت فتى ممشوق القوام

الآن صاحب عائلة خمسة أفواه وأنت

ما أزال وحيداً — وغمرني شعور مفاجىء بالتفجع فأفلت من لساني بل أكثر وحدة من قبل ستة أعوام فقد عدت إلى بغداد ولم أجد أهلي

— لم تجد أهلك

— لم أجد المحلة كلها عفى عليها القص في العهد الماضي ولا أعرف أين سكن أهلي

كيف لا تعرف ؟ ألم تكن تتراسل معهم

تريثت قبل أن أجيب

كنت أراسلهم عن طريق صديق في مصر أبعث الرسالة إلى مصر فيبعثها هو بدوره إلى بغداد فقد كنت في منطقة كانت محرمة على العراقيين آنذاك ثم انقطعت الرسائل حين ترك الصديق مصر

كان وجه جبار كله متوتراً بالدهشة والترقب قال

– أكتب في الجرائد

أهلي لا يقرأون الجرائد

أكتب لصديقك الا يقرأ الجرائد أيضاً

أوحى لي جبار بفكرة فرحت لها بقدر أسفي على أنني استرسلت معه في حديث شخصي وكأنني كشفت له عن عاهة في جسمي تناولت الجرائد ، وجلست في البرازيلية أتصفحها مع قدح من القهوة الكثيفة كالدبس وسرعان ما ألمّ برأسي دوار مما فيها جرعت قدح القهوة بجرعتين كبيرتين وتركت نفسي مهداً لأفكر فيما ينبغي أن أقوم به اليوم قررت مع نفسي أن أذهب إلى المختار حاولت أن أتذكر أين كان بيته وتراءى لي أنه كان قريباً من محلة السوامرة بعد زقاقين ثلاثة من ساحة الخلاني قبل أن تصل إلى الطريق المؤدي إلى مركز السنك تركت المقهى وذهبت إلى محلتي أو إلى ما تبقى من محلتي وهل تبقى منها شيء ؟ ! أمحت الدروب والأزقة والبيوت والدكاكين والجيران. وجيران الجيران على رقعة واسعة من الأرض. مررت بمقهى عموري المغلق ورأيت العلوجي الجديد يفرغ حمولة من لوري اقتربت منه فأسرع في الدخول إلى دكانه عن قصد أو غير قصد سرت نحو شارع الجمهورية هنا رأيت الشرطي الليلة البارحة واقفاً على ما تخيلته موقع بيتي والآن في

صحوي وصحو الطبيعة لا أعرف أين موقع بيتي وأين كان زقاقنا والأزقة المتصلة به والمؤدية إليه غابت كلها ولم أستطع أن أعيد تكوينها في خيالي مهما أجهدت نفسي كانت دوامة صغيرة من الهواء تصنع على بعد مترين مني مغزلاً ترابياً تتراكض في أذياله حجارة صغيرة وخيل إليّ أن واحداً من هذه الحجارة . على الأقل كان في بيتي شاهداً على شيء من ذكرياتي لاحقت الحجارة وكأنني ألاحق ورقة سجلت فيها عناوين عزيزة عليّ وعندما دنوت منها فرت وتفتت على أرض الشارع المبلطة وفي الجانب الآخر من الشارع رأيت دواليب هواء تدور في الشمس الحادة وحولها أطفال حفاة صعدت إلى جامع الخلاني وأدرت ظهري له لأساعد ذاكرتي على استعادة الصور إلى اليسار كان يمتد شارع يصعد إلى السوامرة وحي الحياكين وفي الركن بيت المختار السيد هاشم تعرفت على الزقاق الصاعد إلى باب الشيخ وخلفته ورائي وعبرت زقاقاً آخر ثم رأيت زقاقاً آخر مقطوعاً وهو الذي أدار رأسي تلفت حولي وسددت نظري من زوايا متعددة ورأيت بيتاً على الناصية تصورته بيت المختار نعم هذا هو بابه من الخشب السميك لم أتذكر بأي لون كان ، ولكنه كان لامعاً دائماً وقد زال اللمعان منه الآن واكتسى تراباً مثل كل شيء هنا ولكنني تعرفت على الدكة الاسمنتية والحديدة التي تنظف بها الأحذية وفتحة الأنبوب الذي يحمل الماء القذر إلى الشارع ضغطت على الجرس وفي لحظات الانتظار تصورت أنه سيخرج لي بنفس لباسه الوسط بين الأفندي والزي البغدادي ولكن المرأة التي فتحت لي الباب ردت على سؤالي بحدة « مجنون جاء على مجنون ! » وصفقت الباب في وجهي وسمعت ولولتها وشتائمها في الجانب الآخر وقفت أمام الباب الأصم مشدوهاً يحز ظهري عرق الخجل البارد استدرت فرأيت بعض الأولاد. لا أعرف من أين جاءوا وامرأة يحدقون بي نظراتهم متفحصة متشككة انغرست كالأشواك في أعصابي فارقتها وأسرعت عائداً إلى الجامع وقبل

أن أصل سمعت كركبة خلفي التفت فرأيت المرأة ملفوفة بعباءتها تحدق بي وحولها الأولاد

عيني أنت غريب ؟

أوجعني سؤالها وكأن باباً آخر يصفق في وجهي

أنا ابن المحلة خالة

ابن المحلة ولا تعرف بقصة المختار ؟ وين ساكن ؟

— هناك

وأشرت إلى نقطة غير معينة عبر الشارع المبلط رأيت رأسها ينسحب تماسكت وسألتني ابن من أنا ؟ فذكرت لها اسم عائلتي فأصرت على أن تعرف اسم أمي ذكرته لها صمتت وبدا وجهها أكثر ملاحة وشباباً عندما انطبق على المفقود من سنانها

— عيني اشلون ما تعرف أهلك وين شالوا ليش وين جنت

ومن تقاطيع وجهها حدست ما يدور بخلدها نفيت لها ظنها وذكرت لها إنني كنت أدرس في الخارج رمقتني بنظرة مستغربة ربما رأت سي أكبر من أن تصلح لدراسة وطلبت أن أنتظرها وانصرفت وجدت نفسي محاطاً بجمع من الأولاد رمقوني بنظرات مستخفة وكأنني بائع حلويات بلا صينية حلوى واقتربوا مني حتى كادوا يمسون ثيابي وكأنهم يريدون أن يتحسسوا الدبق عليها كان روعي قد هدأ فقابلت نظراتها الصامتة بمثلها رأيت طفلاً وسيع العينين ترتجف شفتاه قبل أن يقول

— عمي

لم أسمع قط هذه الكلمة توجه إليّ من شفتي طفل لم أسمعها طوال سنوات

الغربة وقبل ذلك لم أسمعها في وطني أشعرتني كلمته بأنني كبرت وبأن ما يفصلني عن ماضيّ هو جيل كامل أصبحت فيه عماً دون أن أدري وفي الوقت ذاته أشعرتني هذه الكلمة بالإلفة وزال جانب من وحشتي والخجل المتخلف من صباي مددت يدي ونحسست شعر الصبي الخشن

نعم ابن أخويه

– عمي عندك ولد

نعم أصغر منك بشويه

وخشيت أن يسترسل بأسئلته فلا يستقيم لي كذبي

تطلعت فرأيت المرأة تقبل مع أخرى فرعاء والاثنتان مشتبكتان في نقاش تفحصتني الطويلة وكأنني صبي ضائع عليها أن تجد له أهله حاولت أن أتذكرها فلم أستطع إلاّ أن فيها شيئاً مشتركاً عند كل النساء في هذه الأزقة الرائحة وشمرة العباءة واليدان المتطبقتان تحت الصدر والشفتان الخاليتان من الدم و و

عيني أرجوك لا تشوف كلامي ثقيل عليك أسألك أمك عضبه

نفيت ذلك فرشقت الأخرى بنظرة فقالت هذه

– أسنانها مكسرة مثلي

ضحكت وقلت مجاملة

– ربما تكسرت وأنا في الخارج

– عندك أخوة

– ليس لي غير أخ واحد تركته صغيراً

لم تكتف المرأة بالنظر إلى صاحبتها هذه المرة بل بست لها ثم ارتفع صوتها شيئاً فشيئاً حتى استوى على درجته المعتادة فسمعت

أنت تخشين بالعين الخصيّ تطلعين له ولد صبيحة العضبة ما عندها ولد يدرس بالخارج ولد واحد والمخة يدور عليه

سألتها

أين كان بيت صبيحة العضبة

فأشارت إلى بقعة على بعد عشرين خطوة منا في هذا الجانب من الشارع

ثم تحدثت المرأة عن رجل أعرفه ففتحت ثغرة في الجدار الأصم الماثل أمامي ولكنها شتمته أشنع شتيمة فلم أجرؤ على السؤال عنه قالت أنه من العهد البائد وتحدثت عن ذلك العهد وكأنه شخص من لحم ودم له عينان وقحتان ويدان غليظتان مفرستان « إيده والكفخة ! » يئست منها حتى موقع بيتي لم تحدده بالضبط ولكنها كانت تشير إلى مواقع وأشخاص مألوفة إليّ كانت تناديني من خلف ستار انتظرت أن تصمت لأسألها أين سكن الناس الذين كانوا يعمرون تلك البيوت

أرخت يديها وقالت

وين سكنوا ؟ بغداد كبيرة والناس شافوا القص نعمة حتى يتخلصوا من الجيفة والوساخة ويسكنوا البياع والداودي من يدري يمكن أهلك يسكنون البياع الآن

قلت

أريد أن أرى المختار أولاً

بسبست لها المرأة الأخرى في أذنها وحزرت ماذا بسبست حتى قبل أن تقول لي الفرعاء :

عندنا الآن مختار جديد أستاذ شاكر

ونطقت بالالف بكل فمها المفتوح ولكنها لم تنصحني بالذهاب إليه لأنه شاب ولا يعرف شيئاً عن محلتنا فكيف عن المحلة القديمة ومع ذلك ذهبت ولم أجد منه ما ينفعني

عبرت الشارع إلى الجانب الآخر الذي يشدني أكثر فقد كان أقرب إلى بيتي ولكنه بلا حياة الدكاكين المغلقة والمهدمة وعابرو السبيل لا يوقفهم شيء وفي الفسحة المجاورة لمقهى عموري رأيت عربات يدوية مستهلكة ومهملة ، وكومة كبيرة من القاذورات ومررت ثانية بد كان مجيد كان صاحبه الجديد يسجل شيئاً في دفتر طويل سألته عن المختار فقال

– أي مختار ؟ مختار الصدرية لو المربعة لوحاج فتحي كلهم هناك

وأشار بذراعه اليسرى ، وعاد منكباً على دفتره إن الكلام مع هذا الرجل يحرجني إنه خشن وبلا ذاكرة وكأنه تعود أن يتعامل مع البضائع فقط تركته بتعرجات الطريق غير المبلط وعادت إليّ روائح الماضي مثل جلود حيوانات محنطة مثل بقايا مواد متفسخة في قوارير قديمة وقلت لنفسي لعل أهلي هنا ؟ لعل الثورة لم تلحق أن تقذف بهم إلى شارع أنظف فانحشروا في خُن من هذه الأخنان وأبطأت خطوى وسرت في أزقة كثيرة قبل أن أطلع إلى سيد سلطان علي

– ٢ –

وبالرغم من شكي الهائل فقد ذهبت إلى البياع في محاولة للتشبث بأي شيء ولقضاء الوقت ولأنني بلا عمل

كانت رحلتي إلى البياع طويلة أشبه بالرحلة إلى سلمان باك . سار الباص

فالوهج الأحمر عبر الجادة العالية مدة طويلة . ورأيت آثار المعركة على قصر الرحاب . كان شاحب اللون مثلوم الثنايا . زرياً وبلا ذوق . وتجاورنا جسر الحر . وخيل إليّ أنني مسافر إلى مدينة أخرى . وفي نهاية الخط كان البياع شوارع مترية متشابهة ، وبيوت متباعدة مبنية بالآجر . وعلى نسق واحد وكأنها مدينة عسكرية . سرت في الشوارع على غير هدى . لم ألتق إلاّ ببضع أفراد كانت مشيتهم العجلى ، وعيونهم المنطوية على نفسها . وسحناتهم الداكنة المشربة بالحمرة . وحتى روائح أجسادهم التي شممتها حين مروا بي وكلماتهم القليلة القصيرة النبرة لا تمت إلى أزقة بغداد بصلة . كانت الشمس تملأ الشوارع ولا تترك إلاّ شريطاً ضيقاً قرب الجدران . شاحب السواد مثل قماش مستهلك كان أسود فيما مضى . وفي هذا الشريط رأيت جماعة من الأطفال تلعب في التراب . أصغيت إليهم . كانوا يمطون « لا » النافية . وهي علامة على أنهم نسوا أزقتهم البغدادية . أو أنهم لا يعرفونها البتة . وبعد جولان حائر نفرت من بحثي الضائع . وأحسست بغربة زادت وطأتها حين تذكرت . الحنوّ في وجهي المرأتين اليوم ، وقربي من كل شيء واستجارتي . بالظلال . أما هنا . فلا شيء وهل سيحفل الناس . لو سألتهم عن عائلة بهذا الاسم ؟ ومع ذلك فقد تورطت ونطقت . ورأيت الرؤوس تهتز . وكلمات النفي تتوالى . وتتفحصني الأعين خلسة . يلتفت المرء نصف التفاتة . ويصعد بي بصره الخاطف من قدمي حتى رأسي . وزهدت من الأمر . رأيت الباص واقفاً في المحطة فهرعت إليه .

عدت إلى الفندق بعد أن تناولت غداء دسماً في مطعم العاصمة عند رأس الجسر ، وشربت خمسة أقداح من الماء المثلج . كانت غرفتي في الفندق مغمورة بالشمس . جدرانها وأرضها وأثاثها . وأشد حراً من الشارع . وعرفت من الخادم غير اللبق أن الشمس لا تبارحها حتى تحجبها البناية المقابلة في العصر . هبطت الدرج الضيق ثانية . وجلست في البرازيلية .

٣

وضجرت بعد نصف ساعة من جلوسي في المقهى ضجري القديم حين يفرغ فكري من كل مشروع من كل رغبة من كل أمل وكأن هذه الكراسي التي تحملت ثقل الجالسين عليها ساعات طوال تعدي بالضجر الذي كانوا مصابين به إصابة لا شفاء منها تململت على الكرسي وقلت لنفسي أنني أمام أزمة ضمير لست ضجراً بل أنا معذب. أشعلت سيكارة أخرى ودخلت في نفس الدوامة التي أدخل فيها حين أخلو إلى نفسي نفس الحلقة المحكمة التي تدور فيها كيف مضجرة معذبة مثل كرة من الزئبق محصورة فيها أشعرني دخان السيكارة والتفكير بالاختناق والرغبة في السعال تركت السيكارة والتفكير جانباً وأخذت أتلهى بمراقبة المارة على الرصيف سلوة الذين لا عمل لهم الضائعين المعلقين أملهم على المصادفة مثلما أعلق أملي في إيجاد أهلي كانت المصادفة تدفع إلي من الجانب غير المرئي أناساً لا أعرفهم أشكالاً وألواناً أغلبهم من الرجال وعندما كانت تمر فتاة كان مرآها يزرع في قلبي الحنان والحرارة وكأنني اقتربت من تحقيق الأمل خطوه واحدة كأن شيئاً مريحاً عذباً سيحدث لي كنت أستقبل الفتاة بنظرة طويلة فأشعر وكأنني على ناصية استعراض مثلما كنت هناك في البداية تبدأ الأسلحة الخفيفة ثم الثقيلة والأثقل حتى تتصاعد حرارة الفرحة في الجسد وتتعاظم الغبطة أكثر فأكثر ويتجدد الدم عبر القلب النشيط ستأتي الآن فتاة حلوة غير هذه الفتاة القبيحة التي مرت قبل لحظات ثم فتاة جميلة ثم أجمل وأجمل حتى تأتي فتاة هي أقرب فتيات الأرض إلى القلب وأمرحهن بالروح والجسد وأعطرهن بالشذى الذي خصت به وحدها دون الأخريات ها هي ستأتي من الجزء الذي لا أراه من المجهول وجعلني هذا الوهم أتصور أنني أنتظر فتاة بعينها . . . فتاة أعرفها فتأتي مثلاً . تصورت أنها ستظهر من

الجانب الآخر وتلتف خوي وتراني فألوح لها اعي كما كنت أفعل سابقاً وأنهض لاستقبالها وأجلسها إلى جانبي في المقهى العتيق

هل شبعت من أهلك لتجلس في مقهى في مثل هذه الظهيرة

– أنت دائماً تعاتبينني على الجلوس في المقاهي ولكن لو قلت لك لما صدقت ؟

ماذا منذ يومين لم تجلس في مقهى ؟ أو قل لم أحتس خمرة ؟

لا يا فتاتي لا تسخري أنا لم أرَ أهلي

كيف لم ترهم ؟ في بغداد ولا تراهم

هجروا بيتنا ولا أعرف أين ذهبوا لطيف منك أنك جئت تبديداً الوحشتي

كنت على موعد معك ألا تذكر ؟

أوه نسيت أنا معذب يا صغيرتي

أترك العذاب جانباً الآن

وغرقت في الذكرى تركت الوطن وتغربت واستجبت لها ثانية تذكرت لمرأة التي جلست معي في مقهى أو في مطعم أو في منتزه كانت وفية في مواعيدها وإن كانت تتأخر دلالاً ولكنني كنت واثقاً من أنها ستأتي أكثر من وثوق الزوج بعودة زوجته نادراً ما أخلفت فتاتي موعداً

تذكرت كيف جازفت للقائها مرة عدت إلى العاصمة من رحلة الجنوب وحيداً وكان طريق العودة مملاً كما قالت والعربة الفاخرة كئيبة وكأنها حجرة عرس هربت منها العروسة وبدت المدن غريبة معادية واستطال الزمن والتف حول روحي كالأفعوان عدت وحيداً . . . لا . لم أكن

وحيداً كان معي طيفها ووعودها في اللقاء كانت على كتفي لمسات بجسدها وعلى وجهي أنفاسها وفي يدي دفء كفها الرخصة وذلك هو الذي جعلني أبحث عنها بجنون حالما أنقضى الأسبوع الذي بقيت فيه في الجنوب تطفلت على بيوت وسألت أسئلة لا محل لها وأثرت حولي غبار الريبة الخانق وانتظرت بحمق أن تدخل علي في مكتبي وذات مرة دخل عليّ سليمان الحكيم ، وهو الاسم الذي أطلقته على رجل كان يحمل أثقل اسم على اللسان دخل غاضباً وألقى رسالة على المقال الذي كنت أترجمه وقال

أنت زعلان نحن منك

لم أفهم لغته المهشمة ولكن قلت

– ولماذا يا سليمان

بدلاً من عظيمة يكتب عقيمة

– آسف ، يا سليمان للمرة العاشرة قلت لك أنه سهو قلم

– قلم برجوازي

– سأكسره وأشتري قلماً من صنع محلي

وفتحت الرسالة كانت بالإنجليزية ومرسلة منها

– عاش سليمان الحكيم

رفعت بصري ورأيت سليمان ما يزال ينظر إليّ غير متصالح

– أعذرني يا سليمان أرجوك سامحني لقد أخطأت ألم تخطىء أنت فأرسلت إلى مصر رسالة مثلجة بدلاً من مسجلة

ضحك سليمان ربما تذكرّ يوم التوى عليه لسانه ردد بضمة ممالة إلى الواو : صعب ، صعب . . . صعوب

قلبي كفجرية

- من ؟ أنا صعب يا سليمان

- لا اللوغة العربية

حددت موعداً اليوم في الساعة الخامسة ووثبت من الكرسي
وهممت بأن أقبل سليمان ولكن خفت سوء التأويل

- هل تحب الجمال يا سليمان ؟

- نعم نعم أركبه في الصحراء

وضحك قلت شيئاً وفهم سليمان شيئاً آخر

الفصل الثالث

١

مضى أسبوع على عودتي إلى الوطن في مثل هذا اليوم من الأسبوع الماضي دخلت بغداد من مطار لم يستقبلني فيه أحد تماماً مثل المطارات والموانىء الأخرى التي كنت أنزل فيها وحيداً في سنوات التشرد وأتلهى بمراقبة المستقبلين الآخرين وأرى باقات الزهور تُنقل من يد إلى أخرى والقبل تتبادل طويلة حارة والمستقبلين يحدقون بالعائد المرتبك انفعالاً وسروراً والسيارات في الانتظار وذات مرة رأيت فرقة موسيقية كاملة في ميناء برنديزي وقدمت أقداح النبيذ الكبيرة للنازلين الإيطاليين من الباخرة وقدمت لي كأس نبيذ إيطالي قلوى الطعم باعتباري المسافر المجهول مثلما تُقدم باقة زهور إلى ضريح « جندي مجهول

لم أجد شيئاً مهماً خلال هذا الأسبوع جولات واستفسارات خائبة في المنطقة المجاورة لمحلتي ورؤية بعض معارفي القدامى كنت لا أود أن ألتقي بهم في الغالب وقد لقيت استقبالات مختلفة بعضهم رحب بي وبعضهم قال « لو بقيت هناك أحسن وعاداني آخرون لسبب لا أعرفه قائلين لي « كنت عند الرفاق . . . . .

وأشعرني ذلك بالغربة أكثر مما أشعرتني الغربة نفسها فكنت أنزوي في مقهى أو أتمشى عبر دروب جديدة مسترجعاً حياتي في الوطن وفي الغربة إن الناس كبروا والزمن شاخ أكثر من ستة أعوام والحياة بدت لي عجلى ضوضائية تعيش يومها فقط ولا تعرف ماذا يضمر لها المستقبل وأخذت أنا أيضاً أترقب مثلهم إن الإحساس الذي منّيت نفسي به في الماضي الإحساس بالاستقرار والطمأنينة ونسيان ما حدث لي في غير وطني هذا الإحساس قد أفلت مني مثلما يفلت زورق من يد إنسان رخوة وهو على الشاطىء ورحت أترقب وأغرق في بحيرة الماضي كثيراً وأعيش على توقع شيء سيحدث لي فيغير حالتي النفسية وينقلني من الفندق الثقيل الذي أعيش فيه ويجعل لي منهاج حياة ويضعني في موضعي المفقود من مجتمعي كنت أتعجب كيف تستطيع ستة أعوام من الغربة أن تقطع هذا القدر من الوشائج التي تشدني إلى الأرض التي ولدت فيها ورأيت أوائل الأشياء وتعلمت أوائل الكلمات واستنشقت روائحها وتلوثت بطينها وعرقت وشقيت وتخاصمت وأحببت وبنيت قصور المستقبل

ثم أخذت أقوم بلعبة عابثة ، وكأنني أعرض نفسي للناس علهم يتذكروني

في كل يوم كنت أقوم بجولة تائهة في حي من أحياء بغداد القديمة وقد فضلتها على الجديدة لأنني أيقنت بعد كثير من التفكير والتمحيص واستشارة الذكريات بأن أهلي يعيشون فيها ما من ثورة قادرة على أن تقنع أمي بالسكن في أطراف بغداد وقد ولدت وتربت في القلب منها وتريد أن تموت فيها كما قالت لي ذات مرة حتى إذا ارتفع صوات النساء عليها سمعه أهل الحي كله وجاءوا يتراكضون ثم أنني في بادىء الأمر جربت الجولان في أحياء جديدة فكنت كالتائه مثل فأر أو حتى نملة لا تلفت نظراً ولا تثير انتباهاً أما هنا في هذه الأزقة الضيقة الملتوية الملمومة على نفسها مثل « جراوية بغدادي أصيل . فكنت أستوعب الزقاق كله بنظري إنْ لم

أتجمع بين جداريه بأطراف أصابعي وأقطع على القادم دربه كنت أشمل كل شيء ببصري وكانت أذني تلتقط بعض ما يجري وراء البيوت سعالاً وصراخاً وسباباً ومناكفة. وتمتمة اطفال يتعلمون النطق. وأميز الأصوات بنبراتها، ومقدار تلفها وأتخيل أصحابها أو صاحباتها ثم أن بعض الأبواب كانت مفتوحة بستارة أو بغير ستارة فكنت أمد بصري خطفاً كقطة متشردة تبحث عن مأوى مأمون وكم رأيت من نساء شبيهات بأمي يجلسن على الأرض أو يعالجن موقداً أو يملأن قدراً من حنفية أو يكنسن الأرض دابات عليها أو يترفصن وراء طشت أو يخرجن الخضراوات من سلة خوص أو يشمرن أيديهن مشتبكات بحديث شجي وأحياناً كنت أمر بالباب إذا خدعني بصري وخيل إلي أن المرأة التي رأيتها قبل لحظة هي أمي وأحياناً يبلغ بي الوهم حد الاقتراب من البيت حتى ترفع المرأة إلي وجهها المستوحش فأعود خائباً ومع ذلك فقد كانت مثل هذه التجربة الخائبة تملأني ثقة بأنها ستنجح ذات مرة فأتابع جولتي بلهفة أشد وشوق أقوى

٢

تجولت اليوم في الحي الذي كان يسمى في الماضي بالفناهرة دخلت إليه من شارع الكفاح مخلفاً الكيلاني ورائي أزقة فيها بعض الرحابة، مشمسة جافة. ومتربة والبيوت، في الأغلب، مبنية بالآجر الكالح ومطلية بجص يشبه التراب، أو تراب يشبه الجص والأبواب مفتوحة في معظمها تكشف عن أقنية ومجازات مبلطة بالآجر المربع سرت متأنياً خالي الرأس من كل فكرة تجربة آلية تقريباً وأحسست بالعطش بعد نصف ساعة من التجوال فشربت زجاجة ليمونات من دكان بائع أغراني بها الثلج البارز من صندوقه الأحمر ولكن الليمونات نفسها كانت دافئة وكأن الثلج قد وضع قبل دقيقة عرض علي البائع قطعة ثلج فرفضت وراقبت نسوة يتجادلوا على قطعة قماش ملونة لا بد أن إحداهن اشترتها من توها سمعت امرأة تقول :

« أنت اشتريت شروة بيها خير لا والله » وظننت أنهن سيتعاركن حين يصلن إلي ولكنهن مررن بي على صياحهن وضعت الزجاجة الفارغة قرب الصندوق وواصلت مسيرتي مسربلاً بالعرق لم أجد في الأزقة غير الأطفال والقطط وفي زقاق زحمتني عربة زبالة شممت منها قشور البطيخ والخيار تحولت إلى زقاق آخر وإذا أنا أمام صف من الدكاكين تتصل بشارع مبلط وانتهت جولتي بسرعة لم أتوقعها ألفيت نفسي بالقرب من فسقية خضراء تبدو بائسة ذليلة وهي في محيط مترب خرب فكأنها أثر قديم وعرفت أنني عدت إلى شارع الكفاح ثانية

عبرت الشارع لأستظل بعمارة من ثلاثة طوابق قائمة على أعمدة جديدة ظللها طري بارد مخلوط برائحة أصباغ وجص حديث أبصرت باب العمارة الأنيقة محاطاً بلافتات كثيرة ووقع بصري على لافتة بنية من الخشب الفاخر كتب عليها « محسن إبراهيم — مهندس مدني تطلعت إلى اللافتة وكأني أتطلع إلى وجه أعرفه

أهذا محسن بركات هل من المعقول ؟ صديقي القديم الطالب المزمن تخرج أخيراً وأصبح مهندساً لقيته قبل أن أبدأ بالبحث عنه صعدت الدرج متأنياً حتى لا أتعب وتنقطع أنفاسي واضطرب وقفت الباب الأنيق المصبوغ بلون خشب البلوط وانتظرت انتظام دقات قلبي حين ألج تلك الشقة الأنيقة الصامتة صمت منتصف الليل في بيت دخلت محاولاً أن أخفف وقع كعبي الحديدي على « الكاشي المصقول أبصرت فتاة تجلس وراء مكتب في إحدى الغرف أمامي فجأة نظرت إلي بعينين واسعتين شبه مستديرتين فسألتها عن المهندس محسن فقالت بصوت مطمئن مضاف

وعد بأن يأتي في الساعة الثانية عشرة

ودعتني إلى الانتظار عرضت علي أن أجلس في غرفتها محلها .

ووقفت متنحية عن المكتب قليلاً مشيرة إلى كرسي بجانب المكتب معيدة « تفضل » عدة مرات وقالت أن الأستاذ دقيق في مواعيده وإذا أراد أن يتأخر يتلفن لم أتذكر أن محسن القديم كان كذلك لعلي أخطأت وجأت إلى رجل غريب يحمل اسماً مشابهاً لاسم صاحبي القديم ولكن لا بأس

هل عندك شغل معه

لا لست مقاولاً

وبسطت لها ذراعي ورأيتها تبتسم بلطف خجلت منه فنكست رأسي ورأيت حذائي المترب يلوح على الأرض النظيفة اللامعة مثل حجر مجلوب من الشارع فطويت رجلي تحت الكرسي وقلت لها وكأنني أدافع عن وجودي

محسن صديق قديم لي منذ أيام الدراسة قضينا أياماً حلوة في القاهرة

— حضرتك مهندس أيضاً ؟

سألت فنفيت وقلت بصراحة

ليس

ثم ذكرتُ لها أننا قضينا مدة طويلة نسكن في شقة واحدة في الدقي فهزت رأسها ودعتني إلى تناول زجاجة مرطبات وعندما خرجت لتجلب الزجاجة تذكرت كيف كنا نعيش في القاهرة على الفول والطعمية وفي كل أسبوع أسبوعين نتغدى بنصف رطل كباب في ميدان الأزهار إذا أسعدني الحظ فنشرت شيئاً في الصحف أو أسعد الحظ محسناً فجاءته نقود من العراق وحين قدمت لي الفتاة الزجاجة وسرت برودتها اللطيفة في كفي راودتني فكرة أن أحكي لها قصة العم شحاتة الساعاتي الذي كنا نرهن ساعة محسن عنده وقت الضيق أو إذا استبد بنا قرم اللحم أو ما يشبهه في اللذة .

كانت «الكوكاكولا» باردة والفتاة تنظر إلي بحنان سابغ وكأنني حكيت لها هذه القصة وأنا أسترجعها في سري أو ربما لأنني شربت الزجاجة بسرعة أو لأن حذائي المترب خرج من تحت الكرسي ولكنها صرفت بصرها عني حين تنبهت إلى حركة في المجاز وبعد ثوان رأيت صديقي محسناً أمامي عرفني من النظرة الأولى وهتف

أوه كريم أنت هنا

شممت رائحة كولونيا منعشة وأنا أعانقه محسن ؟ أهذا أنت ؟ بهذه الروعة ؟ أصبح رجلاً ذا شارب أسود سميك كث مثل شعر رأسه وعيناه اللتان اكسبتاه رجولة ما تزالان على سعتهما وشفته السفلى متدلية،كما في الماضي ، وكأنما تتهيأ للابتسامة وسمعت ضحكته الصداحة الهادرة وهو يدخلني إلى غرفة مكتبه رأيت المكتب المعدني الرمادي الصقيل الذي كنت أراه في بعض صحف القاهرة وأحلم به وجلس معي على أريكة وثيرة وهو ما يزال يضحك

— ما الذي جاء بك ؟

جئت يا غريب أذكر أهلك

كنت أتصور أن المقام قد طاب لك

كل أرض ما عدا ارض وطني ذكرى عابرة

— الغربة صعبة

موت على قارعة الطريق كيف حالك يا محسن ؟

كما تراني

تنجب أخيراً وانتصر البركال

قل وانكسر البركال

أهنئك من صميم قلبي وليسقط شحاته الساعاتي

أما تزال تذكره ؟ في المرة الأخيرة رهنت الساعة عنده ولم استرجعها

شاخت

– لطف منه أنه استمر في رهنها بعد تلك المقاطعة المشؤومة

الغلطة غلطتك

– أنا ؟

نعم أنت الذي قلت له نرهنها بجنيه ونستردها بجنيه وخمسة وعشرين قرشاً بعد عشرة أيام

– لم أجد في عبارتي إساءة له

أعتبرها معصية هناك فرق بين أن تقول نبيعها بكذا ونشتريها بكذا بعد عشرة أيام وبين أن نقول نرهنها فقد اعتبر ذلك ربا وهو الصائم المؤدي الصلوات في أوقاتها

– أليس في الحالتين ربا

وضحكنا وتطارحنا ذكريات الماضي وكنت أريد أن يبدأ الحديث عن الرسائل التي كان ينقلها إلى أهلي ولكنه دخل في موضوع آخر

– ماذا تريد أكثر من ذلك ؟ في غيابك حدثت ثورة ونظفت لك ما كنت تشكو منه هل كنت تتصور وأنت في القاهرة تكتب عن نوري السعيد أن النظام الملكي سينهار بهذه السرعة ؟ وتكون لك جمهورية ؟

– لا أدري

– لا ، قل بصراحة : هل كنت تحلم بذلك ؟

إذا كانت مسألة حلم فقد كنت أحلم بأشياء كثيرة جميلة وخارقة إلا أن ما حدث كان مفاجأة لي

هذه ضربة أستاذ

قال محسن ومس شاربه هززت رأسي موافقاً وحدقت به كنت مشبعاً بالترقب إلى حد التخمة

ألم يخبروك بتغيير العنوان

لا لم أستلم شيئاً من ذلك

ماذا كانوا يكتبون لك إذن

إلا أن محسناً خرج وعاد بزجاجتين من الكوكاكولا ومرة أخرى انتظرت أن يفتح الموضوع بنفسه هل نسي تماماً ؟ خشيت أن يطرق موضوعاً آخر فقلت بصوت غير صاف وكأنني أخاف أن يجيب بما لا أتوقعه

– اسمع يا محسن ألم يخطر ببالك أن تمر على أهلي

قال دون أن يفاجأ

أهلك ! لا مع الأسف فقد عدت إلى بغداد والوضع مضطرب فسافرت إلى الحلة رأساً ماذا حصل لأهلك ؟

– جئت ولم أرهم لم أر المحلة كلها

ضحك محسن ضحكة فطرية بيضاء

انتقلت

– هدمت من الجنور ونشأ عليها شارع الجمهورية

أها ! ولأول مرة دبت الحرارة في كلامه نعم، التهديم الذي بدأ أيام نوري السعيد .

يبدو ذلك ولكن كيف كنت .ل. مسائلي إذا كان التهاديم قد بدأ أيام نوري السعيد

دعني أتذكر -ووضع سبابته على صدغه واستند إلى ظهر الأريكة — عندما سافرت كنت أرسلها إلى العنوان الذي أعطيته لي أنت تذكر الظروف التي كتبتها بخط يدك وتركتها لي واصلت إرسال رسائلك بالظروف المخطوطة بقلمك هذا كل ما في الأمر كنت أنقل الرسالة من ظرف إلى ظرف ثم أتذكر أنهم كتبوا لي عنواناً جديداً على الظرف الخارجي نعم أتذكر ألم يخبروك بتغيير العنوان ؟

— لا لم أستلم شيئاً من ذلك

ماذا كانوا يكتبون لك إذن ؟

وعاد إلى ذهني السؤال القديم الذي كان يطل أمامي كلسان الأفعى هل كان محسن يقرأ رسائل أهلي حين يفتحها ؟ ولكن ماذا كان يمكن أن يقرأ

لم يكتبوا إلاّ تكفل بنفسك والله معنا

هذا فقط

ونظرت في عينيه وكأنني أقرأ ما وراء هذا السؤال

ولم ترق له نظرتي قال مستعجلاً

— أنا متأكد أنهم غيروا عنوانهم لأنني لم أعد أستعمل مظاريفك

قلت بلهفة

— تذكر يا محسن إنه البيت الذي انتقلوا إليه .

صمت محسن ورأيت شاربه يستقيم ويستقر ثقيلاً أسود على شفتيه وتتقلص عيناه

لا أظن أنهم أعطوني عنوان بيت يبدو لي عن طريق شخص آخر صاحب دكان على ما أظن

دكان ؟ أي دكان

دكان أو مقهى لا أعرف بالضبط يبدو لي أنه دكان صباغ قندرجي

ربما قندرجي هل اسمه رجب ؟

ربما رجب نعم نعم ربما رجب القندرجي

في أية سنة هذه ؟

دعني أتذكر كان ذلك عندما انتقلت إلى العجوزة وقد أبقيت عنواني السابق في الدقي كنت آخذ الرسائل من هناك يعني كان ذلك في حوالي ١٩٥٦

بعد ذهابي بستة أشهر

ربما هذا ما أتذكره لم تنفع مظاريفك المكتوبة بخط يدك فمزقتها أترى أية ذاكرة لي

وضحك ضحكة خفيفة قلت

ذاكرتك هذه لا تقدم ولا تؤخر في المسألة

ولماذا إذهب إلى القندرجي

هو الآخر قد هجر دكانه وقد رأيته خاوياً خرباً شيء واحد استفدته من معلوماتك وهو أن أهلي تركوا بيتهم في وقت مبكر حتى قبل أن يبدأ التهديم

لا التهديم بدأ في عام ١٩٥٥

أو مع الوجبة الأولى يعني إلى هذا الحد كانوا زاهدين في البيت يريدون التخلص منه

وغرق كلانا في صمت حائر ثم رن تلفون في الغرفة المجاورة ومع رنينه قال محسن

– اسمع ليس صعباً أن نعثر على صاحبك القندرجي

ازّ تلفون على مكتب محسن فنهض. وجلس على كرسيه ، ورفع السماعة ، وارتخى يتحدث وقد تبدلت سحنته تماماً وضحك عدة مرات وتدلت شفته السفلى كثيراً. حتّى قلت لنفسي أنه ما يزال محسناً القديم الذي ييسر لك كل شيء في العالم حتّى الرسوب سنتين متتاليتين حتّى إيجاد ما لا يوجد ولما وضع السماعة تريث ليتحول من مكانه في ثقة

– اسمع ! ستجد القندرجي

كيف

– عن طريق النقابات وربما أباك أيضاً ماذا يعمل والدك ؟

ذكرت له آخر مهنة اشتغل بها أبي فلم يعرف حتّى معناها قلت له

– أغلب الظن أنها انقرضت . في عام ١٩٥٠ كانت تحتضر وكان أبي

يذهب إلى السوق فلا يأتي إلاّ بالقليل من لفات الغزل ليصنعها « سادى للحياكين

إذن فلنعد إلى القنادرجي هل هو صاحب د كان كبير أقصد يشغل عمالاً كثيرين

لا أتذكر ربما اثنين أو ثلاثة

قد يكون صاحبك قد ارتقى واستخدم أكثر من هذا العدد أرباب العمل ينعشون الآن زمن الصناعة الوطنية واسمه الآن مسجل في النقابة

قلت كل شيء جائز

إذن أترك الأمر لي

وعادت إلفتنا القديمة شيئاً فشيئاً

٣

في الفندق والغرفة حارة وكأنها تجاور حماماً أو فرناً قبل لحظات صعدت الشمس إلى الأعلى وتركت رفاتها في غرفتي انشغلت طويلاً بذبابة حمقاء لحت بلحاً وكأنني مبرقع بدبس راحت تحط علي في المواضع التي تلتقي فيها الدغدغة والحكة ، وتقطع عليّ أفكاري بللت الفوطة بالماء وأسبلتها على وجهي وأخفيت يدي في جيبي بنطلوني . وأختفيت عن الذبابة كالنعامة لم أعد أسمع طنينها غابت عني ربما يئست مني وغادرت الغرفة أو لعلها ما تزال تحلق على مقربة ولا يهمني أمرها وتذكرت قول محسن هل يهمك أمرها ؟ هل تريد أن تراها ؟ لا أريد أن أراها لا تستطيع أن تفعل ذلك بسهولة لا أريد . هل أنت مستعد لأن تخسر درهماً ؟ تريدني أن أذهب

إلى السينما ؟ خطيبتك نجمة سينمائية يا محسن وأنا لا أدري ؟ لا أبداً لا يسرف بك الخيال سترى بنفسك وتحكم بذوقك اذهب إلى صيدلية الشباب في عنق شارع المستنصر واشترِ منها أسبرين بدرهم وستراها أنها صاحبة صيدلية عبث البيرة وسكت عاد يقول أم لعلك لا تريد أن تخسر درهماً ؟ سأعطيك الدرهم أريد أن أعرف رأيك

أجبته بصراحة

– المهم أن تكون سعيداً يا محسن هل أنت سعيد ؟

– لا أستطيع أن أقول لك لا أعرف بالضبط

– هذا صحيح لأن السعادة منطقة غير منظورة قد يدخل إليها المرء دون أن يدري ولهذا السبب تكون الذكريات جميلة ، في الغالب لأننا نكون قد مررنا بمنطقة السعادة دون أن ندري وحين نعيد ذكرياتنا نجد فيها قدراً من الحلاوة لا يصدق

– تقصد ذكرياتنا في مصر ؟ نعم ، حتى العم شحاته يبدو الآن جذاباً وكأنه شخصية روائية

تكلم الملعون كلمات طيبة ربما لأنني وخزت ذكرياته والذكريات إذا فاضت لا ترحم تملأ جوانحنا بحنين مخبول وتجعل الماضي يسير في شوارع الحاضر كمواكب الحلم فجأة تحس بأن عالماً كاملاً حسبته قد انقبر ينهض أمامك قوي الأسر يفعمك باللذة والألم بالفرحة والحسرة عرفت هذه الوخزة حين دخلت مكتبك اليوم ورأيت الفتاة كان فيها شبه لا يحدد بفتاتي الصغيرة هناك ما هو ؟ أنفها الصغير ؟ وجهها المدور ؟ قصر قامتها حين نهضت ؟ ربما ! كنت ألمح هذه القامة . وهي تقبل علي من بعيد حتى لأعجب

كيف ألتقطها بصري من بين جميع الخلق مهما لبست مما لم أره من ثياب كأنني كنت أشم عبق جسدها على بعد كأن أذني تلتقط وقع خطاها عبر موصَل غير مرئي

أقبلت علي بتنورة عريضة موردة وبلوزة صفراء فاتحة مثل فراشة من فراشات الحدائق لمحتها من بعيد ورفعت لها ذراعي ملوحاً كانت تبدو صغيرة بيضاء في شمس الأصيل الفاترة تدور أذيال تنورتها حولها مثل جراء تطلب حناناً . سلمت بوقار لايناسبها وجلست قبالتّي على المائدة المصنوعة من أعواد الخيزران وهمست

– لماذا أنت جالس هنا ؟

– ولم لا ؟ أنه موقع ممتاز

تأوهت وابتسمت تباعاً البسمة رائعة ولكن لم هذا التأوه لم تعرف أنني أريد أن أجلس معها أمام الناس أولئك الذين كانوا يرونني وحيداً طوال عامين معتكفاً على قدح بيرة وكتاب وحين أرفع بصري كنت أراهم يحتسون الشاي ويتحدثون فرحين هادئين قانعين بما في اليد وكنت أريد أن أكون مثلهم أشرب الشاي معها . وأرد بسمتها ببسمة وأهمس لها واجعل الأمر يبدو اعتيادياً اعتيادي جداً أن تكون لكل رجل امرأة وأن يقضيا ساعة هانئة في مشرب للشاي أو البيرة ويتهامسا ويتلامس كتفاهما وتداعب جنبه خصلة من شعرها و و لكنها كانت جالسة وكأنها على مسامير صامتة قلقة متعذبة وأخيراً هبت وقالت

– لنخرج من هنا

ودخلنا المتنزه وكشرت في وجهنا التنانين على سوره الداخلي وابتسمت

البركة ابتسامة فضية والتففنا حول دغل البامبو الذي بدا وكأنه وجد خصيصاً للعشاق ، وعبرنا قنطرة محدودبة لا ضير في الاستلقاء عليها وخلّفنا البحيرة وراءنا وفجأة لمحت مقهى صغيراً منزوياً وراء الشجيرات ناداني مثلما ينادي ضوء أحمر فاجراً تتلظى الشهوة في أحشائه . وكنت قد تحملت من الصغيرة قدراً كبيراً من المساءة الصامتة لأنها خجلت أو خافت أن تجلس معي في مقهى مكشوف ، في أول يوم للقاء وهذا مقهى منعزل مخفي عن العيون فتفضلي

أنت تحب الجلوس في المقاهي

قالتها وكأنها تقول أنت تحب أكل لحوم البشر فغضبت وقلت

– جداً ، جداً نثرت حياتي كسراً صغيرة على موائدها القذرة كما هي عادتنا في الشرق

– وهل حياتك بهذا الرخص ؟

وكززت على أسناني وتحولت من الشاي الأخضر إلى البيرة انتقاماً وطلبت هي شاياً أخضر برودأ وساد صمت منحوس

وقلت لنفسي انها بداية غير موفقة اولا انها تخاف الجلوس معي في المقاهي ثانيا أنها تستعير رزانة النساء الراشدات وتبدأ بالمناكفة

واحتسيت القدح كله مرة واحدة ، وتعدل مزاجي فقلت لها وكأنني أرتقي منبراً مريحاً

– يا آنسي الصغيرة ، ليست المقاهي دائماً مضيعة للوقت ، بل هي محطات للراحة وتماسك الأعصاب

– والشرب ؟

الشرب كالزيت يخفف من الاحتكاك وتلف الحواس لأن الله كما قرأت في كتاب طريف خلق الإنسان ولكن نسي أن يخلق له قطع . غيار لأعضائه التالفة والحسرة كما أرى خير طريقة لتخفيف الاحتكاك والتلف إنها الزيت لتشحيم الإنسان

ولكن الذي يحدث أن الذين يستعملون الزيت للتشحيم يفقدون أعضاءهم قبل غيرهم

مجرد سوء استعمال

وهل أنت واثق من أنك لا تسيء الاستعمال

اسمعي هل تنوين أن تفسدي أول لقاء حقيقي لنا

لم تنو ذلك وجلسنا صامتين وفي قرارة نفسي كنت نشوان يعني مهتمة بي يعني أن لي فيها شيئاً ، إصبعاً خصلة شعر جانباً من شفه وهو الذي شجعني على أن أسألها

من أين تعرفين ذلك عني ؟

ألا يكفي أسبوعان في صحبة طريق لمعرفة شيء عن إنسان

لا لا بد أنك سمعت الناس يتحدثون عني

ربما

ألم يقولوا لك أنني أقفز مثلهم على طول الخط العام وقد حاربت العصافير ووقفت أمام التنور ؟

در ذلك منها ضحكة . فقالت متنازلة

وهل يهمك أن تعرف رأي الناس فيك

منذ الآن بدأت أهتم

ـ ولماذا ؟

لأنني تعرفت عليك أريد أن أقضي معك بقية عمري مرتاحاً

لم تكتف بالصمت فقط بل أشاحت وجهها عني وعلا سحنتها تعبير مؤلم كخيبة الألم قلت لنفسي ما هكذا تعلن العواطف يا رجل جعلني ذلك يائساً وحزيناً وغاضباً على نفسي فطلبت قدح بيرة كبيراً فقالت الطفلة مبتسمة ابتسامة مواسية

حاول أن لا تسيء استخدام زيت التشحيم معي على الأقل

ليست البيرة زيتاً بل ماء لتبريد الماكنة

ماكينتك كثيرة التكاليف

لأنني أكثر بها الضرب في دروب الحياة

وضعت حنكها على راحة يدها وعاد الصفاء إلى وجهها كانت عيناها مفتوحتين متحررتين من كل ظل لخجل أو تكدر

حدثني من فضلك ماذا أنت في وطنك مناضل أم شقي

مناضل ؟ هذه الكلمة في وطني تستحق قص الرقبة كنت متذمراً فقط. وقد أضربت مع الطلاب على قضية اعتبرتها عادلة فطردت من كليتي

ـ وبعد ذلك تركت وطنك ؟

لم أتركه أنا   بل هو الذي تركني

ولماذا اخترت هذا البلد

لم أختره   ولكن ألقتني به عصا الترحال كما تقول العرب

وأين كنت قبل ذلك ؟

أتسكع على أبواب العمل في لبنان ومصر

وعادت طفلة بقدر عمرها تماماً   نزعت عنها الأثواب التي ترتديها نساء المرحلة الثالثة. ورأيت على شفتيها بسمة طفلة حنون تقمص أبوها أمامها شخصية روائية   وأدى دوره بإتقان   وسمعتها تقول

مسكين

وتأذيت

اسمعي   لا تسرفي في استجوابي   حدثيني عن نفسك

— لنخرج من هنا

وجرعت بقية البيرة واقفاً   وغادرنا المقهى   وصعدنا تليلة مشجرة لاح قرص الشمس وراءها مثل كرة حديد حامية خارجة من كور حداد   وقد تناثر الحديد المذاب على الجانب الآخر من البحيرة   وكنت قد أعطيت للصغيرة يدي لأعينها على الصعود   وحين صعدنا طمعت بمزيد من الدفء فلم أطلقها   أحكمت تشابك الأصابع   وسحبتها نحوي بتؤدة حتى أحسست بجسمها يلثم جنبي   فذكرني ذلك بيوم دخولي كساءها .

أتذكرين يوم آويتني تحت معطفك في سقف العالم

نعم أتذكر

كنا ملتصقين هكذا وربما أقوى هكذا هكذا بل أقوى هكذا

ستقع

لا تخافي نحن مستلقيان الآن في أحضان الأرض الرؤوم

الفصل الرابع

١

ثم نويت أن أزور أعمامي في بهرز لأقطع ناسور شك ظل يعذبني طوال الوقت فكنت أتصور أن أهلي لجأوا إلى هناك بعد انقطاع أسباب الحياة بهم في بغداد ورحيل ابنهم الكبير الذي كان يجب أن يعيلهم ومن يدري ! فقد تكون العلاقات بينهم وبين أولئك الذين جاءوا من بهرز قد توطدت من بعدي واكتسى عظم القرابة المعروق لحماً ربما كنتُ العائق فلما تغربت التأم الشمل وجرى الدم في الشرايين الناضبة والحق أنني حاولت عبثاً أن أنسجم معهم حاولت أن أقنع نفسي بأنهم أعمامي حقاً فكيف يمكن لرجال غرباء أن يدعوا قرابة لا تغنيهم شيئاً ولا تبوّئهم منزلة إلا ّ أن شجرة النسب اللعينة تلك هي التي بثت الشك في نفسي فقد جاءوا بشَجرة نسب طولها متر ونصف وشككت فيها لأنها كانت تنتهي بآدم. مارة بالرسول والأئمة ولم أكن واثقاً من أن لي مثل هذا النسب ولم أرد كل هذا مجرد أنني رأيت جميع الطلاب في المتوسطة يحملون أسماء عوائل إلا ّ أنا فقد كنت أسمى باسم أبي فقط كريم داود فجئت إلى أبي باكياً وقلت له « الله يخليك من أية عائلة نحن ؟ أم نحن غصن مقطوع من شجرة مجهولة قال بلهجة الواثق تذكر أن لك أعماماً في بهرز وهم يحتفظون بنسب العائلة وسافر إلى هناك . وبعد يومين هبط أولئك الغرباء يحملون سلال الفاكهة ويتبادلون

القبل ويسمونني «ابن الأخ» غير أنني لم أشم رائحة دمي في ثيابهم ولم أجد وشيجة تربطني بهم ظلوا غرباء عليّ حتى سافرت فهل أفلحت الفاكهة من بعدي في ملء عرق القرابة بنسغ جديد ؟

تناولت فطوري عند عمو الياس واشتريت «اتحاد الشعب» ويممت صوب باب المعظم فقد قيل لي يجب أن أسافر إلى بعقوبة ومن هنالك في سيارة «أوربل» إلى بهرز سرت متثاقلاً شاعراً بأن شيئاً يتخلى عني كلما اقتربت من باب المعظم وكأنني ذاهب إلى مستودع حفظ الجثث المجهولة أن سفري يعني أنني يئست من البحث عن أهلي فهو من قلة الحيلة وانقطاع الأمل أنا موقن أن أهلي لا يمكن أن يتركوا بغداد كلها ليتغربوا في بهرز وحتى إذا كانوا هناك فمعنى ذلك أن شيئاً مريعاً قد حصل في حياتهم شيئاً لم يحصل مثله طوال سني حياتي حملهم على ترك بغداد والالتجاء إلى بهرز شيء مخيف كان يوسوس لي ، ويبث الظنون في نفسي

في الحيدرخانة رأيت شخصاً يخرج من دكان . ويقف في طريقي محدقاً بي تجاوزته غير مكترث إلاّ أنه ناداني باسمي ولما توقفت والتفت رأيته ما يزال يحدق بي معكوف الساقين طويلاً ضخماً أشار إليّ بذراع طويلة معكوفة بدت كجناح طائر بلا ريش وحين أقتربت منه بسط إليّ كفه وقال

– كريم ! عجيب ! ألا تعرفني ؟

حدقت به طويلاً ، وهدتني إليه ابتسامته المربعة الكاشفة عن اللثة الوردية

أوه مهدي لم أعرفك لضخامتك

أما أنت فلم تتغير . كأنك لم تغادر كلية الآداب .

لأنني لم أسمن مثلك

تلمست كتفه وتعرفت على لحمه المكتنز

استوى على ذراعي أطبق عليها إبطه وقال وهو يسحبني

إلى أين أنت ذاهب هل وراءك شغل ؟ تعال إذن لنجلس في حسن العجمي

عبرنا الشارع ووصلنا المقهى الحار المبتل الأرض وانزوينا في ركن مخلفين شارع الرشيد وراء ظهرينا وجاء الشاي وراءنا تماماً وفي الحال رنت الملاعق في الأقداح الزجاجية الصغيرة مثل أجراس على حمير متعبة تسير خلفنا في شارع الرشيد

إيه تكلم

— تكلم أنت أين كنت هذه المدة

أنت تعرف أنني غادرت العراق

سمعت فيما بعد سافرت للتخلص من المشاكل

— ربما ولكنني عندما سافرت لم يكن بي نيي أن أغيب كل هذه المدة كنت أريد أن أنهي دراستي في بيروت أو القاهرة

— وهل أنهيتها

لا لأن تكاليف الدراسة والمعيشة باهظة والمورد قليل وأشياء أخرى

— ولم تعد إلى بغداد .

كيف أعود وقد رأيت الطلاب المفصولين أنفسهم يأتون إلى مصر ليكملوا الدراسة

ها تقصد في وزارة نوري السعيد ؟ ـ

نعم جاءوا بعدنا

كانت تلك موجة أخرى جديدة من الفصل فصل على نطاق الأمة كما قال

وتناول مهدي علبة الكبريت من على الطاولة وراح يلعب بها ثم طلب سيكارة، ودخنها مالئاً وجهه العريض كله بالدخان ومن خلال الدخان بدا لي وجهه أكثر ألفة وأقرب إلى النفس وكأنه في إطار نافذة تطل على الماضي حتى سألته

ـ وأنت ؟ ماذا حصل لك ؟

ـ أنا ؟ قصة أخرى ـ وبدد بقايا الدخان بهزة من رأسه مع إيقاع الكلمتين التي تفوه بهما ـ بعد أن فصلنا قضيت شطراً من حياتي بالتسكع بلا عمل نفس الحياة التي كانت ترهبك الا تذكر ؟ خوفك الرهيب من الفراغ الذي وجدنا أنفسنا فيه بعد الفصل

ـ نعم أتذكر ـ ومن كلماته لمحت الماضي يخفق ذاكرني ـ أتذكر جلوسنا في المقهى صباح مساء نراقب الطلبة الآخرين يذهبون ويعودون إلى الكليات كان ذلك شيئاً قاتلاً بالنسبة لي هل تحملته أنت

ـ وددت لو تحملته فالحياة أيضاً جامعة متعددة الكليات وقد تعلمت منها الشيء الكثير وبدأت أقرأ بنهم الجائع وأراقب الناس وأكتشف شخصيات طريفة أعايشها ولا أعرف عنها شيئاً ثم انقطعت العملية فجأة .

وتأوه قلب محاولاً أن أمسك بذلك الخيط الذي يشدني إلى جرحي الخاصة

أعادوك إلى الكلية

أية كلية ؟ أودعوني السجن

وضحك وبدا مهدي مرحاً مرحه القديم كانت ابتسامته عريضة تملأ وجهه كله الآن أتذكرها وأتذكر اللثة الوردية التي تتعرى كلية حين يبتسم قلت

ألم يعيدوا أحداً من ذوي الفصل المؤبد

— متى تركت العراق بالضبط

— في بداية وزارة المدفعي — السعيد

— في وزارة الجمالي بعدها أثيرت قضية الطلاب المفصولين أكثر من مرة فترك أمر إرجاعهم إلى مجالس الأساتذة في الكليات فوافقت بعض الكليات على إعادة طلبتها ورفضت كليات أخرى وقد أعادت كلية الآداب جميع المفصولين جميع أعضاء وفدنا إلى وزارة المعارف ما عداي وجاسماً فقد كنا في التوقيف أنت تذكر جاسماً

الشاعر ؟ أتذكره جيداً كان يتنقل بين الغزل والسياسة

نعم وكلاهما كان نكالاً عليه فشل في الحب فألقى كل ثقله في السياسة تنفيساً لعواطفه الكظيمة ولكن قلب السياسة أقسى من قلب المحبوبة إذا كان للمحبوبة قلب لا يميل إليه فإن لها على الأقل عينين تريان ولساناً حلو ورائحة عطرة أما السياسة فبلا قلب ولا عينين ولا لسان حلو ورائحتها جيفة صرعته صرعاً

هتف في وجل

مات

مات عقلياً نخبل

ها ؟ نهائياً

نعم نخبل فقد عقله وهو بين أحضان السياسة الفاسدة ، أقصد في الموقف موقف الكرخ السيء السمعة ألم تكن معنا

نفس الموقف الذي كنت فيه عام ٥٢

صار أقذر وأقبح لأنه خلال عام ونصف شهد تاريخاً حافلاً وانزرعت فيه فضلات مئات الناس الذين أقاموا فيه لمدد متفاوتة عندما أدخلونا إليه سد جاسم علوان أنفه في منديله وأمسك رقبته وقال سأختنق رائحة لا تليق بشاعر نتانة وفضلات إنسان ! أنزوى جاسم في أقصى ركن عن المرحاض المكشوف كان هذا الركن بالطبع محجوزاً من قبل الذين سبقوه إلا أننا توسلنا إليهم أن يخلوه للشاعر فقبلوا غير أن الشاعر لم ينم الليل ظل يتقيأ وكانت هذه العملية مصحوبة باحتجاج الآخرين وولولة وصراخ كانت ليلة ليلاء كما يقولون وفي الصباح كان وجه جاسم أصفر كقشر الليمون في بادىء الأمر امتنع عن الكلام حتى لا تدخل رائحة النتانة في فمه ثم أخذ يرسل صوتاً غريباً مخنوقاً وتوسل أن يخرج ساعة ليشم الهواء لأنه سيختنق ولكن من يسمع ؟ في ذلك الوقت ! وأخيراً أخذ يجز شعره ويضرب على صدره وفي اليوم الرابع أو الخامس أعطاك عقله .

ألم تسمعوا له

حاولنا نقله من الموقف إلاّ أن محاولاتنا ذهبت عبثاً قالوا لنا أنه يتظاهر حيلة شيوعية

تذكرت حادثة من الماضي الذي أصبح الآن قريباً مني

— كان الشعر نكالاً عليه حتماً أتذكر يوم ذهبنا في وفد إلى السراي وفي الطريق أحب جاسم أن يلقي قصيدة فأصعدناه على سطح موقف السيارات. وكانت القصيدة من مطولاته والوقت قصير وكان يصر على إلقائها كاملة ، فتركه الوفد هناك حتى أنزلته الشرطة من على السطح

وصمتنا وأشعلت سيكارة بدت ضرورية لي مثل نشقة هواء نقي بعيداً عن لوثات الماضي وسألته عن جاسم

كيف حاله الآن

— هو الآن معتكف في قريته أخف حالة كتب لي قبل مدة رسالة عنيفة يقول فيها أنه سيعود إلى الشعر ثانية لأن أسراراً كثيرة في ذهنه تجسمت عن الكون ولكن سيترك ثلاثة أشياء لا يتحدث عنها هي النساء والسياسة ، والكلاب يبدو أن كلاب القرية ليست على علاقة طيبة معه

وكان ضحكنا قد جف فلم نضحك بل صمتنا ساهمين قليلاً أردت أن أريح مهدي عن الحديث الجانبي فسألته

— وأنت ماذا حصل لك ؟ هل أرجعوك إلى الكلية ؟

رجعوني إليها وأنا في التوقيف فلم أستطع الذهاب إليها طبعاً ثم أودعت السجن المركزي ولم أعد إلى الدراسة إلاّ بعد الثورة وتخرجت هذه السنة . وعينت مدرساً . الا يبدو علي

نعم شممت رائحة طباشير في ثيابك

أنا لم أداوم بعد سأنتظم في أول السنة الدراسية

وابتسم مهدي كاشفاً عن لثة طفل وسألني

وأنت ؟ حدثني عن نفسك ماذا حصل لك ؟ متى رجعت ؟

قبل ثلاثة أسابيع

فقط ؟ كأنك لم تسمع عن الثورة

ولم أجد لنفسي مبرراً أمامه وكيف يستطيع الإنسان أن يبرر الغربة الموت في بلاد الآخرين

سمعت بها وراقبتها

عن بعد ؟ هل أخافتك إلى هذا الحد ؟

لا أنا لم أسمع غالباً إلا بالجانب المشرق منها ولكن التهيؤ للعودة اقتضى هذه المدة

لتصفية الأعمال ؟ هل كانت لك أعمال كثيرة في الغربة

ولاحظت نبرة السخرية الخفيفة في كلامه

لا مجرد تعود الإنسان قد يتعود على عادات سيئة أيضاً

كانت لك هوايات كثيرة كما أتذكر هل حققت شيئاً منها

في الغربة تنعدم الهوايات وتبقى فقط غريزة الكفاح من أجل الحياة.

هذه الغريزة موجودة في الوطن أيضاً .

في الغربة أقوى بمائة مرة خوفاً من أن تموت على قارعة الطريق مجهولاً يجب أن تكافح أكثر من أهل البلد بمائة مرة لتظفر بنصيب ليس بعيداً عن نصيبهم

– وهل حققت ذلك ؟

– لا أدري ولكن المهم أن الاقدام لم تسحقني ولو أني عدت مرضوض الجسم ولكن ذلك من شيء آخر

– حدثنا عنه

– من خسارة شيء لا يعوض وهو العمر الحياة في الغربة مثل سفر في بحر والفرق زهيد جداً بين أن تسافر على سفينة أو مركب قديم فالنتيجة واحدة وهي فقدان العمر دون طائل ودون نمو في العمل الذي بدأته في وطنك ولو دون وعي أنا الآن أحس بأنني ضيعت ستة أعوام ماخراً عبر بحر الغربة ستة أعوام ضائعة تسكع وذلك هو جرحي وعاري

صمت مهدي صمتاً أرهبني ثم قال

– سواء هذا أم ذاك فإن الإنسان يجب أن يمشي على الشاطىء أم تراه يقف منتظراً سفينة أخرى

– صحيح يجب أن يترك الشاطىء

– سأفعل

– ماذا خلفت في الغربة ؟ أولاداً ؟

– قصوراً هوائية .

كان قاسياً أن أستمر في إيلام نفسي أمامه اكتئب أبي

يجب أن تعود إلى ذكرياتك. أنْ تتذكر كل شيء وتتمثله حتى يخيل إليك أنك لم تتغرب كثيراً هل عندك ذكريات أقوى من ذكريات وطنك ؟ أية ذكريات لك هناك

لا شيء

إذن نجب أن تعود إلى ماضيك وتبدأ العملية من جديد

تريدني أن أبدأ الدراسة

ولمَ لا

– وهذه الشعرات البيض ؟ سيضحك الطلاب والأساتذة مني

– لن يضحك منك أحد ربما تريد أن تعود بنفس امتيازاتك السابقة وهذا ما لا أكفله لك نحن قد كبرنا على الزمن

أحرجت ولم أرد أن أقول له شيئاً عن ظروفي العائلية خجلت اعتبرت ذلك خاصاً بي وصغيراً بالنسبة للأشياء الكبيرة التي تحدث عنها هؤلاء صنف من الناس يجيدون التحدث عن الأشياء الكبيرة المذهلة حتى لتخجل أن تفوه أمامهم بهمومك الشخصية عدت أقول له

سأحاول صادقاً

وطّن نفسك وستكون المحاولة ناجحة

سأوطّن نفسي

نظر مهدي إلي ملياً وقال بعد أن ملأ صدره بالهواء .

أتذكر يوم اجتمعنا بعد الدروس في غرفة ، وتداولنا في إعلان احتجاجنا على فصل طالب ليس من كليتنا ولكن من كلية أخرى ؟ اعتبرنا القضية تمسنا قضية حياة أو موت المصادفة فقط جعلت أول المفصولين من دار المعلمين الابتدائية أتذكر يو ماحتججنا على العمادة ؟ أما أنا فأذكر قول العميد « تعالوا اجلسوا وراء مكاتبنا وتصرفوا بأنفسكم أتذكر يوم طلع علينا الوزير متلطفاً وقال لا أستطيع أن أتحدث معكم فاختاروا خمسة منكم ، فدخلنا ، وكنت أنت معنا ؟ ألا تذكر كيف كان يعبث بسكين قطع الورق الشبيه بسكين حقيقي ؟ لِم ذلك ؟ لأنه هيأ لنا في ذهنه شيئاً حاداً جارحاً وهذا ما كان فقد طردنا بعد يومين شطبوا على حاضرنا وقامروا بمستقبلنا إلا تذكر ذلك ؟ هل نسيت ؟ أما أنا فأذكر يوم جئت مقطوع الرجاء وقلت يعني انتهى جهد ثلاثة عشر عاماً من الدراسة بجرة قلم ؟ وأصبت بصدمة ربما هي التي جعلتك تترك العراق

– ليس هذا هو السبب الوحيد

– لا أريد أن أحاسبك دع الماضي للماضي هل أنت متضايق من كلامي

لا ابداً

– ٢

رأيتني أعود إلى الباب الشرقي بعد هذه المحاسبة المؤلمة كان سرداب « الجندول مزدحماً تطل عليه غمائم من الدخان مثل غاز أفلت من المصابيح وكانت المصابيح نفسها مخنوقة بهذا الدخان ، وكذلك الوجوه ، وأقداح البيرة. وصحون المزة والمزهريات الصغيرة الشبيهة برؤوس حيوانات محنطة

وفرغت الزجاجة الأولى وتذكرت بعض كلمات مهدي وقلت لنفسي إن هؤلاء الشيوعيين أساتذة في أن يجعلوك حجل من نفسك كنت أفكر بمهدي عبد الصمد يقطعون عليك جميع السبل ويضعونك بالمصيدة مثلما فعل معي اليوم تمام أم لا ؟ صحيح ؟ اعترف ليس العار في ارتكاب خطأ ولكن في الاستمرار عليه يجب أن تعود إلى ذكرياتك القديمة يا كريم ذكرياتك الحقيقية أية ذكريات لك في الغربة ؟ كل ما جمعته في الغربة حفنة من الرمال والآن تملأ جسمك بوخزات ذراتها دفء رمل فخرته الشمس وفي ليل الذكرى أصبح بارداً كالثلج الآن يجب أن تعود إلى ذكرياتك الأصلية هنا في تربة الوطن ولو كنت لا تعرف أين قذف بأهلك هذا الوطن وأين دفنهم ذكريات الوطن أقوى من كل شيء أقوى من الجوع والتشرد من تجاوب عابر مع امرأة ألقتها الحياة في طريقك مصادفة حاملة كل مشاكل وجودها القلق متورطة بعلاقة قديمة مع آخر محمولة بالريح إلى ظهر الموج الذي يتقاذفك الآن أصبحت ذكرى عابرة لا تدفىء ولا تغني من عطش الجسد المزمن والروح المتضورة إلى درجة الاحتضار أنس كل شيء عد إلى ذكرياتك أية واحدة منها ؟ إلى جميعها كلها سواسية مثل حبات الرمل التي تملأ جسمك الآن بالقُرح منزلقة على روحك موحلة عفنة وكان الليل آنذاك موحلاً زلقاً مثل ظهر السمكة والأرض جلد جاموس مسلوخاً أقدامي تبقبق وكأنها تعجن عجيناً وعيون البيوت مغلقة ملطخة بالقذى إلاّ أنني رأيت مقهى عموري مفتوحاً ترن قطع الدومينو على طاولاته مثل طرقات على سنادين صغيرة رائحة تبغ مخمر تتسكع مع رائحة شاي وكان دكان القندرجي مضاء على ما أظن وقرب دكان سعيد أبو الفحم وقعت وانسلخت يدي تأذيت أكثر لأنني اكتشفت أن بنطلوني قد تلطخ بالفحم وكان علي أن ألبس بنطلوناً من غير بدلتي الوحيدة في يوم مشهود كيوم غد شممت رائحة بيتي العتيقة مزيجاً من روائح أحياء وأموات آدميين وحشرات طافت على وجهي مثل دخان عظام محروقة . والليل طويل كسرداب الغيبة

وكان لي قلبان قلبي الذي ولد معي والقلب الذي انحفر في كفي ينبض على دقات قلبي حرقة حشرات الثقوب تعطي نفسها حرية كبيرة في الظلام وتعتبر نفسها سكان البيت الأصليين اسمع دبيبها فوق رأسي وعن يميني وعن شمالي وتحت السرير وفي أعماق الليل أستيقظ أبي وسعل وسأل أمي بصوت سمعته جا كريم ؟ وكان صوت الإنساني الوحيد في بيت الحشرات

آه يا بغداد الصباح أتذكرك الآن كنت رطبة لامعة كزيتونة شوارعك مبتلة مجدرة بالأقذار بيوتك مثل أفران مهجورة وكانت مجموعة عجيبة من الأدخنة تتصاعد منك وكأنك عروس زنجية تتطيب في صباح دخلتها بألوان من البخور أدخنة أدخنة في كل مكان منظورة مشمومة محسوسة وكان الصمت الصباحي يغلف وجوه الناس وحين كان يرتفع صوت فجأة بجملة باردة أو نداء أو استغفار كان يبدو نشازاً مثل صيحة تلميذ وقح في صمت الصف أسواق بغدادي كلها أسواق ودكاكين تتثاءب تفتح أجفانها أمامي تقذف روائحها البائتة في وجهي رائحة غبار طازجة جنفاص بهارات حنطة شعير وعربات محملة بالبضائع تسد الطريق والناس يأكلون بنهم على الأرض أو وقوفاً يا بغداد الأبخرة والقدور والصحون والأفواه والسعال ومغاسل الأيدي الفواحة برائحة صابون أبو الهيل » هل تذكريني ؟ شققت دروبك في ذلك الصباح وخضت أوحالك شبعت من روائحك الدسمة تحاشيت القسم البلدي أو المرصد كما وكنا نسميه بناية كالحة مثل مستوصف للأمراض السرية تلك هي كليتي بضعة طلاب وفراش عجوز ورأيتهم يشربون الشاي في السرداب ـ المشرب بهامس ووشوشة كان كل شيء يبدو وكأنه يبدأ حياة جديدة وعندما خرجنا رأينا الدهليز يمور بالطلاب قلت لهم بصراحة مستقبل كل واحد منكم معلق بجرة قلم فجأة بإرادة جلاد اذهب فأنت مفصول تماماً مثل قول الزوج لزوجته . اذهبي فأنت طالق ولا تتفوه الزوجة المسكينة

بكلمة احتجاج تلم ملابسها وأطفالها وحرج تغادر بيت الزوجية أيها الطلاب ! يا أشباه الزوجات المهددات بطلاق من جانب واحد لا رجعة فيه ولا فتوة ! تعالوا نحتج عند قاضي بغداد وزير المعارف ! وقلت لجاسم تستطيع أن تلقي قصيدتك فيما بعد في صحن وزارة المعارف انظر إن الجو غير ملائم دد سخيف قليلون أولئك الذين يحتجون على طلاق مسلط ودخلنا وزارة المعارف من بواب كثيرة مثل أخوة يوسف ولكن كنا أكثر عدداً كانت الوزارة تضج بالطلاب ماذا تريدون ؟ قال قاضي بغداد وهو متكىء على باب غرفته نريد أن يعود الطالب إلى كليته ونريد أن تمنع الطلاق من جانب واحد يا قاضي بغداد ودخلنا عليه وفداً عودوا إلى كلياتكم أولاً وسننظر في الأمر كنا نعرف أنه سيرسل أوراق الطلاق وراءنا أصررنا مثل زوجات تعلمن القراءة والكتابة في مدرسة محو الأمية ولم نخرج بنتيجة الآن تستطيع أن تلقي قصيدتك يا جاسم لا أريد في الكلية إذن وجدناها محاصرة وصعدنا إلى سطحها ضمانات ؟ ممكن ولكن الليل غير قابل للضمان وهم لا يعملون إلاّ في الليل يلتقطون من الأفرشة مثلما تلتقط العصافير التعبى من أعشاشها مخدرة بالضمانات أو مسمومة بالالقمط السامة وماذا ستقول الحبيبة إذا لم تجدك في الكلية صباح غد ؟ أخذوه شهم مناضل وطني والليل في الموقف أطول والذكريات تنثال على رأسك كالبندق وفمك جاف زجاجة أخرى عمى ذكريات كالسمك الصغير تسبح في حوض نفساك بل زورق محمل بالبيرة يترنح يهتز مع تداعي المعاني والأفكار ولم تستجب لنا كلية الهندسة تقريباً كان المفروض أن يأتوا وتود لو تنتحر حين يتبين لك أن القضية التي ناضلت لها لا تحظى بقبول حسن الأشجار معنا والعصافير والحجارة والشرطة وراءنا والسلاح .

٣

ثم قذفني « الجندول » إلى الشاطيء . هواء منعش رطب . والليل رواق مرصّع بما لا نهاية من المصابيح . والناس أشباح . والسيارات لها أصوات تصدر من وراء جدار سميك من الحديد . أفقدني « الجندول » توازني . وددت لو أتعانق مع إنسان . مع شجرة . مع زجاجة بيرة فارغة . أحسست بأنني ثقيل حين سقطت قدمي من على الرصيف . واعتراني خوف غريب وكأنني وجدت نفسي تائهاً فجأة . ابتعدت عن النهر وسرت عبر الشارع . الضوء هناك أقوى والنهر أبعد . والبيوت أقرب .

— عمي . سيارة .

تغريني « عمي » كثيراً . مثل قبلة تُرسل إليّ في الهواء . وأشعرني منظر السيارة بالتعب . أردت أن أعامل السائق .

— كم .

ورأيت وجهاً أعرفه . في نقاب من الظلمة . رأيت العينين الصغيرتين والفكين الضخمين .

— مرحباً . هل دل عرفتني ؟ أنا الوطني . ألم تعرفني حتى الآن .

وتبادلنا السلامات .

أين تحب أن أوصلك ؟

— إلى الفندق .

— يعني لم تعبر على أهلك ؟

لم أرهم فص ملح وذابوا

عجيب ! ولكن بغداد ولاية ولا بد أنهم في محلة من محلاتها

اللعنة على المحلة التي سكنوا فيها

هل أنت متعذب من السكن في الفندق ؟

– امقته أنا لا أعيش في الفندق. بل هو الذي يعيش علي بقمله وبراغيثه وذبابه

ضحك السائق وقال

– اطلع منه قد نجد فندقاً أحسن

أنا أكره الفنادق كلها خيرها وشرها سأحاربها طول حياتي العيش فيها يدير الرأس وكأنك تعيش في كفة تدور بك في نهر دائخ

كنت أحس بالدوار كانت السيارات تطير نحوي لاسعة أجفاني بأضوائها كان كل شيء يتحرك متذبذباً أمام عيني وكأنما قد انخلع من أساسه منسلخاً عن المكان

– أنا أيضاً مثلك أكره المسافرخانه

– العيش في الفندق انتحار – قلت بحماس شديد – مثل العيش في حديقة حيوانات

ضحك السائق مرة أخرى ضحكة [illegible] حتى أردت أن أقبله

وطوال الليل [illegible] أصواتاً [illegible] سعالاً شخير وقباقيب ونعيق سكارى [illegible] لأن النوم لا يأتي إليك . وأنت صاح

أعوذ بالله

هل أنت تشرب

كنت من زمان والآن لا أذوقها لأنها تؤذي عيني وهي أعز ما أملك في الدنيا

صحيح الخمرة تضعف البصر ولكن لماذا لماذا يشرب الإنسان ؟ لأجل هذا أيضاً ليتعامى عن بعض الأشياء الكريهة ليضعف بصره

ولكن الهموم داخل القلب لا تعميها مع الخمرة تصبح هذه الهموم مفتحة أكثر وتظل تلسعك بالمواضع التي يمض فيها اللسع كأنما تشكك بمخيط

وافقته الخمرة توقظ شياطين النفس فتقيم لك في الداخل مأتماً أو قصفاً جنونياً نظرت إلى السائق كان يطوف في هالة من الظلام هو والسيارة كل واحد حتى لعجبت كيف يفكر وهو منغمر هذا الانغمار سألني عن الفندق فتأسفت في قرارة نفسي كنت أود أن يعرفه وهو الوحيد الذي شاركني يوماً عصيباً في حياتي فقلت له بعتاب وكأنني ألوم صديقاً نسي إسمي

بهذه السرعة نسيت فندقي بينما أنا لم أنس كل شيء لم أنس انتظارك لي وتقديم سيكارة عراقية طازجة لم أنس حتى لون سيارتك

كانت سيارة شوفروليت جديدة

وأين ذهبت ؟ لم تبعها إن شاء الله

وهل هي لي لأبيعها ؟ هي ملك الشركة وأنا ملك الشركة والشركة تخاف أن تعطيني سيارة جديدة في الليل خوفاً عليها فإن نظري في الليل ليس

قوياً والشركه خاف على ملكها مثلما يخاف الإنسان على « الحِب الذي يشرب منه الماء

واعتراني خوف مفاجىء فصمت وراقبت الطريق وكأنني أعينه على السياقه ولعل السائق ضاق بصمتي فسألني ملتفتاً نحوي نصف التفاته

هل خفت ؟

لا أبداً

– لا تقلق أنا سائق قديم أسوق منذ أربعين عاماً رقم إجازتي سته بغداد هل تتصور ؟ أنا سادس عراقي يتعلم السياقة أيام كانوا يسمون السيارة عربانه بلا خيل

– أنت من الرواد إذن ؟

لم يفهم الكلمة كما يبدو فقد تابع قوله وهو يضرب على الدفة

– أربعون سنة وأنا وراء هذا « الستيرن ولكن من يقرأ من يفهم كل من قعد وراء الستيرن سموه سائقاً ؟ على الرشيد لو على الجمهورية ؟

– على شارع الجمهورية لنمر بخرائب بيتي

– بيتك عامر أستاذ

أشكرك رجو أن يكون ذلك

وهل كانت في بغداد حرب لتخاف عليهم ؟ ولا أهلك من العائلة المالكة

أهلي بسطاء أبي كاسب

كلنا كسبة والحمد لله هذا شارع الجمهورية هل صرت تعرفه ؟

أعرفه وأتخيل ما كان فيه

هنا كانت سكلات الخشب

– نعم أتذكر كانت رائحتها جميلة منعشة مثل رائحة حطب الطرفة إذن فأنت بغدادي أصيل

أصلي من حمام المالح

– در من شارع الكيلاني

– غير ممكن يا أستاذ مرور واحد، قانون جديد لا أعرف متى يلغى سنستدير من الشارع الآخر في أي فندق قلت ؟

– في أحقر فندق أنت الذي أوصلتني إليه رجوتك أن توصلني إلى أقرب فندق

تذكرت ألا يزعجك شارع الرشيد

يزعجني كل شيء في الفنادق وأين سكنى البيوت من سكنى الفنادق

تفضل وتعال اسكن عندنا

اعتبرتها دعوة مجانية من باب المجاملة فشكرته إلا أنه أصر بجدية

– إذا كنت من بغداد الشعبية فتعال وعش معنا في البيت وإذا أردت فلا تدفع إيجاراً بالطلاق لا تدفع حتى تجد أهلك .

– سأضايقكم

أبداً البيت خال أنا والعجوز فقط سنفرد لك حجرة ولنا حجرة وعليك أن تتكفل بالأثاث وستكون مثل ابي الذي كان يجب أن يولد

وتحسر وأحسست بأنها حسرة شيخوخة منقطعة جدباء

أنا موافق عمي

اسمي نوري نوري السائق

وأنا كريم كريم داود

– عاشت الأسماء

وأخذت أستفسر عن التفاصيل ذلك لأن الفندق كان على مقربة وقد استصعبت صعود السلم الضيق

الفصل الخامس

ـ ١

ـ هالو محسن مرحبا هل سألت عني البارحة في «الجندول ؟
(سأل)

ـ تركتها في الساعة العاشرة كنت تعباً فذهبت إلى الفندق وسهرت مع القباقيب ماذا وراءك ؟ هل وجدت رجب القندرجي ؟

(لم يجده بل وجد لي عملاً)

في أمانة العاصمة

(لا بل كمترجم سألني هل تحسنت بالانجليزية ؟)

ـ لا أستطيع أن أقول لك ولكن أستطيع أن أترجم منها

هوّن علي الأمر وطلب أن أعرج عليه في المكتب

لا أفضل أن نلتقي في الخارج هل توافق على مقهى

وافق وعندما وضعت السماعة لم أدر لماذا لم أرد أن أذهب إليه في المكتب شيء غامض وحزين ومشوش هبط على صدري حين ذكر المكتب ربما لأنني

لم أرد أن ألتقي بها ثانية فأقع في أحبولة الذكريات أرجو أن أعيش حاضري فقط وأغلق بابي في وجه الذكرى فالذكرى والضياع صنوان ما دمتُ ضائعاً فسأظل أتسكع في دروب الذكرى وما دمت أتذكر فسأظل كالشبح الهائم لا أستقر في مكان أو ربما لأنني خفت من الرقة من فخ جديد تنصبه عينان رقيقتان لقلب متعب حتى السقم عن حسن نية أو بلا قصد أو للفكاهة إنهن يتفاكهن بعيونهن وابتساماتهن فتحسب ذلك جداً وتقع وتظل المطارد والطريدة وهكذا فضلت أن أجلس هنا وأنتظره راقبت السيارات أمامي بذيولها الزرق الخفيفة وسحابة الغبار المتعجرفة ثم لمحت سيارة محسن تبطىء من سيرها باحثة عن مكان تقف فيه وأخيراً رأيته يبتسم مقبلاً علي

أين كنت البارحة ؟ جعلتني أبحث عنك في كل الحانات التي تعودتَ عليها خلال وجودك

ـ لم أذهب البارحة إلى حانة بل إلى حمام عمومي وقضيت بقية المساء في الفندق

صافحني عبر الطاولة وجلس قبالتي

ـ لماذا لا تعطيني عنوان فندقك ؟ لماذا تعاند ؟

سأنتقل منه ، وسأعطيك عنواني الجديد البارحة مررت على شط الحبايب ، وخسرت درهماً

ابتسم محسن وتهلل وجهه كصبي صغير

ـ وكيف رأيتها

ـ هل تريدني أن أتغزل بها ؟

لا لا . . ولكن هل أنا موفق ؟

موفق أنت بالشكل الخارجي الذي رأيته بها موفق حتّى بصوتها كيف تعرفت عليها يا محسن ؟

سأقول لك فيما بعد ، علاقة عائلية بعيدة كنت أمام الحلين الخالدين أما أن أتزوج امرأة أمية لا أنسجم معها أتزوجها لتقضي حاجاتي ، وأما أن أتزوج امرأة متثقفة فأتحمل تكاليف الزواج الباهظة وأقدم نفسي على أنني صاحب كذا وكذا وجميع الشروط الأخرى

– وهل لوازم الزواج لما قبل الثورة سارية المفعول حتّى الآن

بل أكثر أصبحت الناس تضرب بالعالي الجمهورية رفعت الجميع إلى مستوى السياسيين ورجال الأعمال

– وهل لديك كل الشروط

بسط محسن ذراعه أمامي وقال

– السيارة موجودة ولا بأس بها والبيت المستقل سيوجد قطعة أرض من نقابة المهندسين وسأبني الأساس وأطلب قرضاً من مصرف الرهون والباقي مضمون

أهذا هو المهر

– لا قطعاً أشارة الدخول إلى بيت الفتاة لا أحد يقبل أن يتحدث إليك إذا لم تكن سيارتك واقفة أمام الباب وأنت تتحدث ومفاتيحك بيدك وعندما يبدأ الحديث سيبدأ دائماً عن البيت وقطعة الأرض وإلاّ فعم ستتحدث ؟ عن الجو أم عن المؤامرات على الجمهورية

ونتم الصدفة

الحياة بكاملها صفقة ضخمة تعقدها مع القدر

– تشيطنت كثيراً يا محسن

– ارجوك تريدني ان اكون ساذجاً فأسحق بالأقدام في كل
شروع عنصر المغامرة كل شيء في هذه الدنيا غير مضمون مائة بالمائة
ب ان تجرب وتضع امامك احتمال الفشل ايضاً والحياة الزوجية هي ايضاً
شروع حياتي ، وقد يفشل ولكن الناس إذا لم يجربوا بقي اغلب الناس عزاباً
هلكت البشرية

– موفق إذن ستكون ادويتنا رخيصة

– سنتفق على ذلك فيما بعد لا تستعجل إن المشروع ما زال في بدايته
ما رأيك في العمل الذي عرضته عليك في التليفون ؟

– مترجم ؟ في محل تجاري

لا في وكالة انباء

صمت قليلاً ثم قلت بتردد

– لا بأس ولو ان احد زملائي القدامى يريد ان اكمل دراسي المبتورة

– تستطيع ذلك لأن العمل بعد الظهر

– موافق إذن كيف و جدت لي هذا العمل

وجدته او في الحقيقة وجدته عن طريق آمنة . .

خطيبتك .

لا الفتاة الي تعمل عندنا في المكتب

دخل منبه سيارة في اذني وعوى وزرع الوشوشة في اعصابي كلها انتظرت حتى تصفو

– هل قلت لها إنني عاطل شريد ؟

– قلت لها إنه مغترب عائد

– هل قلت لها ان عائلته ضائعه ؟

لا اظن ولكن لم هذا التوجس

اريد ان اعرف لماذا تهتم بي فتفتش لي عن عمل ربما عن شفقة

– تتصور اشياء وهمية إنها لم تفتش لك مجرد انها تعمل هناك بعد الظهر وذكرت لي انهم محتاجون إلى مترجم وبراتب محترم هل تريد ان تذهب اليوم

– لا اليوم سأذهب لاستئجار غرفة

– إلى اين ستنتقل

– إلى احد ازقة بغداد

– حننت إلى الأزقة

– لا استطيع ان اعيش بدونها تربيت فيها

صمت محسن واطرق واخذ يلعب بشاربه فطنت إلى أن شعره الكثيف قد سرح عن جبينه ولاح له برزخان خفيفان من الصلع على جانبي

أسه قاب لنفسي لم أكبر اوحدي بل الناس كبروا أيضاً سيدعوه الأطفال «عمي» اء مثلما يدعونني عمي ! ولكن عماً متزوجاً أو مقبلاً على الزواج خير من عم ضائع

إلى أي بيت ستنتقل

إلى بيت سائق

رفع محسن رأسه والتهمني بعينيه الواسعتين وسأل وكأنما استفز

من ذو هذا السائق

— شخص نقلني من المطار وشهد يوماً من أقسى أيام حياتي

— ووافقت على أن تسكن عنده

واستدار وجه محسن كلياً أمام عيني

— نعم وما المانع

— عجيب ما أدراك أن مسكنه يلائمك

— سيلائمني

— أين يسكن ؟

في حمام المالح

— ستكون مالحاً أما أن تكون طاهراً فلا أدري

وضحك ضحكة طعنتني دب د الاهانة لها

— نظافة الجسد لا تعني نظافة و ح دا لماذا لم أهام أتخذ منها شعاراً للنظافة الكاملة .

قال بلهجة ألين

كان بإمكانك أن تؤجر غرفة جيدة مثلي في بيت محترم لقاء ستة دنانير أو سبعة

– أرجوك يا محسن لا تُدخل المقاييس المادية بالمقاييس المعنوية لا تخلط.

– أنا أريد راحتك

– سأكون مرتاحاً هناك

– مع شخص لا تعرفه ؟ لم تلتق به إلاّ مرة واحدة

– ليس كل الذين تعرفهم طيبين وليس كل الذين لا تعرفهم سيئين أعتقد أنه إنسان طيب هذا هو انطباعي

وهل رأيت البيت

– لا يعنيني البيت بل يعنيني الناس الذين يسكنونه

– كيف لا يعنيك ؟ تأتي تعباً وتريد أن تستريح فلا تجد جواً للراحة

– لا أذكر أنني استرحت في البيت طوال حياتي فلماذا أطالب أن أستريح الآن ؟

– أنا أعرف بيتاً تستريح فيه هادئاً ومريحاً ، وصاحبته امرأة طيبة ستعاملك بلطف كل ذلك لقاء خمسة دنانير ام أنت تريد الرخص

– لا يا محسن أعطيت للرجل كلمة

– وهل هي خطبة حتى تخجل ان تفسخها . الناس يفعلون ذلك بسهولة

ونزاهتي لي وجه السائق. لاحت لي عيناه وهو المشمرة يوم ركبت معه من المطار علقت بي مثل كلمة «عمي» التي ناداني الطفل

لا يا محسن لا أستطيع

— ٢

وجدت نوري السائق في انتظاري عند أول مقهى بعد جسر الجمهورية لمحت سيارته السوداء محدودبة داخنة اللون تلمع الشمس متواضعة على زجاجتها الخلفية وعندما اقتربت رأيت بعض البعجات والخدوش على الرفرفين وبدت لي السيارة كلها لا تصلح إلا لنيل الذي يخفي الكثير من آثار الهرم عليها كان نوري جالساً وراء المقود رأيت ذراعه المطوية بارزة من فتحة الباب إلى جانبه والشعر الأشيب الغزير الذي يملأ جانبي رقبته سلمت فأدار وجهه نصف استدارة ورأيت عينيه الصغيرتين الشبيهتين بعيني طفل ورد السلام وأشار إلي بأن أستدير لأجلس إلى جانبه جلست وحرص على أن يقول «الله بالخير وأخرج علبة سكائر «لوكس» وقدم سيكارة لي وخيل إلي أنني أعود فأترك المطار من توي وينقلني هذا السائق إلى محلتي قلت وأنا أتناول السيكارة

— أنا آسف لقد تأخرت عليك

وما الداعي إلى الأسف ؟ سندخن سيكارتنا على مهل ثم نبدأ مثل هذه الساعات ينقطع الرزق وكأنه هو الآخر ينام الظهر مثل بعض الناس

لا أذكر أني نمت يوماً بعد الظهر

وأنا أبداً

نوم الظهر تعوّد

— كل شيء بالدنيا تعوّد كل شيء كل شيء التدخين تعوّد والسكر تعوّد والنوم بالليل والعمل بالنهار تعوّد واللسان الحلو والشتائم تعوّد الأمانة والخيانة تعوّد حتى القتل الذي تراه اليوم تعوّد عن العراقيين تعودنا عليه من زمان من زمن الحجاج الذي رأى رؤوساً أينعت وحان قطفها

قلت للسائق محاولاً أن أقدم له سبباً قريباً من مدارك

— تعصب

لمن يتعصبون ؟ للشمس

كل إنسان يجر النار للخبز

وخبزة الفقير مع من بعد أسألك بالله

مع الجمهورية عم نوري

— لا أعرف جمهورية ولا بطيخ أعرف الناس اللي عندهم واللي ما عندهم قل لي كم ديناراً عندك كم حوشاً كم سيارة حتى لو عندك كم حذاء وسأقول لك من أنت ؟ الجمهورية هذه حجة اسم قطعة قل لي أسألك بالله من بكى على الوصي

بكى عليه الإقطاعيون وكل الذين يستفيدون من حكمه

— لا أصدق أنهم بكوا هؤلاء لا تدمع عيونهم لم يبكوا إلا مرة واحدة عندما طلعوا من بطون أمهاتهم وحتى إذا بكوا

أتعرف لماذا بكوا ؟ لأنهم يعرفون أنه ليس لهم حصة بالحكم الذي جاء بعده

بمنى الجمهورية

جمهورية ؟ قلت لك الجمهورية اسم قطعة معلقة غدا الموجودون بالجمهورية ينقلبون تنقلب الجمهورية وراهم يعني نحن اليوم مثل البارحة ؟
قلت مهرباً

لم أكن حة هنا

ضحك نوري وقال أنت تعجبني ثم سرد عليّ قصة المزاحمة على اسم مطعم النهر

راد أحد الأشخاص أن يرتزق من اسم مطعم مشهور ففتح له مطعماً سماه بذلك الاسم فاشتكى صاحب المطعم الأصلي على صاحب المطعم المزيف قائلاً أنه يستغل اسم المطعم وشهرته وفنونه في الطبخ وكسب الدعوى ولتأكيد سمى مطعمه مطعم النهر الاصلي فسمى المزيف مطعمه مطعم النهر والبحر وكلاهما مجنون فإن الاسم لا يطبخ ولا يطعم الناس لذيذ الطعام كأن العبرة بالأسماء يعني كل من علق قطعة صار يعرف يطبخ ؟

وصمت مصصت ثلاثة أنفاس متتالية من السيكارة ثم رميتها عبر النافذة ولسعني حديد السيارة حين اصطدمت يدي به شيء ثقيل أردت أن أعبر عنه وأريح به صدري فكرة غير متبلورة نجوى استنتاج معقول لما خضنا فيه غير أنني لم أستطع فصمت تاركاً الأفكار تطن في رأسي كذباب بجوج محبوس وقال السائق فجأة

دوختك بالكلام الحاصل أنت ما تزال عند رأيك ؟

عن الجمهورية .

لا القطعة ما زالت موجودة ولو معوجة أنا أسألك عن السكن
موافق على السكن معنا

أكدت له رغبتي فقال يجب أن تشتري سريراً وفراشاً ومخدة فإن الحجرة عارية « ربي كما خلقتني

— سأشتري هذا

هبت نسمة خفيفة حين تحركت السيارة في شارع أبي نواس وجففت بعض قطرات العرق من وجهي وعلى رقبتي

هذا هو شارع الجمهورية مرة أخرى خرائب إن للتراب وسط بيوت الناس لوناً قبيحاً منفراً كان في كل مكان على الأرصفة غير المستوية والجدران البكماء والساحات ووجوه الناس وأرجل الأطفال الحافية .و في الأرصفة أكوام من الحجارة ربما هي بقايا البيوت التي هدمت بينما كانت البيوت الأخرى التي سلمت منه تدير لنا أقفيتها القبيحة المثقبة بآلاف الثقوب الصغيرة مثل خلايا نحل مهجورة التراب هنا هو السيد أنه هش متشبث وعدائي ولعبة لاية ريح ولأية حركة حتى خفقة نعل أو رفة ثوب مررنا بالبركة الجافة في ميدان الخلاني قبيحة ومهجورة تتناثر الأحجار المهشمة في قعرها الجاف ولون التراب يطغي على حوافيها التي ما تزال صقيلة وهذه هي منطقتنا

كانت الشمس تغمر كل شيء تتوهج في التراب والحجارة وصفائح التنك وأحواض الحمام التي جعلت مراجيح وشككت في أن تكون هذه الشمس هي نفس الشمس التي كانت تطل على أزقتنا ثم تذكرت عربات السيمون وبائعات اللبن وقوالب الثلج والظلال تزحف على الحيطان نعم أنها هي ولكنها في بيتي حكاية أخرى .

استدارت السيارة في ساحة أخرى. ثم خشخشت بصوت مفزع واهتزت مستجيبة لبربرة محركها. وخرجنا من شارع الجمهورية وسرنا في شارع الأمين. ثم توقفت السيارة وهبطنا منها. من هنا تبدأ أزقة لا تدوس عجلات السيارات حرمتها.

أخذ نوري يبسط لي الطريق. من هنا في خط مستقيم إلى أن نجد هذا المكان لتصليح الأدوات الكهربائية. وبعد ذلك تستدير يساراً. وتجد الرقاق أنه دكان مرتفع عن الأرض بمقدار متر. انظر كيف يطل علينا وكأنه فوق منصة عرش. حباً كآله حسن. ثم زقاق آخر لا يطلع. وثان. ونحن في الثالث.

دخلنا الدار عبر مجاز طويل شبه مظلم لا أعرف لماذا ذكرني بسلم فندقي الضيق. ربما لأنني شعرت بنفس الرهبة. وتلمست الجدار نفس التلمس. وكان البيت أمامنا مستطيلاً مشمساً بهيجاً. مثل نهار صاح بعد ليل بهيم. نادى نوري «هدية!» فخرجت امرأة من لا مكان. ووقفت في المستطيل المشمس. قطعة سوداء لا شكل لها. قال لها ونحن نقترب منها:

– جئتك بابن لك. عوضاً عن ذلك الذي لم ... الدنيا. لا يهم أن تكوني بلا عباءة.

أهلاً وسهلاً به. كل البيت له.

كان البيت صغيراً مربع الشكل تقريباً. مكشوفاً للشمس إلا من الجهة التي جئت منها. رأيت إلى يميني ليواناً في داخله حجرة وإلى يساري حجرة أخرى مرتفعة عن الأرض لها شباكان. دعتنا هدية إلى الليوان الذي استخدم نصفه كمطبخ. تملأ النصف الآخر بتخت عريض بلا ظهر ولكن بتكئتين جانبيين. وكانت البطانة قماشة زاهية.

الشاي حضر

دقيقة ويحضر

هل تريد أن ترى حجرتك أولاً   هاهي

وأشار نوري إلى الحجرة التي كانت تقف على سرداب كما يبدو

صعدنا إليها درجتين من الخشب   وصرّ الباب حين دفعه   ورأيت حجرة كبيرة مضاءة بالشمس إضاءة رائعة   وفي الحجرة تبعثر بعض الأشياء   وفي ضلعها المقابل خشبة طويلة تبدو كباب قديم   منصوبة على أربع قوائم من الحجارة   وكانت تشبه السرير   أرض الحجرة جافة تلوح بلاطتها المربعة بارزة   لا بد أنها غسلت البارحة   ومن السقف المصفوف بالألواح يتدلى سلك كهربائي كانت نهايته خالية من المصباح

– هذه هي   واسعة

– لطيفة

أنا أنام فيها أحياناً   وذلك سريري   طبعاً أنت لا تنام على مثل هذا السرير – وضحك وتابع قوله – سأنقله من هنا مع الحاجيات الأخرى   وهذه العجلة تعود إلى أول سيارة اشتريتها سنة ٢٧   هل رأيت مثلها في حياتك؟ أنها من الخشب

وربت على الكاوتشوك الضيق الأملس   ودفع العجلة نحو الباب   التفت فرأيت هدية تنظر إلينا من تحت

يحيي راضي

نعم

ودعتنا المرأة إلى شرب الشاي

٣

جلسنا نشرب الشاي فقال نوري وقد مسح وجهه كله بباطن كفه

— ما كنت أتصور أن المسألة تتم بهذه السهولة

ولماذا يا عم نوري ؟

— أتريد الصدق ؟ لأنكم عنيدون شبان هذا الزمان لو وضعوكم في الجنة لما رضيتم

— الشباب شيء نسبي يا عم نوري هناك أناس يبدون هرمين ولو انهم في سن الشباب وهناك أولاد يبدون في سن الرجولة

شرب جرعة كبيرة من الشاي وقال

— كلامك صحيح من هذه الناحية عندما دخلت إلى الجيش لم يصدقوا أنني ابن الرابعة عشرة حسبوني رجلاً كبيراً وأرسلوني لأحارب في الكوت.
أنني ابن الرابعة عشرة حسبوني رجلاً كبيراً وأرسلوني لأحارب في الكوت

— في أي وقت هذا ؟

— زمن العصملي ولكنني هربت في الطريق وذهبت ماشياً إلى خانقين وهناك التقيت بالروس

— هل كان الروس في خانقين ؟

كانوا بلحاهم وشواربهم العريضة كل واحد بطول العمود لغتهم عجيبة غريبة بالخاء والشين

لا بد أنهم كانوا من الروس البيض

– بيض وشقر مثل الإنكليز وبعضهم أحمر مثل معجون الطماطة وشعورهم صهباء مثل أعراف الخيل

وبقيت هناك طويلاً

هربت أيضاً أرادوا أن يأخذوني معهم أو هذا ما قاله لي « نعمان الكن الذي كان يشغل « الباصات » الحساوية ما بين خانقين وقزرباط وكان يريدني أن أشتغل وراء « باص » حساوي ومن مندلي هربت إلى بلدروز بعد ذلك دخلت بغداد خفية وكان الإنكليز قد دخلوها قبلي

وقالت هدية وهي ترفع الأقداح الفارغة

– لو كان الروس أخذوك

رد عليها بافتخار

– كنت تزوجت كرجية

– أحسن مما تزوج سيارة

– مسحت يدي منك

أقصد أنت والمرحوم أبوك

والتفت إليّ وقال :

ـ كان أبوها يخاف من السيارة مثلما يخاف من الحية. وهو الذي منعني من السفر إلى الشعيبة عندما سمعت أن الإنكليز يدربون السواق هناك

قالت هدية وهي تقدم لنا الشاي على صينية ممسوحة القشرة

كان يعرف أنك تسير بدرب التعب والخسارة

ـ خاف أن أذهب إلى الشعبة وتخسر عريساً حلواً لابنته

وارتج القدح في يده من أثر الضحكة قالت هدية

ـ فحط

لماذا تريدين أن أفتح الدفاتر القديمة ؟

ـ أنت الذي أردت

ـ أنت وعلى العموم هذه قسمة ونصيب والسيارات جاءت إلى بغداد ، سيد كريم ومن يقدر يمسكني بعد ؟ ذهبت إلى ذاك الصوب لاتفرج عليها كانت عجبة العجائب حصان حديد كما تقول البدو وعربانة من غير خيل كما يقول أهل بغداد عربانة مريحة تجلس فيها على مقعد مريح وأمامك شيء مدور ونلعب بهذا وتجر ذلك وتدير هندرا في صوبها فتبربر وتشتغل وقررت أن أصير سائقاً وبالخفاء كنت أذهب إلى ذاك الصوب أتدرب عند الإنكليز كانوا يحتاجون إلى سواق وقضيت ستة أشهر أتدرب حتى عرفت التارية والكويل والديلكو والسيلف وألقيت بمبا والسلندرات كل شيء كل شيء حتى أخذت إجازة رقم ٦ ولما طلع الإنكليز أخذت أصلح السيارات

بهاده اا ... انتشرت السيارات .

لا   حتى رئيس الوزراء لم يكن يمتلك سيارة   كل السيارات طلعت من تحت يدي   عندما انتهت الحرب   واستمر كل شيء ترك الإنكليز السيارات السكراب مرمية في الخرابة التي يقع عليها بريد الباب الشرقي الآن فذهبت أنا واثنان آخران   وأخذنا نصلح هذه السيارات. نضع شيئاً على شيء ونصبغها بالصبغ الأسود   ونجعلها تسير   حتى أصلحنا ثلاث سيارات تهز بغداد هزاً

قالت هدية

عيني   داخ الولد من الكلام

الفصل السادس

ـ ١

غرفة عملي صغيرة تبدو مريحة للوهلة الأولى وأنيقة وغاية في البرجوازية تبردها برادة تضج ضجيجاً قتالا وتشعرني وكأنني في طائرة وعلى نافذتيها سدالتان من أشرطة البلاستيك الأخضر تحجبان نور الشمس اللاهب فنستعيض عنه بضوء كهربائي وأنا أجلس إلى منضدة صفراء مصقولة موضوعة وسط الغرفة محاطاً بقوم غرباء علي يضجون ضجيج البرادة

إلى يميني داود وهو شاب أصلع مستدير الرأس ذو عينين صغيرتين وأنف أصفر وشفتين رقيقتين نديتين يثرثر بهما دون انقطاع ويبدأ جملته بتشكك مسموم « لا تصدق ويشير بكف مشعرة ضخمة يبرز منها القلم كمدفع مضاد للطائرات

وماجدة وآه من ماجدة أنها قطعة مركزة من الأنوثة نشقة مخدرة منها كل شيء فيها لذيذ قابل لأن يؤكل أو تمرر عليه الشفاه صوبها. عيناها الواسعتان بأهدابهما الطويلة الشبيهة بأهداب منديل حريري وأنفها الطويل الذي يطل جباراً كأسد بابل من فوق فم رقيق مغر وكأنه حراسة مشددة عليه ونهداها الشبيهان بثمرتي كمثرى ناضجة ريانة ، وأصابعها الرقيقة الطويلة

كبعض حلوى الأطفال أصابعها التي لا أعرف كيف تتحمل أطرافها النقر على مفاتيح الآلة الكاتبة وكيف تصوبها على تلك العيون السود ولا تتأود أو تتقصف كانت ماجدة الحلوى تضحك من كل النكات الحارة والباردة من كل الملاحظات السديدة والتافهة من كل الأخبار المفرحة والمأساوية، ومني ومنك ومن الآلة والشياطين ومن كونها تعمل معنا كاتبة طابعة لا سيدة صالون ومن كونها تضحك بعد تنهيدة تعب أو ضجر

وآمنة الصغيرة الرقيقة الرزينة رزانة امرأة يئست من عودة شبابها كان لها جسم مصمر وشفتان مكبرتان بلون النار المضطرمة وعينان كبيرتان تنفذان إلى الأعماق بشعتها السوداء كالحرير الأسود

وكل ذلك في غرفة ضيقة أربعة أشخاص وأربع مناضد وطابعتان ومبردة تشعرك بأن رأسك يوشك أن ينفجر

أمسكت بشريط الأخبار الشبيه بورقة النسب التي جلبها لي أعمامي من بهرزة وأخذت أترجم خبر «ما يزال الجزائريون يتصيدون الأشخاص المتعاونين مع السلطات الفرنسية وقد ذكر ليلة أمس

كفت الطابعة عن النقر وسمعت صوت آمنة

تعرف فعت أسي فرأيتها خاطبي أن لك خطاً أوضح من خط داود

رددت بالشكر وقال داود «لا تصدق

لا صحيح أن خطك جميل

لا س ارتبكت وتوقفت عن الترجمة — لقد تغير خطي الآن

ولكن أساتذتي في الكلية شبهوه بالمطر النازل في وجه ريح قوية كان ذلك في الماضي في العهد البائد عندما كنت شاباً

ضحكة مشحونة بتيار عال من الأنوثة التفت فرأيت صفاً لؤلؤياً من الأسنان

– وأنت الآن عجوز ؟

رد داود عمي

لا تصدّقاه كل الذين يريدون أن يؤكدوا على شبابهم يزعمون أنهم شاخوا لينفوا الشيخوخة عنهم

– ولكنها حقيقة

لا أصدق أسكت عمي
– ها قد اعترفت بأنني عمك

وتقلصت عيناه ساحبتين معهما الجلد المحيط بهما ولم يقتنع بحجتي وصمتنا وفي سرّي تلذذت ببقايا ضحكة ماجدة الفاترة ماذا سيكون نصيبي معها لو كانت زوجتي هل ستكون بهذه الشفافية والفتور والرقة الحاملة ثم لمت نفسي على هذا التصور الأرعن لن يكون عالمها الزوجي مزدحماً بهذا القدر من الهموم لأنها لن تكون زوجتي بل ستتزوج شاباً أقل هموماً وأنظف جسداً وأخف روحاً فلماذا أقيس الأمور على منوالي ؟

أكملت الخبر وترجمت آخر عن موتمر وزراء الخارجية الغربية في جنيف. مر أسبوعه الخامس دون أن يثمر شيئاً. وعن أديناور يبدو أنه يريد أن يكون خليفة هتلر ولكن لا في ظروف هتلر ولا في عصره . . .

وفجأة حرك داود كرسيه بقوة جعلت هدا ونهدت من ماجدة هه ! مذعورة ولكنها ضحكت وقالت « خفت ناعمة كالريش.
قال داود. وكان عند المبردة أدار المفتاح ليوقفها وبربر المحرك بربرة تنازلية انتهت بصمت ووشوشة في الآذان كفت ماجدة عن النقر ووضعت يديها البضتين على أذنيها. واتلعت صدرها حتى برزت الكمثرتان من وراء ثوبها الضبابي الرقيق حتى كادتا تسقطان من على الجذع. وضحكت حتى قبل أن يقول داود

أنها تذكرني بماكنة الطحين

أنا فتذكرني بالطائرة

أوه ارستقراطية ! ومع ذلك فهي توحي بالقلق

قالت آمنة بلهجتها القطعية المتزنة

داود يفصح عن نفسه البارحة كان يقول لي أنه قلق جداً ألم تقل يا داود

صمت داود وضحكت ماجدة

قلق سطحي

إنه قلق على العموم فلا تهاجم الناس

— لم أهاجم بل تذكرت هذا القول في كتاب عن علم النفس « دع القلق وأبدأ الحياة

قلت وكأنما أقنع نفسي

ها أنذا أبدأ بها انظر إلى أصابعي ملطخة بحبرها

وبسطت له أصابعي وقد انطرح القلم عليها هز داود رأسه فرأيت التماع الضوء على جبينه العريض وخط الحاجبين الشبيهين بالفرشاة وحين أدرت رأسي رأيت الكمثرتين تهتزان على نقر الآلة الكاتبة قبضت على القلم بأصابعي وأخذت أقلبه كالدمية سألني داود مصالحاً

— هل استعصت عليك كلمة ؟

لا ولكنني أفكر في الصياغة لتنشر بالجرائد على نحو أحسن

بمناسبة الجرائد هل قرأتم الإيضاح الذي نشرته « الأهالي » ؟

كفت ماجدة عن النقر وجمدت الكمثرتان رأيت إنساني عينيها الأسودين متجهين نحو داود هزّ داود رأسه قبل أن يقول

— كان بالشكل التالي ذكرت بعض الصحف أن والدي المدعو فلان قد اعتدى على الفلاح المدعو علان مع أن والدي قد توفي قبل الثورة بأربعة أعوام فكيف يتمكن الموتى من مغادرة قبورهم وإطلاق النار على الأحياء ؟

ضحكت ماجدة ضحكة استفزازية وصرخت آمنة

— وماذا تريد أن تقول بذلك ؟

— نقلت الخبر المضحك دون تعليق

— تريد به أن تنكر أن هناك قاتلا ومقتولاً

— أنا لا أنكر ذلك ولكن من القاتل ومن المقتول ؟ تلك هي المسألة وضحك ضحكة رنت رعناء خبيثة وكأنها ضحكة في مأتم وبدا على

آمنة انفعال وكدر وخشخشت بالورق ثم اختارت منه ورقة بسبب مجهول وأخذت تطبعها قبل غيرها كان الخبر مكتوباً بخط يدي

إمتص الصمت الضحكة كالإسفنجة وتعلق في الهواء ثقيلاً تتضخم فيه دقات الآلة الكاتبة وخشخشة الورق فتهتز لها الأعصاب كان الصمت خانقاً وكأننا نسير في سرداب نهض داود وأدار المبردة ثانية وسط ضحكة ماجدة المكتومة وقالت ماجدة

إنها مثل الماكنة التي ترص بها الطرق

قال داود مرة أخرى

إنها تذكرني بماكنة الطحين في محلتي كانت تبتلع أسوأ الشتائم والأفكار الضجيج خير طريقة لطرد عصافير الأفكار الوديعة

قالت آمنة نصف باسمة

أنت يا داود تثير المشاكل سواء في الصمت الضجيج

قال يطمئنها

— ستتخلصين من داود بعد أيام فتتمتعين بالصمت والضجيج وحدك. ألا يلائمك

لا أدري كيف يستطيع داود أن يهجم ويتكلم في آن واحد تلك هي العبقرية

وكانت هذه الجملة مفتاح المصالحة .في آخر العمل اتفقنا على أن نتعشى في بوفيه الجمهورية في ساحة التحرير قبلت آمنة أن تلحق بنا لأنها متحررة من أبيها الليلة بينما اعتذرت الأنثى الضاحكة لأنها تنتظر ضيوفاً في البيت .

سرنا عبر بستان مظلم تتفرق فيه النخيل كالنواطير وكان لأقدامنا وقع هش لين شممت غباراً ورائحة كرب دافئة مسترخية وعندما خرجنا إلى منطقة النور سألت داود

هل ستتركنا يا داود

سأنتقل إلى الوجبة الصباحية

وأبقى وحدي ؟

سيشتغل معك شخص آخر من الأردن

— ٢ —

جلسنا في بوفيه الجمهورية متقابلين على مقعدين مرتفعين وأمامنا صحنان من حساء العدس قررنا أن نتناولهما قبل مجيء آمنة التي قال داود عنها أنها لا تحب الشوربة كان ضجيج السيارات ومحروقاتها يترامى الينا من الخارج ويطوق أسماعنا وأنوفنا ويضيف إلى الحساء نكهة جديدة غريبة عليه إلا أنني شعرت بارتياح وكأنني خرجت من طوق كان يشد رحبي ويدي قلت لداود

كان يوماً صاخباً

— ستتعود

لا أتحمل العمل وسط الصخب

— ستتحمل ربما ذلك من أثر الغربة فالعراقيون يولدون ويموتون في الصخب . ماذا عندهم غير لصخب .

ورفع داود جذعه مرتين على إيقاع جملته الأخيرة ثم انكب ثانية على الحساء وكأنه يجاري صخب الشارع وتساءلت مع نفسي على أي قدر من الصخب والعنف ينطوي داود ؟ إلى الحد الذي بدا لي منه اليوم أم أكثر من ذلك ؟ كان يبدو أمامي ككتلة غامضة آلة غريبة تضج بحركة داخلية مفاجئة وكأنها تراكم أشياء غير منظورة ثم يهمد لأسباب مجهولة أيضاً وهي الآن منكبة على حساء العدس ترتشف بصخب وكأنها تمارس عنفاً مكتوماً وفجأة أوقف داود الملعقة في منتصف الطريق إلى فمه وقال وكأنه يتابع أفكاره بصوت مسموع

هل صدقت آمنة حين قالت انني قلق ؟ ترمي الناس بالتهم الكاذبة متظاهرة بالصلابة وقوة الأعصاب ولكن أنظر الى عينيها بإمعان تراهما نديتين بالدمع

القلق ليس عاراً

لا تصدق لا تصدق ماتقوله أية امرأة اليوم اتهمتني بالقلق بينما هي نفسها القلق بعينه ولماذا أقلق أنا ؟ مجرد فلتة لسان لأنني قلت البارحة لا أدري بأية كلية أدخل كانت أمامي مشكلة إختيار الكلية التي أريد أن أدخلها وأنهيت المسألة بتفكير منطقي قلت لنفسي أبعد الطب والصيدلة والهندسة عن تفكيرك لأنك في سن وظروف لا تسمح لك بالدخول اليها وأبعد التربية والآداب لأنك لا أن تكون معلماً فماذا بقي ؟ الحقوق والتجارة وساختار واحدة منهما ولتكن الحقوق في الوقت الحاضر

إذن كانت لم تدخل الكلية بعد

في هذا العام خرجت من ألا تصدق

أصدق . أنا أيضاً لم أكمل دراستي

وأدار رأسه نحو الشارع وكأنما لفتت سمعه منبهات السيارات حدقت برأسه المستدير الذي بدا وكأنه لا يصلح لطالب مستجد ولا حتى لأن يتقن الإنكليزية

أين تعلمت الإنكليزية يا داود

لم أذهب إلى الخارج لأتعلمها بل تعلمتها ذاتياً تدرجت من كتب أكسفورد الصغيرة إلى مختصر تاريخ العالم لويلز كنت أفترش الأرض أو أجلس على درجة من درجات السلم وأتخذه مقعداً وركبتي منضدة وأكب على مختصر تاريخ العالم » أو الآمال الكبيرة » لديكنز وأسجل الكلمات في دفتر صغير كان خالي قد اشتراه لتسجيل الحسابات كان ولعي بالإنكليزية جنوناً كاد يفقدني رضا خالي أعز إنسان في الدنيا علي

وأمال الصحن واغترف الملعقتين الأخيرتين منه قلت
للمعرفة نوبات غريبة تجتاح الإنسان
يمكنك أن تقول ذلك

وأشار داود برأسه إلى الشارع هامساً جاءت صاحبتنا
إلتفت فرأيت آمنة تخرج من سيارة الوكالة الصغيرة توهج ثوبها الأحمر في الضوء وعندما سارت إكتشفت شبهاً آخر لها بفتاتي . مشيتها مشية طالبة مدرسة وحين راحت تقترب من البوفيه تذكرت وكأن وميضاً لمع في ذاكرتي كيف كانت فتاتي تقبل علي وأنا جالس في مقهى أو واقف عند محطة باص ..وكنت أتعمد أن لا إتلفت لأثبت لنفسي أن علاقتها بي أقوى من كل قلق وتشكك في عدم المجيء ..وكانت هي تلوح من بعيد صغيرة ملمومة على نفسها ثم تكبر وتكبر حتى تسد علي مجال بصري وهي الصغيرة المصغرة من امرأة .

دائماً جانبها وتتعاطف معها

وصلت عتبة البوفيه قبل أن أجيب   استقبلها داود بقوله

متنا جوعاً   ونحن في انتظارك

متأسفة   ولكن أمامكما صحنين فارغين   أحدهما لا يحتاج إلى غسيل

طلبت آمنة معكرونة بالفرن   واشتهيت أنا هذه الأكلة التي كنت اتناولها واقفاً في زقاق متفرع من شارع سليمان باشا في القاهرة   وفضّل داود تناول مع الفاصوليا

قالت آمنة

تركت ماجدة وحدها لتصلح الستنسلات

قال داود

دعيها تلطخ أصابعها وتدبغها قليلاً حتى تستطيع أن تغسل ثياب زوجها فيما بعد

قالت آمنة

كل امرأة تكيف نفسها بعد الزواج

إلا أن داود همس في أذني وقد ذهبنا لتسلم أطباق الطعام

لا تصدق   لا أظن أن ماجدة ستغسل ثياب زوجها مكتفية بأعباء الزواج التي تتم وهي قاعدة أو مستلقية   إنها باردة

خيل إليّ أن آمنة سمعتنا فقد قالت ونحن نضع الصحون على المنضدة المرتفعة

أرجو أن لا تكون المعكرونة باردة

كانت قشرها قاسية مثل قشرة شمامة ولكن المعكرونة نفسها كانت حارة لذيذة كالبالوذة سألتني آمنة

هل أعجبك الشغل عندنا

أعجبني

لا تصدقي قبل دقائق كان يتحدث عن الفوضى

قالت آمنة

– الفوضى موجودة في كل مكان

أها إذن فأنت ضد الذين يتمولون المواطنون ينعمون بالهدوء والإستقرار

لا أنا ضدك لأنك ضد كل شيء

يؤسفني يا آمنة أنك لا تفهمينني

أنت ضد القانون

•

القانون الذي سأدرسه لا يحل ولا يربط إنه يفسر تفسيرات مختلفة. القرآن نفسه فسر تفسيرات مختلفة .

قالت آمنة :

أرجوك يا داود لا داعي إلى الفلسفة

هذه بديهيات يا آنسة

ـ دعنا نتمسك ببديهية واحدة الآن أن نأكل والأعصاب هادئة

خوفاً من قرحة المعدة ؟ هذا حقك

كانت آمنة تنظر إلى الشارع وقد جزع التوتر وجهها ظهرت ملامح وجهها بخطوط واضحة وامتلأت شفتاها بالدم وبدا لي أنني ألمح قطرات عرق خفيفة على جبينها دخل البوفيه صبي أعرج ينادي على لبانه كان زري الهيئة قذر الوجه حافياً ينادي على بضاعة أمريكية ملفوفة بالسيلوفان قال داود للبائع

ـ كان عليك أن تغسل يديك على الأقل لترويج بضاعتك

قال البائع

ـ ليس هذا وسخاً هذا مثلك

ـ لا أصدق

وضحكنا وابتسمت آمنة وسألته

ـ لماذا تعذب نفسك يا داوذ ؟

ـ لأنني أريد أن أقول الحق

ـ لا تتعذب بالشكوك والظنون

ـ ليست هذه شكوكاً لو وضعت يديه تحت الحنفية لخرج منها ماء أسود

وقد لا يخرج

أنا لا أتعامل مع قد

تلك هي المشكلة لأنك قاس

لأنني أريد أن أكتشف الحقيقة بينما أنت لينة أكثر من اللازم ربما لأنك امرأة

أشكرك كاف

حفرت وجهها خطوط حادة لا أقسى منها ورأيت في ابتسامة داود عرياً فاضحاً وكأنما سقطت عنه أسنان اصطناعية كانت تنتظم في فمه

— ٣

وعندما بقيت وحيداً هرعت إلى الجندول وقد تشبع ذهني بالذكرى كالإسفنجة يقولون أن الحيوانات ذات الخلية الواحدة هي وحدها التي تعيش في دائرة ضيقة من الحاضر وكلما ارتقى الكائن وتعقد صار له ماض وذاكرة، واتسعت دائرة وعيه للأشياء حتى أن ذهن الإنسان مخزن عجيب من عاديات الزمان الماضي منجم لا ينضب من الذكريات وها أنا مع الذكرى حنثت بعهدي مرة أخرى واسترسلت مع تيار الذكرى أم الذكرى هي التي طفحت من مسامات جسدي كالعرق ساحبة معها شيئاً من حشاشة روحي. حاصرتني الذكرى كالحمى وعلكت أعصابي علكاً كانت البيرة تتحول في دماغي إلى ذكرى لماذا مثلت ذلك الدور معها ؟ كانت رصينة هادئة وهي تسرد علي حقائق حياتها وكأنني غريب لا علاقة لي بها كنا في مطعم على ما أذكر نعم في ذلك المطعم الأمبراطوري كانت تأكل وتبكي فمها مملوء بالطعام وعيناها مغرورقتان بالدموع وأصابعها الصغيرة

المرتجفة ترفع الطعام إلى فمها والمناديل إلى انفها .ما كان لك ان تكوني قاسية معي على هذا النحو أنا لم أسيء إليك في شيء

تلك حقائق حياتي غير القابلة للتغيير

ولماذا لم تقوليها لي منذ البداية ؟

– قلتها لك أتذكر يوم كنت على ظهر السفينة في الجنوب

كان كل شيء يبدو خيالياً كالحلم الرحلة والسفينة والمدن التي مررنا بها والأشجار والناس وهي مغلفة بأثواب أثيرية لا تمس ولا تمسك باليد ولا تُقتنى وكنت كالنائم المستسلم إلى حلم لذيذ ومثلما في الحلم أيضاً قد تتلقى مساءة من أروع ما حلمت به كأن تحلم بأنك تقبل فتاة جميلة ثم تتبين فجأة أن الذي بين ذراعيك ما هو إلا ثوب فارغ أو سعلاة

إذن لنفترق

أم كيف قلت لها عندئذ ؟ لا أتذكر بالضبط ولكن أتذكر التعبير الذي ارتسم على وجهها الإنقطاع الإستكانة البراءة من شيء لم تشارك فيه بوعي حتى قلت لنفسي إنها تزال تخدعني لم ترد عليّ بشيء صمتها الأخرس هو شاهد البراءة الوحيد ثم أطرقت برأسها وواصلت تناول طعامها وتقمصتني حالة من الرهبنة ضغطت على أعصابي وحدقت بها هل جفّ لعابها لتلوك اللقمة هذه المدة الطويلة ؟ والصمت يقطر الماء البارد تحت ثيابي قلت لها متشعراً لنفترق يا صغيرتي لنفترق ولم تتحرك أيضاً مع هذه الكلمة الرهيبة انتهى الفلم الذي مثلنا فيه دور بطلين في رحلة رومانتيكية الى الجنوب واراحني سلوكها لحظة او نطقت لخرجت كل كلمة من فمها جارحة كالموسى من الخير أن ألملم مسوح الفضيلة ،

وأنسحب كالمؤمن المنتصر أو المهزوم نضرب مثلاً رائعاً في النبل ودماثة الخلق. لمن؟ للإنسانية كلها. وأضابير الأخلاق. لنفسي بوه! ما اكبرها! سأتدفأ أو أعرق بها ثم يأتي الندم كصداع مزمن أو ربما لم يكن كل ذلك إلا بطولة كاذبة إلا الخوف والدفاع عن النفس ضد خطر داهم سيتعقبني ؛ يترصدني في غدوي ورواحي أنا الآن في علاقة غير مريحة علاقة سرية خارجة عن العرف والقانون من الخير ان اطوي اشرعة عواطفي التي نشرتها مرتاحاً عندما هبت أول نسمة كذوب. في طريق حياتي

ـ مع السلامة... هذا خير لي ولك أليس كذلك ؟ قولي لي تكلمي! من الخير أن نقطع علاقتنا منذ الآن ستكون فاكهة «محرمة مهربة أليس كذلك ؟ اهوه ! لماذا لا تنطقين ؟ لا بأس حسناً دا ؟ مع السلامة سنكون صديقين منذ الآن إذا احتجت إليّ كلميني بالتلفون كانت لنا ذكريات حلوة. ثلاثة اسابيع من العمر سأنتظر هل انتظر

الفصل السابع

١

مرة أخرى أعدت ترتيب حجرتي دفعت السرير قليلاً إلى الوراء ووضعت المكتب أقرب إلى النافذة وغيرت موضع الحصان الأسود والمزهرية الحمراء التي قيل انها تعود إلى ما قبل مائة عام كانت وراء ظهري ، فوضعتها أمامي قرب الباب وحدقت إليها كزهرة متجمدة ثم خشيت أن ترتطم بها يدي في الليل وأنا أبحث عن مفتاح الضوء ويدي ليست دائماً ثابتة في الليل فوضعت المزهرية ورائي والحصان الأسود أمامي ولم يرق لي الوضع أيضاً، فقد أهب من تلك الأحلام المزعجة التي تنتابني ليلاً ويهتز سريري فتقع المزهرية على رأسي وأكون في خبر كان حملت المزهرية ووضعتها آمنة على الصندوق الذي تركته لي الخالة هدية لأستعمله قائلة كان هذا الصندوق يضم ملابس العرف وشاف ولايات من بغداد إلى الكوت والحي ومحيرجه والرفاعي وجصان والنعمانية

وبعد أن اطمأننت استلقيت على فراشي ورأيت الحصان الأسود قبالتي يكاد يثب علي ولم أخف الآنه مرسوم على ورقة طويلة كالقماشة ولكنه جديد علي على أية حال في غرفتي المطلة على مدرسة المغتربين لم يكن يقابلني حصان بل كان سريري يقابل الشباك فكنت أستطيع أن أرى قسماً من

ساحة اللعب وأنا مستلق على فراشي وأراقب الطلبة والطالبات في لعبهم وتصايحهم وقفزاتهم كنت أقضي أياماً أتابع سلوك بعضهم أتميزه من لون ملابسه وحركاته وأسجل في ذهني تصرفاته والعنصر الغالب فيها الميل إلى الأذى أو الجنوح إلى المصالحة وكسب الود حتى صرت أعرف الأصوات وأميز بين الضحكات والصيحات

حاولت أن أعدد الغرف التي سكنتها في حياتي أنا لا أذكر الغرفة التي ولدت فيها كانت أمي تقول أن لها أكبر سماية رأتها في حياتها ولكنني اذكر الغرفة التي سقطت عن درجها وأنا طفل وكانت لا ترتفع عن الأرض كثيراً فلم أمت أو أصب بأذى كبير ثم حجرتي التي عدت فلم أجدها كانت غرفة ضئيلة النور حافلة برائحة الرطوبة والتراب العفن والحشرات التي كانت تشاركني العيش فيها

وبعد ذلك بدأت سنوات الغربة . المتعددة الغرف كالخان غرفتي في رأس بيروت عند ماري الخياطة بشباكها العريض المطل على شرفة شقة أخرى زرع لي القدر فيها فتاة كالشحرورة كانت مولعة بطفل اسمه « مجدي » أو وجدي كانت لا تفتأ تناغيه ليل نهار وتداعبه وتتغنج له وترسل القبلات في الهواء وذات مرة غرت كثيراً وتضايقت من القبلات التي ترسل عبري إلى شخص آخر فقمت من سريري فجأة والشحرورة في حميا المناغاة وإرسال القبل وأطللت إلى الأسفل إلى مكان الطفل المحظوظ فلم أجد أحداً ثم غرفتي في الإمام الشافعي التي تطل على المرتفع الذي تقع فيه المقبرة وفي الليل كنت أسمع أصواتاً هي مزيج من أصوات الصراصير والكلاب والأنين والتوجعات وهي التي جعلتني أهرب من جوار الإمام وأسكن مصر الجديدة الحي الأرستقراطي الذي ربما كنت الجائع الوحيد فيه ثم غرفتي مع محسن بالدقي في عمارة كلها كارسينوهات ، وكل سكانها مزيفون

ما عداي ومحسناً ثم الغرفة التي تركها لي صديق مصري كان قد سافر إلى أهله في الأرياف طلباً لمؤونة الشتاء غرفة بائسة فيها طاولة غضنة في الجانب المقابل للسرير كنت ما أن أطفىء النور وأحاول التغلب على أفكاري المناهضة للنوم حتى يخرج فأر عفريت من مكان مجهول الى الطاولة ويطوف فيها مخربشاً باحثاً عن فتات الطعام متوقفاً هنا وهناك متلفتاً وموسوساً متلعاً رأسه كنت أداعبه أحياناً فأحدث صريراً في سريري فيختفي في لمح البصر ثم يعود بعد ذلك ولا تجدي معه حركاتي الكاذبة ولا تحرك رجفة في جسمه وحين أضيق به ذرعاً وأجد أنني قد خلوت به وقتاً كبيراً أطول من أية خلوة لي مع امرأة في حياتي كلها أرميه بفردة حذائي فيختفي نهائياً وأنام ثم الغرفة الضيقة التي استأجرتها في فينا بعشرة شلنات كانت مشرفة على بئر عميقة تكونها جدران العمارة الداخلية في الجهة التي تقع فيها مطابخ الشقق فكنت لا أفتأ أشم روائح الطهي والسجق المقلي والنبيذ المعتق والخل والبيرة وقشور الفاكهة ورائحة الكلاب وأطعمتها الخاصة ثم غرفتي هناك كانت الصغيرة تتضايق من شباكها بينما كنت أشعر بأنه نافذة رائعة تطل بي على الحياة الخارجية كنت أرتاح لها وأعب الهواء النقي منها وأتلقى الأصوات وأستقبل الشمس ولا سيما شمس الصيف التي كانت تستيقظ قبلي أحياناً أو توقظني معها وأحياناً أسبقها بعد ليلة مخمورة وأجلس على فراشي وحيداً أترقبها مثلما أترقب إنساناً وفياً حبيبة حلالاً ألمح ثوبها الأحمر يملأ الأفق مرة طلبت من الصغيرة أن تبيت معي لترى العين السحرية فقالت

– واللذان في البيت

وسممت كل أشواقي إلى شروق أو غروب إلى زهرة أو ثوب أحمر إلى أمل أو حنان إلى تحبير قطعة ورق أو تدخين لفافة تبغ أو إحتساء كأس خمرة .

وكنا قد تصالحنا أو عدنا إلى ذيلة الحب المحرّم بعد أن انقطعت عنها شهراً ممارساً أقوى الضغط على قلبي مرتدياً مسوح العفة المستعار إلتقيت بها مصادفة في فناء الدار والتقت عيوننا ومدّت إليّ يداً ندية حارة وكأنها قد هيأت لهذا الموعد من قبل وتصافحنا فجأة عند ذاك خيل إليّ أنني ما زلت في رحلة الجنوب وان كل شيء ما يزال عذباً سلساً حلالاً مبرءاً من كل إثم وبعد العمل دعوتها إلى غرفتي فقبلت وارتقينا السلم صامتين نخاف أن نتكلم فيحس الجيران بوجودنا عندئذ أحسست إحساساً آثماً وكأنني التقطت إمرأة من الشارع ولكن يا فتى حين أغلقت الباب وراءنا نسينا مشاكل العالم أوامره ونواهيه الخطأ والصواب جهنم والجنة دخلت الصغيرة ولما رأت الغرفة هبها شباكها من النظرة الأولى وقفت منزوية عند الباب لا تستطيع أن تدخل وتستحي أن تطلب إغلاق الشباك وفيما بعد حاولت أن تقفز من السرير حين سمعت أصواتاً تحتنا قريبة جداً منا أمسكت يدها وقلت

لا تخافي لا أحد

ونهضتُ وأطللتُ من نافذة غرفتي الحديدة ورأيت العم نوري يتناول طعامه في الليوان

٢

قال لي نوري حين هبطت درجات غرفتي

تفضّل وتغدّ معي

سبقتني الخالة هدية بالقول

توسلت اليه أن يتغدى فلم يقبل

شكرتها وشكرته وقلت أنني تناولت غذائي قال نوري

– ستندم إذا لم تأكل طعام هدية فهي طباخة ماهرة إذا ذاق الإنسان طعامها مرة عاد اليه مرات

ضحكت الخالة هدية من كل قلبها وقالت

– الطبيخ طبيخ في كل مكان

– لا أنت تطبخين عال العال أنت ومطعم واحد في العزيزية أشهد بالله أنه يطبخ عال العال كنت لا أستطيع أن أمر بالعزيزية دون أن آكل منه كانت « عينه كريمة » ولكنه يطبخ أحسن من عشرة من المفتحين

ولم أكن أعرف ما تعني عينه كريمة فتصورته كريماً إلا أن نوري قال لي المعنى المقصود ثم قال

– كنت أتوقف وأتغدى عنده حتماً وإن كنت أنقل جنازة

– إلى أين تنقلها ؟

– إلى النجف الموتى أول الذين ركبوا السيارات وهم الذين جعلوا للسيارات سوقاً رائجة .وإلا لظلت الناس على خوفهم منها ولبارت كانت الجنائز تنقل على الدواب إلى المسيب ومن المسيب بالمشاحيف إلى النجف. ويستغرق الطريق أسبوعاً كاملاً فاذا كان ذلك صيفاً جافت الجثة وانتفخت وانفجرت في الطريق مثل إطار السيارة فجاءت السيارات نعمة للأحياء والأموات أخذت الجثة تنقل إلى النجف في يوم واحد نخرج منذ الفجر وقد نقضي ليلة في المسيب ونزورها كربلاء ثم نصل إلى النجف في اليوم التالي والجنازة سالمة ، والأهل ما زال عندهم حيل ليبكوا على الميت

ولكن الخروج إلى النجف كان مجازفة لأن الطريق وعر غير مأمون ولكن كنا نجازف لأن الجنائز كانت رزقاً وفيراً كل كروه تصل إلى ثلث قيمة السيارة

– بهذا الرخص كانت السيارة

ومن كان يشتريها في ذلك الوقت ؟ كان ركوب السيارة في تلك الأيام أصعب من عملية مصران الأعور في هذه الأيام في سنة ٢٧ جاءت سيارتان جديدتان إلى بيت اللنج أول السيارات الجديدة كانتا موضوعتين في صندوقين من الخشب فذهبت مع رجل آخر لأشتريها أتذكر أن سعر السيارة كان ١٢٠٠ روبيه لم يتركونا نختار السيارة أي العين بل أشاروا إلى صندوق الخشب وقالوا ليختر كل واحد منكما سيارته وهي في صندوقها

ولكن شكل السيارة لونها ؟

كانت السيارات كلها بشكل واحد سوداء و«أم التنته» وفجأة رأيت حية تخرج من أحد الصندوقين فقلت أريد هذه السيارة وفتحنا الصندوق وكانت السيارة قاعدة على الـ نكات وقد شدت كلها إلا التنته والدواليب المصنوعة من الخشب البي اللامع شددت التنته والدواليب، ووضعت البنزين والدهن والماء واشتغل الديلكو ومشت وفي اليوم الثالث أو الرابع نقلت جنازة إلى النجف بـ ٤٥٠ روبيه لأن السيارة جديدة، ومريحة لعظام الميت ومن النجف رجعت بكروة جماعة من التجار المستعجلين على بضاعتهم والمجازفين بحياتهم في سبيل الفلوس ولا أطيلها عليك خلال شهر طلعت ثمن السيارة وزيادة كانت السيارة كنزاً

وأخذ العم نوري يأكل وانتهزت هدية فرصة سكوته فقالت متفجعة :

وين هذا الكنز ؟ ماذا حصلنا منه

رفع نوري رأسه وتابع كلامه وكأنه لم يسمعها

– كنت أنا والقائم مقام في مقام واحد كانت الحكومة تستعين بي حين يثور عليها العربان وعندما يلمح هؤلاء السيارة من بعيد يخافون ويفرون تاركين أطفالهم وحاجياتهم والقدور على النار كانت السيارة سعلاة بلاء مبرماً

قالت هدية

وهي الآن بلية سوداء

– لا الناس تعلمت الآن نصف ساعة تدوسين على الهورن والماشي ما يتحرك من طريق السيارة يخش تحت الدولاب وهي ماشية ويضرب على الجامالغ ويقول اسحقني وهسه تشوف عظامي سليمة

الناس تشيطنوا يا عم نوري راح يصعدون إلى القمر

ودهشت لأنه قال

– سيصعدون المهم الإرادة والله لا يحب الخائفين المترددين

– والسيارة أصبحت طرازاً قديماً للنقل أمام الطائرات مثل الحمال أمام الخيل

قال في حنق ظاهر

كرف الموت سيارات هذا اليوم تنك في تنك بالوجه مراية وبالظهر سلاية . . بينما كانت السيارات القديمة قوية . حديداً كانت عالية

وإذا انقلب مات جميع الركاب وهي سايمة وكانت حتاج إلى ذراعين قويتين لتدوير السكان كانت السيارة تحتاج إلى القوة وإلى العقل والشجاعة والإرادة قبل كل شيء والسواقين الأوائل تحدوا الموت وخشوا بمينه مثلما هو خش بعينهم ولم يخافوا وهم اللذين خطوا الطرق العراق ما كان فيه طريق نحن الذين اكتشفناها

قالت زوجته وقد رأت تأثره

كُلْ الآن وأرح معدتك

إلا أنه وضع قطعة الخبز التي اقتطعها من الرغيف وقال وكأنه يبدأ الحكاية بنفس جديد

في الزمن الأول لم تكن هناك طرق معبدة كنا نشق الطرق شقاً ونهتدي بها من آثار سياراتنا وأحياناً نتيه ولا نعرف الطريق ونظل أياماً في الصحراء نغطس في الرمال ونعسكر وحتى الطرق الترابية الواضحة لم تكن مأمونة كان السلاّبون يخرجون إلينا ويوقفون السيارة ويفعلون بالركاب الأفاعيل والسائق كان يجب أن يكون حكيماً ليعرف التصرف معهم وشجاعاً ليقاتلهم ولو بدون سلاح

وصمت وكأنه يتذكر حادثة ثم سأل

أنت سامع الجتة

قلت باسماً

الجتة كلمة معروفة

لا هاي بعدين صار معناها البايع ومخلص . ولكن في الحقيقة

أن الحتة قوم كانوا على طريق كركوك يلبسون الستر الطويلة من اللباد ، وسراويل عريضة وأحياناً بلا سراويل جته على قولك وكانت في أحزمتهم الخناجر الكردية الطويلة وليس لهم عمل غير سلب الناس سأروي لك هذه الحادثة وأذهب إلى شغلي هل تحب أن تسمع

أعلنت رغبتي بشغف وحذرتني هدية

راح يملأ رأسك بالكلام أنت لا تعرف نوري لما يشتهي الكلام قربه مفتوحة

في سنة ٢٧ كنا ننقل البضائع من بغداد إلى كركوك بالمناسبة في هذه السنة دخلت أول سيارة « شوفروليت » إلى العراق واشتراها شخص انقلبت فيه السيارة بعد ذلك

— قسمة

قسمة في هذه السنة كنا ننقل الملابس المستعملة إلى كركوك نضع بالاتها على الدوسه ونشدها بالحبال ونتسلق عليها إلى داخل السيارة ذات مرة كنا ننقل هذه البضاعة للتجار مع رجل من أهل « الفضل وكان طريق كركوك غير مأمون من دروب الصد ما رد هل تعرف درب الصد ما رد

أعرفه

— كان طريق كركوك أحد هذه الدروب وطريق عفج أيضاً والكوت المهم طلعنا من بغداد ووصلنا إلى بلدروز في العصر وجلسنا في مقهى نستريح ونتناول طعامنا. ثم أردنا أن نقضي الليلة هنا. وقلنا ذلك لصاحب

المقهى إلا أنه نصحنا بأن لا نفعل ذلك ولا نجازف بحياتنا لأن الجته يأتون في الليل حتماً ويكسرون سيارتنا ويقتلوننا .ولم يقدم لنا أية حماية ولا مساعدة إلا أنه قبل أخيراً أن يتركنا في المقهى مقهى فارغ مثل فؤاد أم موسى وبعد توسل ودهن اليد قبل أيضاً أن يكسر المقهى ويرفع بعض الأعمدة لندخل سيارتينا وذهب هو بعد أن سلمنا بندقيتين لنحمي أنفسنا قلت لصاحبي أخاف أن يتواطأ هذا الرجل مع اللصوص ويأتي معهم في الليل كما حصل لي مرة إلا أنه لم يأت سوء ظن وعلى أية حال بقينا سهرانين وراء التخت نترقب طول الليل ولم يأت أحد وفي اليوم التالي وصلنا إلى كركوك وفرح التجار بوصول بضاعتهم سالمة وأعطونا ما خسرناه وما دهنا به يد صاحب المقهى وزيادة

في طريق العودة حملنا « تبغاً صففت بالات التبغ على الدوسات وإلى الخلف وسرت متوكلاً على الله وقبل جسر الطاوغ إنتهى الماء العيب الوحيد في السيارات القديمة أنها بعكس البعير تعطش كل ١٥ كيلومتراً فنزلت أتزود بالماء وإذا بي أرى ثلاثة من «الجته» على مسافة عشرة أمتار مني. قلت لنفسي حانت منيتك يا نوري ؟ إذن فقد صدق جواد أبو هدية إذا وقفت ستقتل وإذا تحركت ستقتل أيضاً فأين أين تخلص من ملك الموت ؟ وفي الحال فضلت أن أسوق إذا كان لهؤلاء « الجته خيول وبنادق فان لي هذه السيارة المدرعة سرت بالسيارة وأخذ الخيالة يطاردونني إثنان يطلقان الرصاص من خلف فيرتطم والله ستار بجسم السيارة وببالات التبغ والآخر يطارد أمامي مي من بندقيته واضعاً إياها على كتفه يضع «الفشكة في البندقية مي من على كتفه «عامي شامي حتى تكسرت الزجاجة الأمامية وملأت وجهي ويدي بالجراح وجن جنوني فقررت أن أتخلص منه بأية وسيلة دست على البنزين إلى الآخر وشددت يديّ الداميتين على الستيرين « » . وراحت السيارة تهتز على الطريق الترابية

الوعرة مثل المرآة المرعوصة وكنت أعرف بأنها ستنقلب بي بين لحظة وأخرى ولكن «البلاّم» إذا مات على الشط وهو يبحث عن رزقه خير له من أن يموت في فراشه .واقتربت السيارة منه وأغمضت عيني حتى لا أرى المنظر وارتجت السيارة ومالت وقعدت مرة ثانية على عجلاتها فتحت عيني كان الطريق أمامي خالياً إلتفت فرأيت الخيال مطروحاً مع فرسه وسط الطريق ورائي أما الآخران فبعد أن رأيا مصير صاحبهما هربا وكأنما في يدي مدفع رشاش وصلت البلدة ورأيت السيارة منخوبة برصاص ولكن الله سلم «التايرات» فلم تصب بأذى

وقالت هدية

بدأت من جديد

نعم السيارة خربت ولكن أنا الذي يقدر أن يشتري ألف سيارة بقيت سالماً ألا يكفيك هذا

– وين راح الكد والتعب

وماذا يساوي الإنسان من غير كد وتعب ؟ الإنسان خلق كدوداً وكل شيء يعوض إلا خسارة النفس وما دام الإنسان يعيش يستطيع أن أن يخلق من اللاشيء أشياء وأشياء

– لكنك خسرت كل شيء

شوفي هدية أنت مع الأسف مجربة الإنسان يمر بأوقات يتساوى فيها الربح والخسارة حين تكون حياته نفسها معلقة بشعرة ذاك الوقت ما نفع الربح والخسارة ؟ أهلاً بالموت إذا جاء في الوقت المناسب ولكن الصعب أن يخسر الإنسان حياته في غير الأوان قبل أن يكمل الشيء الذي يريد أن يكمله ، وهو في منتصف الطريق لا هو في بغداد ولا في كركوك

٣

عدت إلى حجرتي   وأجلت فيها بصري   لم أدرِ ما أفعل   اليوم يوم جمعه   والوكالة معطلة   كنت على موعد مع مهدي عبد الصمد في الساعة السادسة ليتناقش معي في أمر عودتي إلى الدراسة   كان موعداً ثقيلاً   أُجر إليه جراً   بدأ مهدي يمارس نفوذه علي   كيف أعود .وقد وخط الشيب شعري ؟ ماذا سيقول الناس عني   قضى أعز سني حياته بالتسكع في طرق الفشل والخيبة، والآن جاء ليمارس خيبة جديدة   سيسألني الأستاذ   وأنا وسط مشاكل الحياة   عدّد لي استعمالات «حتّى   !   حتّى   حتام حتام وأنت ضائع   سيقول لي مهدي أمامك ثورة هائلة وأنت ما تزال ضائعاً كالماعز

حاولت أن أنسى هذا القلق بعض الوقت   تناولت كتاب ريمارك وقت للحب ووقت للموت   وحاولت أن أقرأ فيه   وكنت قد اشتريته من مطار زوريخ مع نصف زجاجة من الويسكي   وقد أتيت على الزجاجة وأنا في الطائرة الهندية التي نقلتني إلى بيروت – خلال خمس ساعات من الطيران ليلاً   أما الكتاب فلم أستطع أن آتي عليه   ها هو بين يدي ثقيلاً مكتنزاً   كعجوز ممتلئة في ثوب ابنتها   وعلى الغلاف ارنست غريبر الجندي المسرّح باجازة   وإلى جانبه حبيبته اليزابيث التي التقطها وسط الخرائب تبدو لذيذة في ثوبها الداخلي

وقرأت   وجدا مصطبة على علوة خلف الثكنة   كانت المصطبة بين شجرتي كستناء   ومن عليها كان بوسعك أن تشرف على المدينة كلها . لا ضوء في أي مكان ، كان النهر وحده يلمع في ضوء القمر .

فتح غريبر جاجره وملأ منها نصف قدح وشعب خمرة أرماتاغ كالعنبر السائل قدم القدح إلى اليزابيب وقال إشربيها إلى الآخر

ودخلت في سورة الرومانتيكية التي يتعشقها ريمارك وسط الدمار والأنقاض وهول المصير تجري قصة حب توهجه الخمرة وانقطاع الأمل وتداعي الحياة وزهدت من القراءة بعد صفحة واحدة فوضعت الكتاب على صدري وأنشأت أفكر في نوري. أهي قصة رومانتيكية أخرى عربدت سورتها ثم تلاشت مخلفة في القلب جراحاً لا تندمل ؟ لا لا أظن ذلك طريق الحياة. والحياة حين تتحول إلى ذكرى سلسبيلية دافئة تجري في عروق الإنسان عند الشيخوخة حتى تمده بالدفء أن الرواد والشيوخ الذين عاشوا حياة ممتلئة والكتاب في بعض الأحيان يملكون ما يقصونه وحتى شيخوختهم تبدو عند الفشل أيضاً مدفأة العظام بالذكريات أم لأن الفشل مولع بنبش الذكرى مثل ذلك الغراب الذي تعلم أن ينبش الأرض ليدفن شيئاً عزيزاً عليه والفاشلون تغشى الذكرى أبصارهم مثل نسيج عنكبوتي لجوج لا يستطيعون منه فكاكاً الذكريات تصحبهم كظل كثيف وعندما ينامون تضطجع معهم في فراشهم . وتوشوش في آذانهم توشوش

عنتر بن شداد عوض بن عنق

وشوش صوت هدية بالقرب مني رفعت جسمي فرأيتها تتناول صفيحة فارغة من تحت الشباك

— مي تتكلمين

لا أتكلم مع نفسي نوري يحسب نفسه عنتر بن شداد عوض بن عنق اللي يسمعها يقول حياته عدله مثل الميل في العين بس السوالف المكسره ما يحكيها . السوالف اللي جلبت له البليه وجعلته سائقاً عند الناس

بينما كان أول أصحاب السيارات في بغداد   لو كان عندك وقت لحكيت لك   سالفة   من سوالفه المكسرة

وضحكت ضحكة حزينة   وكأنها هي الأخرى صدى ذكرى عن فشل ما   نهضت من سريري   وتناولت الكتاب الذي سقط من صدري وبعد بضع دقائق كانت الخالة هدية تروي لي هذه السالفة من سوالف نوري المكسرة

كان ذلك منذ زمان   منذ أن كانت شابة تستحي من خيالها   ولا تعرف من أمور الدنيا شيئاً   وكان نوري يعمل بين الكوت وبغداد في سيارة « قمارة كالعروس   وكانت هي في بيت أهلها القديم في   صدر الدين   تنتظر مجيء نوري بقلب يخاف عليه أغوال الطريق   فقد كان ما يخطر وما لا يخطر على بال يحصل في ذلك الزمان   تسلب السيارات   أو تتعطل في العراء   أو تنقلب في ساقية   أو تأخذها الحكومة عنوة لتنقل جيشها   أو لا تدري ماذا بعد وذات يوم عند العصر طرق الباب فلبست عباءتها وخرجت لتفتحه   وإذا بالمحروس نوري يحمل   بقجه   و   وراءه   اللهم عاف   امرأة غريبة بيضاء مدورة الوجه سوداء العينين كالعجمية تلبس عباءة رجالية سلمت بلغة مكسرة   ودخلت وراءه   قال نوري وهو في البيت أنها إحدى المسافرات جاءت لترى زوجها المريض في مستشفى   المجيدية   وهي مسكينة وغريبة   وليس عندها مكان تنزل فيه   فعرضت عليها لتبقى عندنا في البيت   ولم تكن هدية تفهم من أمور الدنيا شيئاً   وقلبها صاف كماء العين فأشفقت عليها   وقالت لنفسها   كل شيء يحصل في هذه الدنيا   وقد تكون في مثل حالتها في إحدى سفرات نوري   فأفردوا لها حجرة في الطابق الثاني وفي اليوم التالي لم تذهب العجمية إلى زوجها في المستشفى   بل طلبت من هدية حفافة   فقالت هدية لنفسها   ربما تريد أن تتزوق وتسر زوجها وشمت هدية قفا يدها . وجلبت لها الحفافة . وذهبت معها إلى الحمام

وساعاتها لتزوق نفسها وفي كل يوم كانت تسأل نوري متى ستذهب هذه العجمية إلى زوجها ؟ فكان يقول لها إنهم لا يسمحون لها بزيارة المستشفى لأن زوجها في ردهة العمليات وحالته صعبة ولا يريدون أحداً أن يزعجه فتتألم هدية وتتركه يصعد الى العجمية يواسيها ويغيب هناك الساعة والساعتين ثم ينزل ويقول مسكينة عينها مثل ناقوط الحب وانها ستموت حزناً على زوجها إلا أن هدية تستشهد بالله على أنها لم ترَ يوماً دمعة في عينيها وأخيراً فطنت المرحومة أم نوري على هذه اللعبة ولكن بعد أن سافرت العجمية دون أن ترى زوجها

وبعد شهرين أو أربعة الله يعلم عادت هدية إلى بيتها القديم في الكوت فعلمت من جارتها وهي زوجة قصاب شهمة أن نوري استأجر لـ « ناقوط الحب » بيتاً وأثثه لها فذهبت هدية مع هذه الجارة إلى بيت العجمية و « كولي وين يوجعك حتى هرأ جسمها من شدة الضرب جسمها الأبيض البض مثل السمك المسكوف وأخذت هدية وزوجة القصاب تجمعان الحاجيات حتى السرير الحديدي فكتاه وحملتاه على حمالين والعجمية تقول « ينتظر يجي نوري ! » ولكن الله سلم ولم يأت لأنه سيكون مهروساً مثلها

وزعلت هدية وبقيت عندجارتها حتى جاء نوري من سفرته وكأن زوجة القصاب هي هدية ولكن بشراسة فكالت له بالصاع والذراع وهرأت جسمه بدبابيس شتائمها الحامية حتى أن هدية من عندها أشفقت عليه وخجل نوري واعترف بالحقيقة وقال والعهدة على الراوي أن هذه المرأة مسكينة لا أحد عندها وقد رآها في جصان فأشفق عليها وأكرمها وعندما سافر أمسكت بسيارته وقالت « إما أن تأخذني معك أو ألقي بنفسي تحت العجلات وخوفاً من الفضيحة ألبسها عباءته وجاء بها إلى بغداد

هذه هي إحدى سوالف نوري « المكسرة » .

الفصل الثامن

- ١ -

في الممر عرّفني مهدي عبد الصمد ببعض الطلبة

الأخ كريم اشترك معنا في اعتصام ٥٣

- وهو الآن مدرس مثلك في أحد الألوية ؟

- لم ينه دراسته بعد

ألم أقل لك أن حياة الطلبة حلوة ؟ فلماذا تريدونني أن أودي السنوات في مواعيدها ؟

- هو لم يكمل الدراسة لسبب آخر غير الرسوب وعلى أية حال لم تقم الثورة لمصلحة التنابلة

- قامت لمصلحة المظلومين والراسبين زحف

- الزحف كان في أول الثورة أما الآن فالسيادة للقانون

- الفوضى هي الأساس وهي البداية والقانون جاء لينظمها

. — .

الأخ كريم من زملائنا القدامى

لطيف سنستفيد منه

أنا قديم

لست كتاباً لتكون قديماً الإنسان لا يقدم

الإنسان كالخمرة يعتّق ولا يعتّق

الإنسان أثمن رأسمال في العالم

وكيف تجعل البعض يؤمنون بذلك ؟

سيؤمنون حين يجدون الحديدة حامية عندئذ يتذكرون حقوق الإنسان

—

الأخ كريم طالب مفصول في العهد البائد

ولا يزال

– لم تنحدر جمهوريتنا إلى هذا الدرك بعد

– ستنحدر يا سيد مهدي . ستنحدر هناك طالب في زنزانة الإعدام

سينتصر الشعب في آخر الأمر

لقد انتصر الشعب كم مرة سينتصر

الإنتصارات ملء المستقبل

آه من هذا المستقبل لو أمسكه بيدي .

قل لو أحلم به

البارحة حلمت بان الأخ مهدي أعاد لي كتابي

– أنا أعتذر   يا آنسة   أعتذر من كل قلبي

– عم يعتذر مهدي ؟

– أعتذر لأنني أعطيت الكتاب لغير صاحبته   كان عليّ أن أسلمه مع الشكر

– لا حاجة للإعتذار   يا أخ مهدي   الجمهورية كلها تسلم لغير أصحابها   بقي كتاب سلمى الهزيل ؟

– ليس العبرة في السمك والأناقة   يا خالد   هذه كتب فرنكلين

– لا تسخر منها   بعض أساتذتك يقرأونها

–   دلني عليهم   وسأعرف كيف أجعلهم يخجلون من أنفسهم

– يقولون أن ذلك للتغطية

– قبل ستة أشهر كانوا يتغطون « إتحاد الشعب »   والآن

– بجريدة « الثائر

– – – – –

– الأخ كريم من الطلبة المبعدين

– في العهد البائد   أم الآن ؟

– في العهد البائد من قبل وزير المعارف ، والآن من قبل نفسه

لا يا أخ كريم لماذا المبعدين الحقيقيين واحداً فتكون سبباً في شتم النظام مرة أخرى

أنا أحاول أن أرجعه إلى الكلية ولا يقبل

– سيقبل عندما تفرجه على البوفيه ويرى التقدم

– سنمر عليه أيضاً أما أنتم فواقفون في مركز استراتيجي

– نحن يا أخ مهدي نتمتع بنعم الخالق المجانية الهواء والشمس فهل ستحرمها علينا

– زلتم تتجادلون في الصوفية

– لا شيء ينقذ العالم غير التصوف لأن الصوفية غاية في التجرد

– التجرد من العادات المجمودة أيضاً ؟

– وأية عادات محمودة لنا ؟

– هذا هو التجميد بعينه جمدوا أنفسكم يا سادة

في الطريق إلى البوفيه سألني مهدي عن رأيي فقلت

أشعر برهبة

ستتعود وعندما دخلتها أول مرة شعرت بمس رهبة والغربة ولكن سرعان ما وجدت لي أصدقاء جدداً شعاري الدائم إذا وجدت ما تعمله وجدت من تصادفه هؤلاء الطلبة هل هم ؟ إنهم يمثلون عالماً كاملاً

ولكن المهم أن تكون لك لغة مشتركة معهم

– هذا ممكن على الخطوط العريضة

كما كان في الماضي

أسهل أحياناً وأصعب في أحيان أخرى بسبب التمزق والحساسية نحو المستقبل لا تنس أن الناس على العموم يزدادون حساسية في عهد الثورات.

ربما بسبب الخوف لأنهم يتصورون الموت قد اقترب منهم لم يقترب في أي وقت مضى

– في الثورات توهب الحياة لشعوب كاملة فلم الخوف من الموت

– والثورة لا تخيف

– إذا لم تكن إلى جانبها

في البوفيه قال مهدي

كان علينا أن نذهب إلى قسم التسجيل أولاً

– انتظر من قال لك أنني قبلت

– سيفوتك الوقت إذا لم تحزم أمرك بسرعة

– اسمع يا مهدي ! لا تضيق علي الخناق دعني أستريح أنا متضايق

– مم

– من شيء غير محدود أين القهوة ؟

– انتظر ..

ولما عاد مهدي بدا أكثر بشاشة وأصفى وجهاً رشفنا رشفات متتابعة من القهوة في مزاج اخر

قهوة مريحة

هل يعجبك البوفيه ؟

– لا يمكنك أن تقارنه بسردابنا القديم أكثر أناقة وأتخم بدخان السكائر أما نقل المحاضرات فعلى حاله على ما يبدو ذلك التقاعس الحلو

التقاعس عن أي شيء ؟

عن تسجيل ما يمليه الأستاذ أولاً بأول لأنك واثق من أنك ستخلو فيما بعد إلى كراسة منظمة جاهزة وربما أنيقة ومعطرة مكتوبة بخط أنثوي. فتحس وكأنك تخلو إلى صاحبتها خلوة نظيفة

نفس الإحساس الذي كان يخامر جاسماً كانت الكراسات بمثابة رسائل حرة متبادلة

– وهل كان يجد فيها شيئاً يخصه

كان يظن ذلك وكان ذلك أمله الحلو

إذن كنت تدفعه إلى الحب

الحب شيء جيد إذا لم يحول المحب إلى جبان

– وما المعيار في ذلك ؟

إذا فتح عينيه للتناقضات الطبقية فهو حب رائع

يعني انك تشجع الحب الفاشل

لا أشترط في الحب الفاشل المهم سلوك المحب

أخلاقي أم غيرأخلاقي ؟

– لا إنطوائي أم غير إنطوائي

– ولكن حبه كان يبدو مستحيلاً

ليس هناك حب مستحيل الا اذا كان من طرف واحد .

انا اسمع منك اشياء جيدة يا مهدي وكأنك احببت

لا الذين يفلسفون الحب غالباً ما يفشلون فيه

– كأنك قد جربت

لا والحي القيوم

– لماذا وانت غير انطوائي ؟

– لأنني فتحت عيني على التناقضات الطبقية قبل ان احب . عندئذ اخذت احلل كل شيء في دماغي وافكر

– الحب لا يحتاج الى تفسير سابق يأتي كالمرض في ساعات حرجة ، وانت غير مهيأ له

– هكذا ! نعم اكشف عن نفسك . هل مرضت بداء الحب ؟ حدثني اذن !

– ٢ –

فاض لساني فكشفت له عن مكنون نفسي لم اقل له ان ذلك بسبب سنين من الحرمان والجوع الى انثى . كنت اعرف رده مسبقاً ما رأيك

بالذين في السجون ونحن الطلقاء في عرف القانون ما رأيك فينا؟ قد نقضي العمر كله دون ان نقرب امرأة بالحلال تابعت التعابير التي تناهبت وجهه الاسف الحرج الخجل الخوف من التورط في مأزق في بلاد الآخرين الاستهانة الشعور بالسخف والتهويل العاطفي ولكنني قلت له

لم يكن ذلك في الحسبان يا مهدي لم يكن من مشاريعي في الغربة

– ولكنك وقعت

ربما اوافقك وقعت

– ولم تلتق بالنصف الآخر ؟

قلت لك ان ذلك كان في الجنوب منذ ثلاثة اعوام

– والناس ؟

لم اسأل رأيهم

تصرفاتك

اظنها كانت طبيعية

– المهم شعور الانسان ايضاً الم تجد حزاجة ؟

– في البداية نعم ولكني تعودت اصبحت المسألة اعتيادية هل اكشف لك عن عذاب الضمير ؟

الم تكونا تخافان من الاشباح ؟

لم نكن بتلك العلانية لم نشارك الناس في شوارعهم وعلاقاتهم العامة كنا نختار اقل الاماكن ازدحاماً ثم أنها طمأنتني الى انه لن يعود ، واذا عاد فهو شخص آخر

كانت واثقة من ذلك

وكان ابتعاده الطويل يجعلها تراجع ماضيها معه قصة

قصة حب مخدوع

– لم يكن هناك حب كانت تؤكد ذلك مجرد دعوة الى السينما ثم تم الامر

– ايحصل هذا في الدنيا ؟

يحصل .انت لا تعرف الظروف التي حدث فيها ذلك فلا تتهمني

– توضعها القدر في طريقك .

– انت تسخر مني

–لا ولكنه تورط لا لزوم له على اية حال

– إنها البقعة المضيئة الوحيدة في ليل الغربة الطويل أي شيء اعظم من ان تكسب الى جانبك قلباً لا سيما اذا كان قلب امرأة !

– اختلست لحظات سعيدة

– في صقيع الغربة القاسي

– يجب ان تعود الى الحياة

عدت وانا اعمل الآن في وكالة للانباء

– والكلية ؟

– كبرت عليها يا مهدي .. اصبح الاولاد ينادونني عمي

– هذه حجة ... مجرد انك لم تجد عالمك القديم الذي تعودت عليه

٣

وفي اللحظة التي فارقته فيها انتابني خجل وهوان حاد كنوبة جافة من الانهيار العصبي وكأنني حكيت له قصة تسولي في بلاد الآخرين وكنت استجدي خبز العطف هناك اتدفأ في مواقد لم اشارك في اشعال نارها ابسط يدي في خوف وارتجاف على نار لم توقد لي. أليس هذا هواناً؟ صعلكة تسكعاً؟ صعلوك خاوي اليدين خابي القلب مسحوق الفكر تسكعت بما فيه الكفاية. وزيادة على الكفاية والآن اتسكع في وطني ايضاً منبوذاً وبلا جذور كأنه نفذ الى اعماقي لم اجد عالمي القديم. أحق هذا؟ لم اجد اهلي. هذا صحيح ولكن البقية كلها ممددة بتشنجها القديم ام انه يعرف قصة اهلي؟ لم يكن يعرف، ولا كنت اريده ان يعرف عجيب انني اطالب الناس بأن يعرفوا ما لا اعرفه انا لا اعرف اين رحلوا وكأنني في صحراء العرب. والآن اعيش في بيت غريب في وطني واعيش نزيلاً في بيت ليس في جدرانه صدى ذكرياتي تماماً مثلما كنت في كل البلدان التي تسولت فيها طلباً للقمة خبز او نفس من دفء. تسكع؟ والى متى سيلاحقني هذا التسكع؟ وكأنني قطة من قطط بغداد الوحشية تقفز عليك في الظلام كالعفريت، خارجة من قمامة كانت تنبش فيها مثلما انبش انا في ذاكرتي باحثاً عن طعام لروحي الجائعة ولأنني مطرود من مائدة الحياة فسأظل اعيش على قمامة الذكرى، مغموراً في الليل ملفوفاً بسراويله كأنما اختفي من جريمة لا استطيع ان اواجه فيها نور الشمس دائم البحث عن قمامة أتغذى فيها عن خمارة تطفيء ظمأي الصحراوي انبش عن ذكرى القتها الحياة في مزبلتها مزبلة والى متى تعيش على المزابل؟ تجعل مهدي يقرعك وكأنك يتيم اتى ذنباً يجب ان تندمج يا كريم هذه هي الحياة تتفتح امامك فاندمج اندمج واقلق مع القلق العام تحمس لما يتحمسون صحيح انك لم فجر الثورة ولم تعش لحظاتها الحارة الاولى ولكن الخبز لا

يوكل حاراً فقط انت الآن في الثورة وهي ما تزال حية لم تمت ما تزال تتفتح كل يوم عن شيء جديد ، قبيح او جميل ولكن جديد

ولأول مرة بعد ان يلحق بي اذى نفسي لم استجر بخمارة بل ذهبت الى غرفتي في حمام المالح رأيت هدية تجلس على الارض تقطع الباذنجان رجلاها ممدودتان على الارض والصحن الكبير بينهما ياهلا بابي ! واستقبلتني بترحاب وقدمت لي قمع باذنجانة ريانة وقالت تذكر كلام نوري لما جاء بك الى هنا اول مرة ؟ جبت لك ابنك اللي كان لازم يجي للدنيا تذكر لو ما تذكر ؟ لا تتذكر ؟ اما هي فقد تذكرت لم يكن كلام نوري مصادفة ، بل اشارة لقصة حزينة ، تبكي العيون التي لا تبكي وتحسرت هدية ورفعت عينيها اليّ ودعتني للجلوس لتقص علي القصة

اقعد احكي لك على اللي كان سلطان اللي كان يصول ويجول شاب وعنده سيارة بذاك الوقت ومن يحمله ؟ الدنيا كلها له اما هي فكانت مظلومة كل عمرها قضته بالاه والونه شابة ومحبوسة في بيتها كان نوري يغيب غيباته الطويلة يخرج في سفر لا يرجع الا بعد اسبوع وهي لا علم ولا خبر تحمس وتتكرطم مثل اللحمة على نار خفيفة كم شقت وكم تعذبت ! كل النساء المتزوجات . كل النساء الي خلقهن الله اذا هودر الليل يجدن امامهن رجالهن كل امرأة وزوجها يغلق الباب عليها وهي في حجرها آمنة اما هي فوحدها في البيت الكبير والحيطان توصوص والكلاب تنبح من بعيد . والنوم لا يراود جفنيها كانت تتصوره وحيداً في الطريق . وتخاف عليه اغوال الطريق وتنتظر بزهقان روح ها الساعة يجي وكل ساعة وتقول الآن دخل الولاية الآن وصل الكراج الآن فرّغ « العبرية » وترك السيارة بالكراج وجاني ! كانت تنتظره معذبة محروقة كل عمرها قضته بالانتظار الناس تنام خالية البال وهي بلا نوم خصوصاً في الايام

الاولى عندما كانت شابة اخذها من بيت ابيها وهي حامل وزرعها في الكوت غريبة ووحيدة صحيح ان زوجة القصاب كانت تواسيها . ولكن الليل لزوجها الليل للازواج هذا من خلق الله الدنيا الى الآن الليل للازواج . اما هي فكانت اذنها على الباب . كل طقة وتقول : هذا نوري وكل خرخشة وتقول هذي سيارته وكانت تتكور على فراشها وتنصت كلي روحها صارت آذاناً وكانت وهي حامل تحس بوحشة اكثر من كل ما احسته في كل عمرها كلما لبط الطفل في بطنها خافت وصار الولد يلبط في بطنها من شهرها الرابع يلبط مثل السمكة تحس به يرفس كأنه يريد ان يطلع قبل ساعة . منحصر فتصير هي كالمجنونة اوي ، عيني واذا صار بي شيء في الليل بمن استجير ؟ فكانت تترك فراشها ، وتركض الى الباب وتضع يدها تحت راسها وتنتظر تتسمع ويصبح الصبح وتشوف نفسها نايمة على الارض اليابسة وجنبها مخشب ، وعظامها تئن وليش نجوز ؟ كانت في الليلة الثانية تنام ساعة في الفراش وساعات عند الباب ومرة غفت غفوة كبيرة غفوة الموت كانت تعبانة طوخ وما احست الا وبطنها تنفرى صرخت راح اموت ولم تفتح عينيها . وقالت لنفسها انتهى كل شيء !. حرامية ضربوني بخنجر وفروا بطني ومع السلامة حتى سمعت صوت نوري الى جانبها هاي انت مجنونة تنامين على الارض ؟ بالظلمة . جنب الباب ؟ المحروس ما يدري الجمس اللي احمسه ، المرار اللي اتجرعه وصرخت بوجهه راح اموت ، راح اموت . بطني انفرت وحملني المحروس على يديه ووضعني على السرير وفي تلك الليلة طرحت . قذفت الولد ميتاً اول ولد وآخر ولد وشي يفيد العتاب ؟ جاء نوري . نصف الليل وفتح الباب بالمفتاح حتى لا يوقظها وما يدري الافندي انها نايمة عند الباب تنتظره وداس عليها بالظلمة دوسة موت دوسة الظالمين ومن ذلك اليوم لا حبل ولا جيبوبة

الفصل التاسع

— ١ —

كانت الوكالة ساكنة عندما دخلتها حتى تصورت انني جئت الى العمل مبكراً وان احداً منهم لم يحضر بعد غير انني وجدتهم جميعاً في اماكنهم في الحجرة المربعة صامتين وكأنهم تعبوا من تبادل الحديث ثم تذكرت ان جو الوكالة قد تغير في المدة الاخيرة وصار الهدوء يخيم على حجرتنا بعد ان خلت من شيئين كانا يشنجانها بالضجيج داود والمبردة

جلس في مكان داود شاب اردني يدعى اسماعيل طويل القامة اهيف القد يجلس الى مكتبه بكامل قيافته ويترجم رزيناً رافعاً رأسه بين الحين والآخر وكأنه يلقي كلمة من تلفزيون بغداد كاشفاً عن اسنان بيض منظومة وبدخوله اضيفت كلمة « يا زلمه » الى قاموس كلماتنا المتداولة

ظننت الصمت سيطول حتى انتهاء العمل الا ان الحلوى ماجدة تنهدت ثم اتبعت تنهيدتها بضحكة ناعسة فوضع الاردني قلمه الذهبي وابتسم بالاغراء او بالعدوى وتمطى وقالت ماجدة مبررة زفرتها

اصابعي راح تتهشم

قالت آمنة في منتهى الحكمة :

-- ويا ليت الاصابع وحدها

— والمفاصل والكف

— الأهم من ذلك القلب كل الذين يضربون على الآلة الطابعة يصابون بمرض قلبي

— اوي . قلبي

وضحكت ماجدة حين قالت ذلك قبل ان يتسى لاسماعيل ان يرفع قلمه ليضطر الى وضعه مرة اخرى . قال

— يا زلمه ، الجلوس في مكان واحد هو الذي يتلف القلب انعدام الحركة

قلت

— القلب اكثر الاعضاء عرضة للتلف ، سواء في شدة التفكير او شدة العاطفة او شدة العمل العضلي . فالقلب يصاب بالشيخوخة قبل غيره من الاعضاء

قالت ماجدة

— ولكن الشيخوخة المبكرة ألعن الاشياء والا فان كل الناس يشيخون

— اذا تحركت فلن تشيخي وتموتي قبل الاوان الحركة رمز الشباب

قالت آمنة محترقة بالحركة

— وهل تتصور أنني لا اتحرك ؟ انا كالمولب . من البيت الى المكتب ومن المكتب الى الوكالة ، ومن الوكالة الى البيت وفي البيت لا استقر ولا اهدأ أليست هذه حركة ؟

ليست هذه حركة انت محمولة ولست متحركة

قالت ماجدة مناغية

– وماذا تقصد بالحركة الرقص

– انه نوع من الحركة اكثر حرية لمن يستطيعه ولكنني اقصد بالحركة ان تسيطري انت على جسمك وتحركيه بالطريقة التي تجلب لك قدراً اكبر من الراحة والمتعة

والعمل ؟

– له ساعاته الخاصة

– عندما اعود من العمل لا أفكر الا بشيء واحد هو ان استريح واريح يديّ المتعبتين . ولكن لي في البيت عملاً آخر اكثر مشقة

قلت اريد ان اختم هذا الجدل

– المهم راحة البال

وافقني الجميع وقالوا انها المفتاح الذهبي لحياة بلا شيخوخة ولشيخوخة بلا ضجر ولكن اين راحة البال هذه ؟ دلينا عليها ارجوك زفرت ماجدة دون ان تضحك. وتمتمت آمنة بشيء في سرها وراح اسماعيل يبحث عن شيء في أدراج مكتبه قلت وفي نيتي اضحاك ماجدة

– هل تبحث عن الراحة في الادراج ؟

– لا يا زلمه ابحث عن الحبر

نهضت ماجدة لتجلبه له بحركة سريعة خاطفة .

تشكر يا سي

ضحكت ماجدة وظهرت الليونة في تثني اعطافها

العفو يا زلمه

لا يا آنسة ماجدة لا تستعمل الكلمة بهذا الشكل

انا لا اعرف معنى هذه الكلمة بالضبط

معناها رجل

اذن ، فهذا صحيح ألست رجلاً ؟

قالتها بنعومة حريرية وكأنها تغازله والتزم اسماعيل جانب الجد مصراً على أنها لم تستخدمها في موضعها الصحيح

قلت متضايقاً وكأنهما كانا يتبادلان القبل امامي

– يا زلمه لا تجادلها

هذا هو الاستعمال الصحيح هل رأيت ؟

ايوه ، يا زلمه

وضحكت ماجدة نشوى يعجبني هذا الديك القادم من الاردن له رأس صغير كث الشعر فاحمه ، ورقة اعطاف لا ... خشونة صوته ، وقسمات وجه غضة لا تلائم بشرته المزرقة ... طول ما حلق والمصيبة انك لا تعرف اين تتجه عيناه وهما خلف نظارة السوداء الثقيلة ، ولكن ثمة شيئاً واحداً هو ان ضحكة ماجدة تفعل فيه فعل المخدر فيضع القلم تسلاماً واسترخاء . او يضحك بنعاس من امه .

قالت ماجدة باستحياء وبعد ضحكة ذائبة
اريد ان ادعوكم الى البيت
شكراً . والمناسبة ؟

خجلت جداً وترددت في الاجابة قلت لنفسي انتهت ارتبطت كلياً وستغادرنا الفتنة الى الابد احزنني ذلك حزناً غامضاً وكأنما كنت اؤمل شيئاً منها وشحب وجه اسماعيل وغاض الدم منه وبدت زرقة الحلاقة وحدها على بشرته وظهر توتر ضائق في قسماته الرقيقة

– المناسبة ؟ قولي كلنا اليها آخر المطاف
في الاسبوع القادم سيحل عيد ميلادي

وذاب الثقل من على صدري وصفا وجه اسماعيل وخف الظل الازرق المرتمي عليه قلت شاعراً بزوال الكابوس

هذه اول إمرأة تعترف بعيد ميلادها
وقال اسماعيل مرحاً
– ولكنها لم تقل لنا اي عيد
– ستزوّر في عدد الشموع حتماً
لا والله سأضع ثلاث شموع صغيرة وشمعتين كبيرتين
ألم اقل ؟ وتعال يا زلمه . احزر
– يمكن الشمعة الصغيرة بخمسة عشر ، والكبيرة بخمسة
– يمكن اقل ويمكن اكثر .

وتعال شغل دماغك واحزر

مستحيل ان تقول المرأة عمرها الصحيح

العمر يمر يا زلمه

وغصت ماجدة بضحكتها حين قالت ذلك ورفرفت اصابعها الطويلة فوق الآلة الكاتبة كقوادم طائر يستعد للطيران طائر العمر الذي يفر منا من حيث لا ندري . وقالت آمنة باستسلام حزين

وليت الانسان يكسب شيئاً

قال اسماعيل

ماذا تريدين ان تكسبي ؟ يجب ان تعرفي ماذا تريدين

سددت اليه عينيها النجلاوين ، وقالت وكأنها تريد ان توقعه في حرج

وانت هل تعرف ما تريد ؟

– اعرف

ما هو

ولماذا اكشفه لك

– وانا ايضاً لا اريد ان اكشفه لك

– فهمت

وضحك اسماعيل وحده ومضت آمنة تطبع بحدة وجسارة وكأنها تعبر بالاصابع عن رموز ذلك الشيء الغامض الذي تطوي عليه صدرها مثل تلك التي كانت . اذا استغرقت في احلامها تقول لي لن تجد الوضع

الذي احب ان اجلسه لاحس بالراحة من بين تلك الاوضاع الحسانة التي تتخذها تماثيل البوذيين في المحفل الكبير شيء غامض وحزين ولم يتكون بعد في عالم الواقع

قال اسماعيل ، وكأنما ما يزال يتابع التفكير في ذهنه

– يجب ان يكون للانسان هدف واضح في الحياة والا فسيكون انساناً بلا تاريخ كانت ماجدة تنظر اليه ، وكأنها تراقب كيف تخرج الكلمات من بين شفتيه ، منتظرة الكلمة التي تخصها اكثر من غيرها تمس قلبها اكثر من الكلمات الاخرى وتصورتها مثل اولئك المسافرين الذين كانوا يقفون منتظرين على الشريط الناقل للحقائب ، وعيونهم ممتلئة توقعاً ولهفة وتحفزاً – مثل عيني ماجدة الآن – لتصل الحقيبة التي تخصهم وفيها اشياؤهم الخاصة

قالت آمنة بصرامة

– اطمئن لا احد يخلو من هدف

– ارجو ذلك . ولكن ما الداعي الى القلق

قلت لأشترك في الحوار

– لتأخر الهدف او تعذر تحقيقه بالطرق المشروعة

انفجرت ماجدة ضاحكة ، وضحك اسماعيل بالعدوى ورمقتني آمنة بخيبة امل وقالت ماجدة

– كريم يسكت ثم يقول شيئاً ...

ولم تستطع ان تكمل الجملة لأنها ضحكت لأنها لم تجد الكلمة التي تنقل ما تريده فضحكت ومال اسماعيل لها وهمس بكلمات لم تصل الي لأن نقراب آمنة الحادة كانت تسدد الضربات الى اذني وصلتنا كمية جديدة من الاخبار عالم كامل وضع فوق مناضدنا بأناته وتشنجاتها ومطابخ الخطط فيه ومطابخ تلويث الخطط وبنوك المال والدم واللحم وسحبت صنارة اصابعي خبراً عن ديغول والحرب الجزائرية

وفي ذلك المساء ولكي ازيل ما ترسب في قلب آمنة ضدي اكراماً لذكرى سابقة بقيت معها لاعداد الستنسلات بينما خرج اسماعيل وماجدة كانت آمنة حزينة وحزن المرأة يطل من ألف نقاب ومن كل طبقة من المساحيق ويتحدى كل عطر قسمات وجهها اضعف من ان تتحمل اي ثقل واية صدمة وقد بدت لي تلك الفتاة الشبيهة بفتاتي الصغيرة حزينة حزناً ثقيلاً يجعلها توشك ان تبكي تشتغل وتبكي مثل فتاتي التي كانت تأكل وتبكي ولم اجد الشجاعة لأخرق حاجز الحزن الذي انتصب بيننا اصم جامداً وبدأت الآلة تثرثر وفكرت مع نفسي ما الذي يدفع آمنة الى العمل جسارة ام وحدة قاسية ام طمع في الفلوس ام بحث عن شيء مفقود في حياتها ؟ ام لعلها تدرك ان لا قيمة لانسان بلا عمل ؟ ورمقت آمنة بنظرة ورأيت بدلاً من الحزن شفقة او رقة متناهية كأنها شعرت بنظرتي فبادرتني سائلة

اتعرف اخبار صديقك محسن

لا منذ اسبوع وانا لم ألتق

سيترك الشركة

افلاس ؟

لا سيصبح مديراً تماماً

– وزواجه ؟

وابتسمت برقة حقيقية هذه المرة

– سيتزوج قريباً رأيته مع خطيبته في مخزن للملابس النسائية

واقتربت آمنة من قلبي كثيراً كيوم التقيت بها لأول مرة حتى اردت ان احدثها عن حكاية الاسبرين ولكنني لم اجرؤ خشيت ان تكون النكتة باردة ، فتطفىء الحرارة التي بدأت تغزو قلبي ثم ان حكاية الاسبرين هذه كانت حمقاء وصبيانية كمن يبعث رسالة الى محبوبته بيد شخص آخر

– ٢ –

والتقيت بمحسن مصادفة بعد عدة ايام

كنت في العادة اقضي ساعات الصباح مستلقياً على سريري في حمام المالح اقرأ كتباً لريمارك او لكالدويل او لذلك اللعين غراهام غرين الذي اعاد الحياة الى كل احساساتي بكتابه « الامريكي الهادىء فقرأت كل ما رأيت له في مكتبات بغداد وعندما اجلس لاشرب الشاي مع الخالة هدية مع قطعة خبز سميكة من خبز يدها كانت تبدأ بأن تروي لي حكاية « مكسرة او سليمة عن حياتها مع نوري زواجها وكيف اخذها من أهلها عنوة ، وكيف كانت فلوس الدنيا كلها له ولكن « تلفها البيعار ومنها عرفت الكثير عن حياة نوري السالفة . كان نوري - في الثلاثينيات ملكاً « غير متوج كانت له كل عام سيارة جديدة وكانت السياقة رزقه وغرامه الذي لم يفتر ساعة لم يتخذ السياقة سلماً لجمع المال وللتدرج في السياقة ليصبح صاحب سيارات يستخدم السواقين الآخرين

ويقعد هو في بيته كان الجلوس وراء الدفة وتحمل المسوولية على ارواح من يجلسون معه هما غاية المتعة عنده مرة اشترى سيارة باص وتدفقت الفلوس عليه مدراراً ولكنه زهد فيها واشترى سيارة صغيرة كالعروس خرج بها للصيد مع القائمقام في برية واسط لاصطياد الغزلان وقضى اياماً في القصف والسمر مع « الكاولية » حتى اذا انتهت فلوسه عاد ليحمل الركاب ويجمع بعض الفلوس لينفقها على مجالس الانس حتى آخر فلس وهكذا دواليك وعندما اشبع من هذه القصص التي تشبه قصة غير مكتوبة لكالدويل اخرج للتمشي في شارع ابي نوأس ريثما يحل موعد عملي

مقاهي ابي نوأس في الصباح صامتة عارية مثل صفوف فارغة لمدارس مسائية والنهر مرآة مهملة ملقاة على حافة طريق مترّبة الاشجار تستجمع كل قواها الباقية متألقة ألقها الاخير قبل ان تهب اوراقها وخضرتها للخريف المتجرد وفجأة تهش اذاني منبه سيارة جعلني اقفز الى الرصيف كقطة رشقت بماء بارد التفتّ فرأيت محسناً ينزل من سيارته . لوح لي بذراعه قائلاً

– ايها الهارب من وجه العدالة

تقدمت منه وانا اقول

– من الهارب ؟ انا ام انت ؟

لمعت اسنانه من تحت شاربه السميك مجاوة في شمس ايلول وقال متهرباً من الجواب

– اين ؟ اين تختفي مني

– حسبتك تريد ان تقوم باغتيال سياسي اغتيال بالدهس .

لحقت ان تنتمي الى احدى الجماعات ؟ قل لي اية جماعة ؟

– جماعة المتضررين من الحاج شحاته

ضغط على يدي بشيء من القسوة . ودعاني الى الركوب معه لنشرب القهوة في « امباسادور قال انه خرج من الدائرة ليقابل شخصاً في فندق بغداد . ولكن لم يجده ففضل ان يشم الهواء

– ما دمت قد رأيتك . فتعال نشرب القهوة في صالة مريحة. ام تريد الجلوس في « الجندول » ؟ لا تخف البيرة تباع هناك ايضاً

في السيارة قلت لمحسن

– لا اعرف بأي التهانيُ ابدأ بالمديرية العامة ام بالزواج الذي يتقدم بخطى موفقة

امسك محسن بيدي وهزها دون ان يلتفت الي قائلاً

لا بهذه ولا بذاك . انتظر

– كلاهما اصبح في الجيب

– لم يصبح اي واحد منهما حتى الآن انتظر !..

دخلنا « امباسادور » الاصفر الانيق المغلف بالسجاد وصقيل الجدران قادني محسن قيادة خبير الى صالة نصف مظلمة انتظمت على ارضها حلقات من المقاعد الوثيرة تتوسطها طاولات لامعة وعلى الحيطان كانت تتسلق مصابيح خافتة الضوء طويلة كالصراصير بينما لمع بار امريكي في اقصى الصالة يدعو الناس بابتسامات زجاجاته الملونة . ادرت له وجهي وجلست مقابل محسن واشعلت سيكارة .

بيرة ؟

لا سأشرب القهوة في هذا الجو الذي لا ينفع فيه غير الهمس

في الليل ينقلب هذا البار الى حانة صاخبة

– لا بد أنك من رواده

ليس كثيراً ولكن اين تقضي المساء اللعين ؟

انت تكره المساء مثلي

اكرهه جداً لا يحس الانسان بالوحشة الا في المساء حين يعشش الظلام

ولهذا السبب يقدم الانسان على الزواج

يمكن ان تعده سبباً قوياً الزواج على الاقل ينظم لك امسياتك .

اذن يمكن ان اعدل قولي القديم على النحو التالي لو ظهر نبي ينظم للناس امسياتهم يرفع الزواج عن كواهلهم

ضحك محسن وجاء النادل على ضحكته طلبنا قهوتين تناول محسن السيكارة الجديدة من يدي حين رآني اهم باشعالها من عقب السيكارة القديمة قدمت السيكارة له. دعسها محسن بأصابعه. وبعد ان تردد قليلاً اي الطرفين يضع في فمه اخرى قليلاً ليشعلها من عقب سيكارتي يبس الصلع قد إلتهم جانباً كبيراً من مقدمة رأسه قلت

والزواج ايضاً ابن سن معينة

– كبرنا يا فحل – وسعل محسن بدخان سيكارته – حسرة حسرة

سـ-ظفر به على مهالك

انا في بعض الاحيان احس بدفقة حنان عجيبة تذكرني بجدي الذي كان يقبل كل من يراه قائلاً لم يبق من العمر شيء كثير بينما أنا لم اشبع من القبل وكان جدي قد تزوج ثلاثاً

شباب متصل انا اعرف هولاء

اما نحن فلا نعرف كيف نتمتع بشبابنا او بالاحرى لا نشعر به . سيزلي قريباً

لا يزال المستقبل امامك

نظر محسن الي بعينين حزينتين وزفر قائلاً

آه يا كريم عمرك عرفت نفسية المقامر في السباق ، حين يرى « الهدة الاخيرة توشك ان تفلت من يديه دون ان يقامر ؟ انا احس بأن هذه آخر هدة لي

قلت لي رأيك فيما سبق الحياة مغامرة

— انا اتعذب ، يا كريم

من الحب ؟

وارتحت لسبب غير محدد وانتظر محسن حتى يضع النادل القهوة

— من الشعور التي شرحته لك من الاحساس بأن الشباب اجمل أيام العمر يتبدد عبثاً يفلت متيبساً بجفاف الحرمان .

وسكت ان هذا الاحساس يراود كل انسان لا سيما الذي بدأ يرى شعرات الشيب تغزو رأسه او صحراء الصلع تزحف على ناصيته قلت لمحسن ذلك . قال مؤكداً

اتعرف ؟ انا ، في بعض الاحيان امتلىء بالعواطف حتّى اختنق فاحس احساس المليونير الذي لا يعرف اين ينفق ملايينه المكدسة

لا تخف يستطيع ان ينفقها إذا اراد

– اما انا فلا استطيع ان اصرف عواطفي لا مكان لها فتتبدد وتضيع مثل دخان هذه السيكارة .

– انت تدهشني يا محسن وعلاقاتك الاجتماعية ؟

– هذه ملابس خارجية ولكن المرء يتساءل احياناً لمن يلبس ؟ لمن يزين نفسه ؟ لمن يبني ؟ ألم تسأل نفسك ؟

– انا لم ابن شيئاً بعد .

– في بعض الاحيان اتساءل بصوت صارخ لمن كل هذا ؟ ان كل شيء اصنعه وأقتنيه بارد وبلا رونق ولا فائدة ترتجى منه . حتّى الرباط الجديد الذي اشده في الصباح اقول لنفسي حين اشده ستذهب جدته عبثاً لأن العيون ستمر عليه باردة غير مكترثة لأنه لا يجد العين الذي سترمقه بحرارة واهتمام الانسان لا يرى نفسه في المرآة كذب وخداع بل يراها في عيون الذين يهم في كسب ودهم في عيون الذين يحبهم ما فائدة كل ما تلبسه اذا كنت لا تجد الفتاة التّي تريد ان تكسب قلبها ؟

– ولكنك وجدت .

وجدت ؟ بعد بعد دون ذلك اهوال

وزفر واحسست بأنني امام محسن آخر غير الذي كنت اعرفه محسن العابث الضاحك الفرح بالحياة الذي عاشرته في القاهرة كان يخفف عليّ الكثير من تعقيدات الحياة قائلاً لا تستعجل كل شيء امامك اما الآن فقد رأيته يمسك بقدح القهوة الفارغ تقريباً ويعاين فيه باحثاً عن آخر جرعة يمكن ان يستشفها دون ان يجرف الثمالة ايضاً قلت باندهاش

– الزمن عجيب

– زمننا ؟

– الزمن بشكل عام ما ان تسهو عنه حتى تراه يتراكم امامك ميتاً مثل اوراق أشجار يابسة

– لم يبق من الشباب غير القليل

انت في عنفوانه

– قل هذا لغيري لعله يقتنع كل الناس تحس بأنك كبرت ما عدا والديك فهما دائماً يقولان انك ما تزال طفلاً

– من حسن الحظ سوئه انني لم اسمع منهما منذ زمان وربما لن اسمع منهما ذلك ابداً

نظر محسن الي وكأنما فهم ما قصدت اليه امسك بيدي وقال بلهجة مختلفة عن اللهجة التي كان يتحدث بها هادئة وبطيئة

– نعم ذكرتني

وصمت وكأنما يراجع نفسه كارهاً ان يخوض في موضوع آخر غير الذي كان يتحدث فيه قلت

بماذا ذكرتك ؟

– بالشخص الذي كنت تبحث عنه

– القندرجي رجب ؟

لا تظنني نسيت ولكن تبين ان الذين يسمون برجب القندرجي اكثر من عشرين شخصاً

– ولكن ليسوا جميعاً من محلة واحدة

– تغيرت المحلات كلها لا احد يذكر محلته الاصلية الذين كانوا في « العمار » أصبحوا في كرادة مريم اسمع سأدلك على شخص موثوق به هل تمر علي في الوزارة ؟ عندنا موظف ابوه خفاف من خفافي بغداد القدامى ما رأيك ؟

اطرقت برأسي في خيبة ولما رفعته رأيت محسناً ينظر في ساعته

هل ننهض ؟

وضع ربع دينار على الطاولة.. ونهض

– سأمر عليك ولكن يبدو لي انني ابتعد عن الموضوع الاصلي اكثر فأكثر في البداية كنت اريد ان ابحث عن أهلي ، ثم رأيت نفسي ابحث عن رجب القندرجي والآن ابحث عن شخص يعرف رجب القندرجي

الانسان يضطر الى تحمل المتاعب في سبيل الغاية . تعال الى الوزارة .

ساشغلك

عن اي شيء تشغلني

عن التخطيط

هناك من يخطط احسن منا ونحن نتلقى منه كل شيء جاهزاً تقريباً عبقري يا اخي الحاجة فقط الى الاستقرار ولكن جماعتك تخنوها

– اية جماعة ؟

القديمة انهم يدققون اكثر من اللازم ويهولون الامور ويحلمون بالكوابيس يا اخي ليتركوا الرجل يعمل

– ٣

عدت ادراجي مهزوزاً زرع محسن جهم في صدري بأفكاره واستفزازاته صار يتحدث عن الزمن وتعفن العواطف كأن الافكار لا تتعفن ايضاً كل شيء قابل للتعفن والقدم والهدر والاباحة وكم هدر الناس من عواطف . ووأدوا من مشاعر وجعلوا من الافكار ثعابين واصلالاً وهو على كل حال هز الالفة مع نفسي لم يذكرني بالزمن ولكن خط عليه خطوطاً دموية وكأنه يؤكد على خفة انفلاته او سرعة انزلاقه على نهر الحياة ومرور الزمن يخلف خيبة دائماً مثل كل شيء يمر خطفاً ما ان تألفه حتى تحس انه قد فر منك عجيب ان الناس جميعاً يتحدثون عن الزمن والعمر وكأنهم يريدون ان يمسكوا شيئاً أن يتملكوا وكأنهم يحسون احساساً لعيناً بفجيعة الفقد والضياع ولأن رؤوسهم في دوار طائش يحسون بأن كل شيء يفلت ... يضيع ويتلاشى .

كان الجو من حولي مضمخاً بشذى خريف بغداد الناعم المشوب بغلالة خفيفة من الحزن وكأن ذلك ايضاً حسرة على تلاشي الزمن وانفلاته حزن منتصف العمر حزن اصيل يوم يوشك ان يتلاشى كانت البيوت ساكنة والمقاهي وتذكرت مكاناً ذهبت اليه ذات مرة مع طالب لنشتري مكتبة له قبل سفري بوقت قصير ، فالتقيت فيه بتينك العينين الحزينتين اللتين صحبتاني ، زمناً طويلاً في الغربة ، كودعتين من وطني تقيانني الشر في بلاد الآخرين ، وتؤمنان لي عودة سليمة .

وقفت في رأس شارع فرعي متردداً ثم ذكرت مركز الشرطة الذي كان في ذلك الشارع فدخلته ورأيت المركز ثم لاح المكان من بعيد

كان على عهدي به ، مفتوح الذراعين لاستقبال الراغبين مجموعة هائلة من الاثاث وعاديات البيوت ، معروضة على الرصيف . وداخل قاعة عميقة ، مرتفعة عن الارض بدرجتين وقفت أتأمل وامد بصري باتجاهات شتى وكأنني ابحث عن شيء اريده بين مئات من الاشياء المعروضة للبيع بيوت ملقاة بلا نظام ولا ذوق . غرف نوم مختلفة تعكس ألوان اثاثها اعصاب مالكيها ارائك وثيرة اسرة اصونة ادراج زينة طالما جلست امام مراياها نساء يتزين ، ويتعطرن ويملأن جو غرف النوم بروائح انوثتهن وحسنهن الحقيقي والمجتلب . وقفت بينها ابحث عن تينك العينين الظلال على الجدران ، واطياف لامعة ترف في الهواء ورطوبة ملموسة ومشمومة وهياكل غامضة لاشكال تخفق من بعيد . كان المكان مسكوناً بآلاف الاشباح واوصال حيوات انسانية رأيت آثار المساحيق والدوائر التي خلفتها حقق البودرة وادوات الزينة على الخشب الصقيل وخيل الي انني اشم بقايا العطور ، وروائح الاجساد ، وأرى بصمات الاصابع والاصابع ذاتها تعبث في الهواء امام عيني كانت حولي حيوات كاملة ، معروضة للبيع « مواض بكل أنفاسها وما توحي من ذكريات . « شرائح اعمار اناس مجهولين

تخلّوا عنها لسبب لا أعرفه وقبلوا ان تعرض للناس وتتلمسها مئات الاكف وتستبيحها مئات العيون قبل ان تتم الصفقة وتنقل الملكية ما الذي دفعهم الى ذلك حاجة ام تخلصاً من ماض اريد له ان يبتر ام رغبة في بدء حياة جديدة الرغبة في تعمير بيت جديد . ومستقبل جديد ، وعلاقات جديدة ؟ ام لعل كل هذه اشياء لم يحسنوا التصرف بها كالعمر المبذول في اقتنائها افاقوا فوجدوا انفسهم في احبولتها ام لعلها تراكمات عددية كديون متراكمة للزمن المهدور هدراً رأوها امامهم فجأة وفي ساعة من ساعات محاسبة النفس فأخافتهم واشعرتهم بالاختناق وبخسارة العمر بدون طائل فأرادوا التخلص منها

ضايقتني هذه الاسئلة وأنستني ذكرى الودعتين السوداوين . فتلمست طريقي بصعوبة من خلال الاثاث الملقى بدون نظام ، الى الهواء النقي المشمس في الشارع . ولما ملأت صدري به وزفرت الهواء المستباح بمئات الروائح الغريبة سألت نفسي وانا ؟ هل استطيع ان افعل مثلهم ؟ ان اتخلى ؟ حسناً لو اضطررت الى التخلي عن جزء من حياتي فأي جزء أبتر منها ؟ عن اي جزء أستغني ؟ عن اخطائي ؟ لا ليست الاخطاء جزءاً معزولاً دبّ فيه سرطان الخطأ ليبتر بسهولة الأخطاء والاعمال الصائبة تتواجد وتختلط ويعيش بعضها على حساب بعض اوقات شقائي ويأسي ليس هناك شقاء صاف لا تخالطه لحظات هناءة وليس هناك يأس صرف لا تتخلله ومضات أمل مستحية غربتي ؟ ليست غربتي كلها شراً وقطيعة لقد تعلمت منها الشيء الكثير فهي على الاقل جعلت للوطن في عيني معنى لم اعرفه طوال حياتي على ارض الوطن وهو الانتماء كنت احس وانا على بعد آلاف الاميال بأنني منتم الى قطعة ارض ، هي التي خلقتني وجعلت لي هذه البشرة وهذه اللغة وهذا المزاج وهذه العادات وهذه التطلعات وهذه العيوب وانا — لا بد — عائد اليها يوماً ...

وها قد عدت

الفصل العاشر

— ١ —

ضبطت نفسي غير مرة متلبساً بالتفكير بآمنة مجرد حماقة عاجزة جعلتني استرجع خيالها من حيث لا أدري واستعيد ما دار بيننا واحاول ان افسره التفسير الذي اريد ولما كنت اقابلها كل يوم فقد كان ذلك مادة غنية لاستعادة الصور لم اجرؤ ان ادعوها الى عشاء في بوفيه الجمهورية رغم انني لمحت عشرات الدلائل على انها راغبة في دعوة مثل هذه كلما تأخرت معها لاعداد الستنسلات حين يأتي دورها مثلما كان يتأخر اسماعيل مع ماجدة كنت اريد ان تكون هي البادئة هي المتحرشة ولكن ذلك لم يحدث حتى الآن

اليوم جئت قبل بدء النوبة بأكثر من ساعة مؤملاً ان اراها فارغة فأنعم بساعة مريحة الى جانبها كان باب الوكالة مفتوحاً وداخلها مظلماً ارتقيت الدرجات الثلاث الى الفسحة وانسبت انسياباً وفجأة توهج رأسي احترق فارقت الدنيا لحظات عدت بعدها لأسمع وشوشة مريعة في جمجمتي ثم كلمات اعتذار آسف يا أستاذ آسف ألف مرة ولمحت بشكل مغبش فراش الوكالة يحمل رزمة طويلة من خشب الصناديق على كتفه .

تمتمت « لا بأس وأخرجت المنديل من جيبي ووضعته على صدغي الملتهب وقفت انتظر همود الالم وعودة الصفاء الى نفسي وقبل أن يعود الصفاء خرج داود وصاح حين رآني « ما بك ؟ » وحاول ان يرفع المنديل عن صدغي ليرى بنفسه ما حل بي

هل تأذيت ؟ أرني دعني أرى لا شيء

الجرح يحرقني كالنار

لا تصدق ليس هناك جرح ولا حتى خدش

ولكنه يؤلمني

ارفع يدك ، واترك الموضع يتهوى لا تلمسه كثيراً اقول لك لا تلمسه سيؤلمك اكثر اذا لمسته تعال معي

وامسك يدي التي تضغط على صدغي وقع المنديل على الارض التقطه داود قبلي ، ووضعه في يده وانا في أشد الحاجة اليه ، قائلاً

لا أعطيك المنديل ، حتى لا تضعه على الموضع الذي يؤلمك الجزء الموجع اذا مسسته كثيراً ورعيته يعاند ويتضخم وتفسده الرعاية هذه نصيحتي لك .

واذا كان بحاجة الى رعاية ؟

ـ لا تصدق دع الهواء يلفحه تعال نتمشى في بقايا هذا البستان ما تزال هناك ساعة لبدء العمل

عبرنا الشارع الى بقايا البستان امام الوكالة . وبالفعل احسست ببرودة

مريحة تسري في صدغي حين تحركت وهب نسمة من داخل البستان
عبرت عن ذلك لداود ، فقال ألم أقل لك ؟ كدت تفسد الجرح

– اذن ، هناك جرح

– مجرد خدش بسيط اعتقد انك لم تتأذ منه بقدر ما تأذيت نفسياً لانك
اصبت خدش نفسي سيتعكر مزاجك هذا المساء . صدمة

وتأوه داود بسخرية التفت فرأيت وجهه جامداً ورصيناً

– لم اكن أتوقع ذلك

– ولماذا تُسمى الصدمة صدمة ؟ لأنها غير متوقعة هل كانت لديك
مشاريع ؟ جئت مبكراً

أخذني على غرة اهتزت اعصابي لحظات لم استطع فيها ان احرك لساني
ثم قلت متلجلجاً

جئت لأتمتع بهذا الخريف الجميل

سيستمر الخريف يخدعك حتى تصاب بنزلة صدرية انه كالمرأة
ناعمة الملمس ، مطوية الصدر على نهاية فاجعة انا اكره الانخداع بمثل هذه
الاشياء .. الخريف المرأة الكلمات الكبيرة وكل هذه الاشياء شائعة
الآن ، واستفزازية كما يقولون

وضحك داود ضحكة تشف . قلت

– بمن يثق الانسان ، اذن ؟

قال بحتمية جازمة :

بالعمل العمل هو الشيء الوحيد المقنع

ولكن هناك اعمالاً استفزازية ايضاً

لا تصدق قد يبهرك العمل ويشل تفكيرك لحظة وهذا ما يسميه الآخرون استفزازاً ولكنه سيقنعك اخيراً رضيت ام ابيت

– اقناع بالقسر

العمل يضعك امام شيء لا تستطيع ان ترده واي شيء اقوى من هذا الاقناع ؟ اما الكلمات الكبيرة العاجزة فانها تستفزك دون ان تضع امامك شيئاً مجرد مظاهرة مسجلة على شريط

كأنك لم تقتنع بكلمة كبيرة واحدة في حياتك

– مثلاً ؟

– مثلاً الحب الحياة الكريمة السعادة الحرية

– وهل وجدت دليلاً واحداً على وجود مثل هذه المدلولات ؟ هل شممت رائحتها في تجوالك ؟

– شممت ؟

–لا اصدق

– اخشى أنك لا تصدق بأي شيء

قال بلهجة مهزومة

ربما ولكنني قبل لحظة قلت له انني أثق بالعمل يعني اؤمن به .

ثم أنني اؤمن بالاشياء المحتملة الحدوث بنت اللحظة العابرة
اؤمن مثلاً بأنني معك . وبأننا نعمل في وكالة انباء أجنبية وبأن هناك
فتاة مبتذلة تعمل معنا

نظرت اليه مذهولاً وقلت له

– كيف تخرج هذه الكلمة من فمك ، يا داود ؟

– ألا تستحق ماجدة هذا النعت ؟

وتحول غيظي الى شفقة قلت

انها فتاة ساذجة طيبة

– لينة كالخرقة كالعجينة اتحسبها مخلوقاً ذا كيان متماسك ؟ إنها
تنهار في احضان أول من يداعبها ويضحكها ومن لا يستطيع اضحاك
ماجدة ؟ انظر الى علاقتها العجيبة الغريبة مع اسماعيل

– لا أظن ان هناك علاقة ماجدة كما قلت تضحك من كل شيء ،
حتى من نكاتي الباردة فهل تعتبر ذلك ميلاً :

– الضحك ترطيب ولا سيما اذا بدر من امرأة المرأة التي تضحكها
بسهولة تستطيع ان تجرها الى المخدع بسهولة

وبدا ذلك لي فظاظة عمياء يتخلق بها عادة اولئك المحرومون من
مخالطة الجنس الآخر فيصبون نقمة حرمانهم عليه وما ان يدخلوا في علاقة
ودية معه حتى تذوب هذه النقمة وقد يذوبون هم ايضاً قلت

– اعتقد أنك قاس عليها يا داود .

قال

اية حياة تنتظر فتاة مثل ماجدة — وتأفف عن عذاب واضاف — ستنخدع حتماً الخديعة ثم الصدمة

ولأمر في نفسي اردت ان أعرف رأيه في آمنة قلت

قد تبدو ماجدة خفيفة اذا قورنت برزانة آمنة

وخزني بيده وخزة أبعدتني عنه نصف متر

رزانة هذا ما تتوهمه انها تحب ان يأخذ الناس عنها فكرة الرزانة تتظاهر امامهم بأنها جدار متماسك ولكنه مجرد تظاهر انها بلا شخصية

لا إن لها شخصيتها

لا تصدق متى كانت للمرأة شخصية ؟

— ما كنت أتوقع ذلك منك

وجدتني صريحاً

— يبدو انك لا تفهم المرأة ، يا داود

لا أفهمها بيت معها في قفص واحد ولا أفهمها اسكت عمى اسكت

لم اتركه يسكتني قلت مقتنعاً بفكرتي

اذا كنت ترمي الى معايشة المرأة في بيت واحد ، فكلنا قد تربينا تربية نسائية نعرف امهاتنا واخواتنا اكثر مما نعرف آباءنا.

قال بقـوة

اما انا فلا أعرف ابي ابداً هل تريد ان اكشف لك عن حياتي لتستريح ؟

لا حاجة الى ذلك

الا انه مضى في اندفاعه قائلاً

هناك فرق بين ان تعيش مع أب مخيف غامض لا تراه كثيراً في البيت ، فهو اما في الشغل ، أو في المقهى وبين ان تعيش بلا أب على الاطلاق يختفي من حياتك كلياً هل تريد ان أقول لك اكثر ؟

وتريث داود ليسمع جوابي كانت قسمات وجهه متوترة متحفزة لترسم ابشع صورة لليتم وبدا لي ان كل ذلك زائد ويجلب له اذى نفسياً قلت

– الانسان قد يتعرض الى اشياء خارجة عن ارادته لا يستطيع لها دفعاً كاليتم مثلاً ولكن ذلك ينبغي ان لا يلون تفكيره

قال داود ممسكاً كوعي ضاغطاً عليه بقوة

– هناك أسوأ من اليتم ما رأيك في ان يكون أبوك – لا سمح الله – ميتاً بالنسبة لك . وحياً بالنسبة للآخرين ؟ ألا تصدق ؟

هززت رأسي موافقاً وفكرت بمشكلتي الخاصة حزنت وبدأت الكدمة في صدغي توجعني

– وقد يكون العكس ايضاً .

لا أفهم كيف يكون العكس ان يكون أبوك حياً بالنسبة لك ، وميتاً بالنسبة للآخرين هذه ليست مشكلة المشكلة ان يكون ابوك حياً وهو في عداد الميتين بالنسبة لك بل أسوأ من ذلك لأن الذي تدفنه تستريح منه اما الميت الذي يدب بين الاحياء فجيفته تزكم الأنوف

اختلط التفكير علي تركت مشكلتي جانباً وركزت ذهني في داود الذي صارت حركاته وكلماته كنبضات قلب مستشاز فكرت بأن أباه مريض جداً وفي حكم الاموات ومع ذلك فهو يتنفس ويأكل ويطالب ، ويثقل على الاحياء تذكرت ان داود حدثني عن خاله ، غير مرة عن حب بينما لم يذكر أباه قط فاكتملت الصورة في ذهني ان أباه مريض مقعد وخاله يعيله ولكن لماذا يتحدث عن أبيه بهذه اللهجة ؟ أبوه جيفة مسألته

هل أبوك مريض منذ زمن طويل ؟

– مريض المريض هو أبو آمنة اما أبي فميت رغم انه يدب بين الاحياء

ضجرت وتركت محاولة الحدس سمعت دمدمة الارض اللينة الصماء تحت اقدامنا حين صمت حولنا كل شيء ، حتى بربرة سيارات الباص الحمراء في الشارع العريض في نهاية هذا البستان البني الناعم الشبيه بكعكة عيد الميلاد ، والنخيل شموع مغروسة فيها وتذكرت ماجدة وأشفقت عليها من جديد وطافت آمنة في خيالي ايضاً مضمومة الشفتين عن سرها الغريب أبوها مريض اذن ولهذا تشتغل في مكائنين لتعيل عائلتها بطولة اما داود فمسألة عويصة

وعاد داود يقول :

شاهدنا معرفة المرأة

كلنا نعرفها الى هذا الحد أو ذاك كلنا على الاقل لنا أمهات وأخوات

ــ ولكن هناك فرق بين ان ترى المرأة مشدودة الى عربة وبين المرأة سائبة بين المرأة تحت كتف الزوج والمرأة مطلقة منبوذة

ــ لا يختلف في ذلك بجوهرهن

لا ستبدو المرأة على حقيقتها عاجزة ذليلة

ــ والعجز يصيب الرجال ايضاً

الرجال لا يعجزون يلجأون الى كل شيء لخنق عجزهم اما المرأة فيظهر عجزها من أقل محنة

ــ لا أظن ذلك

ــ لقد رأيت ذلك بنفسي عانيته ، هل تريد ان أقص لك حياتي لتستريح ؟

لم أرد ذلك ولكن قوة اصرار عجيبة تملكت داود ليفيض بما في صدره تركته يتحدث مدركاً بعد جملتين او ثلاث ان ذلك ينفعه ، وبنفس من توتره بدأ يقول

ــ ان ابي وحش الناس عنده كالأحذية التي يصنعها كان يغير المرأة كما يغير حذاءه دون ان يتلقى معارضة من الاثنين وقد غير ابي أمي وأنا في السادسة من العمر ارسلها طالقاً الى أهلها بعد ان قضى وطره منها

الرجل حر ما دام يستطيع ان يدفع بضعة دنانير نفقة وبقيت انا وأختي الصغيرة . وأمي معلقين كأحجار ثقيلة في رقبة خالي المسكين الذي لا ناقة له ولا جمل في مشروع فاشل زواج بالمجان ، انتقلت به أمي من بيت الى بيت دون ان تستشار وأرسلت الى البيت دون ان تستشار وعندما فتحت عيني كنت أراها منزوية في ركن الحجرة التي تنام فيها خالتي الصغيرة وجدتي قطعة منبوذة عاجزة خرساء لا تستطيع ان تقول شيئاً وتخاف ان تتدخل في شيء حتى لا تعير بزواجها الفاشل حتى لا يقال لها انت المذنبة لأنك لم تعرفي كيف تحتفظين بزوجك كانت تتجرع التقريع وتخاف ان تطلب لولديها شيئاً قد يكون زائداً عليها كنت أراها احياناً تسرق الطعام خلسة من قدر زوجة خالي الصغير لتطعمنا ربما لم نكن نشبع وكانت تحس أنها المذنبة ، لأن خالي لم يتزوج لا يستطيع ان يترك أخته وولديها وكم امتلأت حقداً على ابي وأمي عندما اخذت أعي اكثر واشاهد أمي العاجزة المنبوذة تدب على الارض لتكنس الغرفة التي ينام فيها خالي الصغير مع زوجته حتى تأخذ ماعون لنا مع ان خالي لم يكن مقصراً هو الذي ربانا أحسن تربية ، وهو الذي حرم على نفسه الزواج من أجلنا هذه هي المرأة على طبيعتها . كنت أصبحها وأمسيها وأعرف كل حيلها وألاعيبها لتحمي أولادها وتعيش . هل تريد ان احكي لك اكثر ؟

كل شيء صحيح هذا طراز قديم من المرأة واليوم توجد قوانين أخرى ، جيل جديد من النساء والنظام هو المسؤول عن كل الانحرافات ؟

نظامك هذا ؟ سأقول لآمنة انك ضد النظام

هناك فرق بين النظام والحكم

ـ وصلنا آخر البستان

٢

وتوجست خيفة حين دخلت الوكالة ثانية وكأنني سأصطدم بخشبة أخرى الا ان الممر والقاعة التي تُطبع فيها الستنسلات كانا خاليين وكذلك الدهليز المؤدي الى غرفة مدير الوكالة وغرفة الاخبار الداخلية وشممت رائحة طهي اجنبية ذكرتني بالروائح النافذة التي كنت أشمها هناك في المطاعم الشعبية ايام كنت اشرب النبيذ ساخناً على غلاية ماء فائر ورأيت نفسي تهفو الى الذكرى مثل طائر مهيض الجناح اللعنة ودخلت الغرفة وبوغت برؤية آمنة جالسة وحدها وراء آلتها الكاتبة

وكأنما بوغتت بي ايضاً رأيتها تلملم اشياء على الطاولة الصغيرة ربما هي أدوات زينتها وتضعها في محفظتها يبدو انها لم تلحق ان تسوي زينتها حين رفعت عينيها إلي رأيت وجهها كالمتورم وعينيها لزجتين وكأنها فرغت تواً من البكاء ادوات الزينة التي لم تستعملها وملامحها المتوترة. والمنديل الصغير الذي اخرجته لتمسح أنفها واصابعها القصيرة البضة التي كانت ترتجف وارتباكها امام نظراتي المتسائلة كل ذلك اكد لي انها كانت تبكي لا محالة وعادت الى ذهني كلمات داود « ابو آمنة المريض لا أبي فهل كانت تشكو الى داود من مشاكلها ؟ لقد كان داود هنا بالتأكيد. حدست ذلك حدساً يقيناً أفقدني بقية الصفاء في نفسي صدغي ينبض ورأسي ثقيل عندما ردت آمنة على تحيتي خانها صوتها فجاء محشرجاً وجعلني أقول

ما بك ؟

صمتت لحظات ثم قالت

— قل لي ، يا كريم

انتظرت جملتها وكأني انتظر سؤالاً من ممتحن ايام كنت في الكلية

قل لي لـم هذه القسوة في هذه الايام ؟

— القسـوة ؟

نعم القسوة انت رجل تقول انك جبت العالم شرقه وغربه ، فهل رأيت مثل هذه القسوة التي تراها اليوم في العراق ؟

تريثت قبل ان اجيب بشكل يضمن سلامة تفكيري ويخفي الكثير مما لا أريد ان اقوله لها

— ليست كل البلدان التي مررت بها كانت تمر بثورة

— وهل الثورة قاسية الى هذا الحد ؟

— الثورة تحتمل كل شيء الثورة صراع

— صراع طبقي ؟ كم ملأتم آذاننا به ! لماذا لا تقول ببساطة ان الناس استولى عليهم مرض حب الايذاء السادية

— ولـماذا ؟

— مجرد انهم ناقمون على شيء في حياتهم على شيء غير مريح

— تقصدين الثورة ؟

— لا لا اعرف ما هو

— يمكن ان تفسري ذلك بما تريدين ولكن الصراع موجود .

— حتى بين تلامذة المدارس ؟

لم افهم ما ترمي اليه انها تتحدث عن اشياء لم أعهدها منها عكس خصوماتها الطويلة مع داود فهل جعلها تغير آراءها ؟

قلت

تلامذة المدارس يعكسون أيضاً ما يثيره آباؤهم

حتى على أشياء لا يفهمونها

كل هذه مظاهر لشيء يجري بحدة والاسماء عباءة تخفي مختلف الالوان

– هذا شيء اسميه السادية وانت تسميه الصراع الطبقي لماذا لا اصدق ان الناس يحبون العهد البائد مجرد أنهم اصيبوا بالسادية أليس من الممكن ان تكون الثورة قد اصابتهم بالسادية ؟

يمكنك ان تقولي ذلك اذا كنت تعتبرين الثورة شراً ولكن الثورة خير وبركة لماذا يثور الناس لأنهم يريدون ان يحيوا حياة أفضل لماذا ثرنا نحن ؟ لأن العهد البائد حقير وطفيلي وعميل للاستعمار وهكذا هذه مبادىء أولية فأين السادية في الموضوع ؟

– لا أدري لا ادري مجرد ان الناس تغيروا واصحوا قساة كالحجارة . لا يرحمون ولا يعبأون لشيء اذا لم يطعنوك بخنجر اهانوك ببرود دم

وأجهشت آمنة باكية بكاء لم أجد له مبرراً قوياً ، بكاء نفى كل ظن لي بأن توترها راجع الى مرض أبيها بادرت الى سؤالها دون تفكير

– هل تأذيت من احد ؟

نشجت بأنفها ولم تجب كان المنديل الصغير ينتقل بين أنفها وعينيها. الوسط للأنف والاطراف للعينين جازفت بسؤالها

ـ هل كدرك داود ؟

لم تجب مباشرة . بل قالت

ـ هذا داود شاب متزن ، عصامي تحول الى مخيط ينغز ينغز

ومنعها البكاء عن ان تقول شيئاً آخر وشعرت بجيوش من النمل الصغير تغزو جسمي . كنت استطيع ان أقول لها اعذريه واشرح لها العقدة التي سببتها له أمه ولكن ذلك مثل دفعة معاكسة لزورق تريد أن تقربه منك

ـ ماذا فعل ؟

هزت رأسها وخذلتني بسكوتها قلبتُ المسألة على جانبها الآخر

ابوه سبب له هذا التأزم في نفسه

ـ أنا اعرف

قالت تنود برأسها مهدئة نفسها محاولة أن تخفي الأمر عني

ـ اذن ؟

صمتت . ثم قالت

ـ أنا اعرف انه يخفي اسم أبيه . لانه قندرجي ويلقب باسم عائلة أمه اعرف العقدة

ـ ابوه قندرجي واسمه رجب ؟

تراجعت آمنة في اللحظة التالية

لا أعرف هذا ما يقال عنه ولكن اباه الآن عجوز لا يشتغل بأي شيء . وماذا لو كان رقاعاً ؟ ليس عيباً

لا ليس عيباً

وفي تلك اللحظة دق البلاط كعب عال ودخلت الغرفة ماجدة يتبعها اسماعيل

ـ ٣ ـ

دق جرس التلفون في نحو الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم سبقني اسماعيل فتناول السماعة وقال « هالو وصمت ثم « صحيح ، يا زلمه ؟ حاولت ماجدة ان تضحك الا ان وجه اسماعيل كان أزرق منكمشاً خنق ضحكتها وضع اسماعيل السماعة وأدار لنا وجهاً ذابلاً وقال

ـ سودها !

ندت أهتان نسائيتان وأطل القلق على الجميع وجوه شاحبة وعيون شاخصة وشفاه متيبسة لقد كنا على مستوى واحد من الارتباك قالت آمنة

ماذا سيحل بالبلد ؟

ـ ستنقلب الدنيا

ـ حرب أهلية .

فوضى   ستعم الفوضى

وفي التلفون الثاني عرفنا تفاصيل الخبر ثم توالت التلفونات وجاء مدير الوكالة راكضاً ارجوكم لا تتحدثوا طويلاً في التلفون هذه وكالة أجنبية

حاولنا ولكن لم نستطع كنا نريد ان نعرف لحظة بلحظة ماذا يحدث في البلد كنا نتوقع كل شيء دون استثناء وتوالت اخيلتنا تصنع المستقبل من نسيج مخاوفها ونظرت الي آمنة نظرة ذات معنى سادية . ام صراع طبقي ؟

د.حسن اسماعيل

كان ذلك متوقعاً

وقبل ان ترفع ماجدة السماعة لتخابر رن جرس التلفون . وأخبرنا بأن منع التجول قد أُعلن سلاح العهد البائد تعانه لثورة من جديد هناك أسلحة صالحة لكل عهد وساد الوجوم لحظات ثم كركبت الادراج ولمت الاوراق

أنا اشبه منع التجول بعصب العيون في وقت أنت في اشد الحاجة اليها منع التجول جدار أصم يحبس عنك الهواء الا من فتحة ضيقة يتسرب منها هواء غير صاف وفي ذلك المساء الكئيب المشحون بالانفعالات أحسست بأن عيني ستعصبان وأن اشياء كثيرة ستمرر عبر ظهري دون ان اراها او أعرفها كما احسست أيضاً بضياعي وفقدان البيت الذي يؤويني عندما اخذ زملائي يجمعون حاجياتهم استعداداً للذهاب الى بيوتهم أحسست بالغصة والتشتت لانني لم أكن جاداً في البحث عن أهلي هل لانني تعودت

الوحدة واستلذذتها واعتبرت أن في امكاني ان أعيش وحيداً حتى في وطني ؟ هل استثقلت ان اعود الى العائلة واتحمل مسؤوليتها ؟ ألفت ان أنفق ما في الجيب على نفسي ؟ الآن فقط عرفت قيمة البيت الركن الذي تستجير به في ساعات الضيق الناس الذين يمدونك بالدفء والحنان مثلما تمدهم انت

حاول اسماعيل ان يتصل بشركة التكسيات التي يستأجر منها سيارة في العادة لتوصله من الوكالة واليها ولكنهم قالوا انهم لا يلحقون ان يرسلوها ومنع التجول في الساعة الثامنة وقررنا أن نخرج سوية الى الشارع ونوقف اية سيارة تاكسي عابرة

كان المساء قد اغسوسق وبدت شموع النخيل في البستان منطفئة باردة اجتزنا البستان صامتين وكنت افكر ماذا سأفعل في حجرتي في حمام المالح وليس فيها راديو ولا شيء من نعم الحضارة أعلنت ذلك لاسماعيل همساً فدعاني الى أن اقضي الليلة عنده نظرت ماجدة اليّ وكأني مزاحم لها الا أنها قالت بعد ذلك « واحد يسلي الآخر وابتسمت ابتسامة تأييد . كانت آمنة صامتة طوال الوقت وفي السيارة قالت كان علي أن اشتري دواء لأبي هذا المساء طمأنها اسماعيل قائلاً « سنشتريه لك ، ونوصلك الى البيت بسلامة لا تخافي كانت ساحة التحرير تموج بالناس وشارع السعدون ايضاً والمقاهي ما تزال مفتوحة الا ان الدكاكين بدأت تغلق أبوابها كان شارع السعدون غاصاً بالسيارات المزمرة الناعقة وكأنها حيوانات جريحة قالت ماجدة ضاحكة

— متى سيصل هؤلاء الناس الى بيوتهم ؟

قال السائق :

ومن يطبق منع التجول الليلة ؟ سيبقى الناس في الشوارع مثل يوم الحشر

الناس خائفة

– قلقون على جلودهم

اشترينا الدواء لآمنة من ساحة النصر وقالت آمنة عندما عاد اسماعيل بالدواء « اخذ منك درهماً زيادة قلت « بدأ التلاعب بالاسعار

كانت آمنة تسكن في بيت خلف الجندي المجهول حاولت ان ألمح اين تسكن بالضبط الا أنها لم تدخل البيت الذي وقفت السيارة عنده ولا البيت الذي وراءه وخجلت ان أراقبها حتى النهاية أعطى اسماعيل عنوان ماجدة للسائق وسرنا باتجاه المعسكر كرادة خارج ثم عدنا خلال شارع النضال نحو القصر الأبيض وفي الشارع المؤدي الى مستشفى السلام رأينا سيارات عسكرية ومصفحات وجنوداً يحرسون المدخل اضطرت سيارتنا أن تقوم بدائرة كبيرة لتصل الى بيت اسماعيل

دخلنا حديقة صغيرة ضيقة يطل عليها بيت صغير كبيوت الدمى مكون من طابقين اجتزنا ممراً ضيقاً الى باحة البيت الخلفية وارتقينا سلماً ملتوياً الى الطابق الثاني حيث يعيش اسماعيل كانت الحجرة مربعة متوسطة الحجم تكتنفها شرفتان ، احداهما كبيرة تطل على باحة البيت ، والثانية صغيرة تطل على الحديقة والشارع وملعب لكرة القدم عندما دخلنا ادار أسماعيل مفتاح الراديو وشرع يجمع بيجامته الملقاة على فراش غير مرتب ، وفوطة وجه برتقالية اللون ويعيد ترتيب الحجرة

ارتفع صوت الراديو بموسيقى الاستعراض العسكرية ، تلاها نشيد حماسي

جلست على مقعد وثير الى جانب خزانة كتب صغيرة ، والراديو
على بعد مترين مني واسماعيل ما يزال مشغولاً باعادة ترتيب الحجرة
يروح ويجيء بقامته الممشوقة الغضة كالحيارة متفتحاً لأن يُحب ويصادق ،
ولأن يضيف الناس ببساطة ، ولأن يكون شهماً بلا افتعال وعندما فرغ
من عمله وقف أمامي قائلاً

الآن سأهيء العشاء .. و هيك ؟

مضى الراديو يذيع آناشيد حماسية وموسيقى المارش الحادة قرع
الطبول تجعلني أحس وكأنني محمول فوق الارض ، في مسيرة طويلة لا
تبدو لها نهاية

الفصل الحادي عشر

— ١ —

استيقظت على عادتي ، في الصباح الباكر كان اسماعيل يغط في نوم عميق متدثراً ببطانية أشبه بفروة خروف إنسللت عبره الى الشرفة ، فرأيت الدنيا قد غطست في قعر بحر من الضباب الشاحب الزرقة كان الملعب قد اختفى ولاحت المصابيح التي لم تطفأ بعد مثل كرات من الفضة معلقة في الهواء . أو مثل أنجم تطوف في الهواء المائي متجمدة باردة ومع ذلك فقد كان الضباب منعشاً فواحاً برائحة زهرية عشبية مدغدغة للانف استحضرت لي روائح مشابهة اختزنتها حاسة الشم او الذاكرة لا أدري ! فجاءتني بالتداعي والتنادي والتناغم مع الافكار المجاورة والشبيهة حتى انفكت وشيعة الذاكرة والتفت حول عنقي كالاصلال ، لم ينقذني منها الا ظهور اسماعيل على باب الشرفة

— كيف نمت ؟

— بخير وبأحلام

— ومن لا يحلم ؟ على العموم اذاً لا تكون الاحلام كوابيس لا تضر بالصحة .

وكان في بيجامته القصيرة الأكمام مشعر ولو أن في صدره النحيل رقة انوثية خفت عليه ان يبرد هز ذراعه وقال زلمه ! وضحك وبدا عذباً طفولياً وأهلاً لأن يغازل ماجدة ويبادلها الحب

وظهر أنه قد نظم حياته جيداً بعد قليل جاءت زجاجة الحليب ورغيفان من الخبز وكان عنده مربى شهي. وفي الراديو كانوا يرتلون القرآن الكريم وكأنهم في عزاء وبدأنا نسترجع حدث اليوم الفائت جلس أمامي اسماعيل فقلت له

ما رأيك ؟

يا زلمه

وتعسر عليه رأيه أحرج ان يقوله بصراحة كان يضع رأسه في طاسة يديه المكورتين وحاجباه يبدوان فاحمين جداً

يا زلمه أنتم العراقيين حكايتكم عجيبة غريبة

كيف !

يبدو لي أنكم لن تكونوا دولة

بوغت بهذا الرأي قلت مدافعاً

ولكننا دولة بالفعل عضو في هيئة الأمم المتحدة

بالإسم أنتم شبح دولة وليست دولة

شيء مؤسف اذا كان هذا رأيك

ولو أن لكم امكانيات هائلة ياويلي يا زلمه . أي رجل ولو

كان بائع سكائر مهربة من الكويت عنده حس سياسي طيب ولكن ،
ككل يبدو ان بلادكم تنبت الفوضى

هل تعتقد ذلك ؟

العراق طوال حياته يسبح في بحر من الفوضى أنتم العراقيون ،
تعودتم على الفوضى ولا تحسون بها ولكن الرجل من الخارج يحس بذلك
رأساً

حتى بالنسبة للقادم من الاردن ؟

أنا من فلسطين يا زلمه الاردن جاءت بعد ولكن حتى للقادم
من الأردن

شيء موسف ولكن لنفرض فما تعليلك لهذه الظاهرة !

— مجرد ان التنظيم الحضاري ضعيف عندكم عندكم كل شيء ،
ولكن على شكل ظلال لا تثبت للتجربة ، عندكم دولة كما قلت ، ولكن
اركانها غير ثابتة ، ان لم تكن معدومة عندكم قوانين ولكنها بلا رصيد
من حماية وصيانة ، لا تملك قوة القوانين المرعية ربما لعدم اقتناع الناس
بها ومن ثم لعدم استعدادهم لمراعاتها والدفاع عنها انتم تحبون الديمقراطية
باللسان وتكرهونها من أعماق النفس ، او لا تثقون بها ولهذا ينهار
دفاعكم عنها بسرعة كل شيء عندكم لم يبلغ حد اليقين كل شيء قابل
للرفض والشك والاحتمال

انت تنظر إلينا وكأننا أحرار من كل الضغوط كأننا اسياد أنفسنا
انت تهمل جانب شراسة الحكام ، وسيوف الجلادين وأساليب القمع
التي استعملت ضدنا .

هذا مبالغ فيه في كل بلد عربي جلادوه وأنظمة القمع فيه. انت ترى بنفسك ما يجري في مصر الآن ومع ذلك فلا أحد ينكر أن هناك حداً لا يمن تجاوزه في مصر هناك أركان دولة وقوانين

القوانين تخرق في مصر ايضاً ربما استطيع أن اقرك بأننا اقرب الى البداوة من مصر أقرب الى العشائرية ولكن البداوة مرسبة العمق أو ذاك في قلب كل عربي هذا ماضينا لا ننكره

انت توافقني في النهاية يعني المسألة مسألة رسوخ التنظيم الحضاري. انه باهت عندكم أنا لا اقصد بالتنظيم الحضاري شيوع المدارس ولو ان ذلك يؤدي في الاخير الى ذلك ولكن الدعائم الثابتة من القوانين والعرف والانظمة الأخرى في العراق يبدو ضعفه واضحاً للعين قل لي اي قانون معمون عندكم ؟ أي دستور أي تقليد ؟

ـــ مغتاظاً

ولكن ذلك موجود في البلدان الأخرى

لا أظنه بتلك الدرجة الموجودة فيها عندكم ولهذا فان الاهتزاز سهل عندكم والاستقرار دائماً متعلق برجل قوي هو القانون الحي الذي لا يسمح لأحد بخرقه اندمج مع حياته وهو يتوصل الى ذلك لا بالاقناع بل بالقوة والاحكام العرفية . وما الى ذلك وحين يزول ذلك الفرد بغتة تعود سنوات الفوضى الى ان يبزغ رجل آخر وهكذا دواليك

سكت مدارياً الاحتجاجات في نفسي في كلامه خلط كثير مجموعة من الحقائق والأوهام ولكنه شهادة من الخارج ، على أية حال قلتُ بعد أن هدأت نفسي

أعتقد ان كلامك فيه تعميم كثير الفوضى ! من قال لك ان العراقيين. اي شعب آخر يحب الفوضى

–لا يحبها ولكن تعود عليها فلا يستنكرها . وحتى لا يكاد يشعر بها.

للفوضى رائحة كريهة تشمها كل الانوف أما اولئك الذين يفرضون أنفسهم قوانين حية كما تقول فهم اكثر زوالاً من كل قانون فقاعات ! تبقى ثم تفقس والحالة تختلف مع الوضع الآن . الشعب العراقي لأول مرة في حياته يجد رجالاً ليسوا من الطاقم القديم الذي تربى في عهود الانجليز يجد رجالاً من صلبه رجالاً ارتبط اسمهم بثورة عظيمة ، بعهد جديد وهذا شيء مختلف . نحن لا ننكر عليك أننا بسبب بداوتنا ميالون الى المبالغة في كل شيء . نبالغ في الحب والبغض في الخير والشر في البخل والكرم في الخنوع والمقاومة وهذه المبالغة مع جدة الحدث الحدث والحرية التي لم نرها في أي عهد من العهود القديمة جعلت من رئيس الوزراء رجلاً على ما هو الآن

ولكن المبادىء والقوانين ما مصيرها ؟

– مصيرها متعلق بالمستقبل متعلق بارادتنا

مصيرها معلق بيد رجل واحد هذا هو الذي ان أقوله انتم تتحدثون عن مكاسب الثورة إنها مكاسب في كف القدر هل تستطيعون ان تدافعوا عنها اذا تعرضت للضياع ؟

– نستطيع

– أنتم ربطتم المكاسب برجل واحد ، وهذا دليل على عدم ثقتكم بها ،

لتتبرأوا منها بسرعة ماذا لو حدثت ضجة وارتبك الناس ولم يعرفوا ما يفعلون ؟

لن يرتبك الناس لا تشك فيهم الى هذا الحد. المبادىء التي جاءت بها ثورة ١٤ تموز ستبقى ، وسندافع عنها فقط أن يستمر العهد الحاضر فترة معتبرة سيتعود الناس على الحرية . وسيجد الآخرون عسراً في انتزاعها منهم بل وسيجدون عسراً في اقناع الناس بعدم فائدتها وجدواها المهم عامل الزمن الزمن يستطيع ان يصنع المعجزات

سترى

وضحك اسماعيل هازاً رأسه وبقيت عنده الى الغداء. وبعده انتظرنا مجيء السيارة التي توصلنا الى مقر عملنا الا أن الشركة التي كان اسماعيل تتعامل معها لم ترسل له سيارة وفي الطريق الى الشارع للعثور على سيارة تاكسي قلت لاسماعيل

ما رأيك في ان أعرفك بسائق ينقلك كل يوم في الوقت المحدد ؟

— طيب زلمه هل تعرفه ؟

نعم ، وسيكون دقيقاً في مواعيده معك

وكان نوري قد شكا الي من قلة المورد وتذمر الشركة من ذلك

٢

وقضيت الليلة التالية عند اسماعيل والليلة التي تبعتها وليالي كثيرة من الليالي التي ساد فيها عصب العيون كنت أنام على الأريكة التي تنفرد بعد أن نسهر إلى ساعة متأخرة نتحدث أحاديث شتى ونحاول أن نعرف

كيف ستسير الأمور في المستقبل وكان اسماعيل يادفعني إلى التشاؤم مكرراً ومشدداً على آرائه السابقة انظر كيف توقف نبض الحياة حين تغيب رجل واحد ! الجميع مشدوهون وكأنما سُلبت منهم نعمة التفكير ينتظرون وقوع المصيبة أو حلول معجزة انتقلت الأركان إلى المستشفى

وكنت لا أوافقه العقول لا تتوقف عن التفكير وإن كانت لا تعلن عنه دائماً

وتوثقت علاقتي باسماعيل رغم نقاشاتنا الحادة ونمت صداقة جديدة رقيقة محترسة خارج الأفكار التي كنا نتجادل فيها ولا نتفق عليها خارج ذلك الواقع الذي كنا نشرحه ونشدد بما فيه من مغامز ومطاعن ونقاط ضعف ولو كنا نختلف على تحديد هذه المغامز والمطاعن ورؤية الخيوط البيضاء والسوداء فيه ومن خلال ذلك كله أدركت أن اسماعيل مثقف ويتقن اللغة الإنجليزية جيداً ثم أطلعت على الكثير من ذكريات حياته رغم ضنه بها وعسر انفتاح صدره عنها في الأيام الأولى من تقاربنا

من ذلك علمت أن اسماعيل من فلسطين كانت عائلته تسكن في رية صغيرة في قضاء يافا ومع كل ذكرى كنت أنتزعها منه كنت أزداد قعرفة بعالمه المحرم عليه الآن وعرفت مرابع الطفولة في مزارع البرتقال لمتغيرة روائحها وأشكالها مع فصول العام وحقول السمسم والذرة اوالفول والقثاء وذلك القطار الذي كان يمر فيالقرية في موعد محدد بدقة فيوقت الناس عليه أوقاتهم كان اسماعيل من أبوين مزارعين توفيا وهو صغير فكفله عمه الذي كان مشتركاً في أغلب الحركات الوطنية في فلسطين . فنما في وسط فوار متأجج عرف وهو صغير كيف تصنع الألغام مثلما تعلم ضبط الأعصاب . كانت هذه الألغام تصنع في البيوت

وتلغم بها سيارات الإنجليز وحين كانت تنفجر كان الإنجليز يجمعون أهل القرية المجاورة ويصفونهم وينظرون في عيونهم حتى إذا لمحوا أحدهم من أقل اضطراب أخرجوه ونكلوا به وقد وجد اسماعيل نفسه في مثل هذه الصفوف ومنها تعلم كيف يسيطر على نفسه مثلما تعلم الحقد وهو يرى هؤلاء الجنود يدخلون البيوت لتخريبها ويديرون الزيت على الطحين والنفط على السكر ويهدمون ويقتلون بدل الواحد عشرة حتى لم تعد ترعبه أشجار البرتقال وقد تحولت إلى مشانق مخصصة ، ومواقع تبصق الموت محاطة بالأسلاك الشائكة وشيئاً فشيئاً كانت أرض الوطن الزخبة تضيق وتصبح محرمات عليه حتى حرمت عليه القرية التي ولد فيها فأخذ يهاجر من قرية إلى قرية وفي عام ١٩٤٤ وهو في الرابعة عشرة حدث الشيء الذي هز كيانه كله

كان لاسماعيل ابن عم شاب وديع ميال إلى المسالمة لا يحمل حقداً لأحد تخرج من المدرسة ، وبدأ يعمل أمين مخزن في معسكر الإنجليز. وكان العربي الوحيد فيه وكان يقول الجميع أصدقائي وما دمت لا أوذي أحداً فلن يؤذيني أحد وفجأة خرج من البيت ولم يعد ولم تجد شيئاً جهود أهله في البحث عنه نشروا صورته في الجرايد وسألوا الأصدقاء عنه وبحثوا في جميع الأماكن التي يرتادها كان الناس يقولون تركناه في المخزن ولم يشاهده أحد يخرج منه وفكر أحد أقربائه بأنه ما دام لم يخرج من المخزن فلا بد أنه ما يزال فيه ومع القرائن والسوابق أخذ هذا الرجل عصا وبدأ يفتش في المراحيض فطن إلى أن أحد المراحيض مغلق دون سبب بحث في هذا المرحاض حتى عثر عليه مخنوقاً ، وملقى فيه

ويعلق اسماعيل بمرارة :

ليست المسألة إذن مسألة رد أذى ولا عداوة لدين سابق بل مؤامرة إفناء وإبادة لا يفرق فيها بين المسالم والمتفتح إبادة شعب بكامله من على سطح الأرض

— ٣ —

وذات مرة نفى أن يكون متشائماً في آرائه عن العراق

لا تحسب هذه المرارة تشاؤماً ولكنها نابعة عن حب قلت لك أن في العراق إمكانيات هائلة وهذا سأظل أؤمن به طوال حياتي والعراقيون ثوريون بطبيعتهم وأنتم مغالون في كل شيء عندكم أول حزاز هو الحجاج وأول ثورة إشتراكية وهي ثورة القرامطة

وضحك متصالحاً وقال وكأنه يسترضيني

أشهد أن لكم حساً أصيلاً في الأمور تعرفون جوهر المسألة والعلة المسببة جذريون رلة والله العظيم جذريون

وصمت رافعاً رأسه إلى الوراء ملقياً ذراعه على عليائه وبدا وكأنه ينظر إلى السقف إلا أنه قال فجأة مستسلماً لتداعي الأفكار في ذهنه

— أتعرف سأروي لك حادثة من حياتي الخاصة عندما دخلت الجيوش العربية إلى فلسطين عام ١٩٤٨ كنت فتى في الثامنة عشرة لم أتخرج بعد من الكلية الراشدية في القدس .استقبل الفلسطينيون هذه الجيوش بدموع الفرح وبالهلاهل كما تقولون أنتم في العراق إن هذه الجيوش جاءت لتنقذ فلسطين وشعبها . صار بعض الناس يبيعون بنادقهم قائلين

ما نفع البندقية إذا كانت هناك مدافع ودبابات ؟ كانت الجيوش العربية تتقدم بنجاح وكان عمي يعمل في منطقة الجيش العراقي وكنت أصاحبه في أحيان كثيرة كانت للجيش العراقي مدرعات بسيطة ولكنه كان مرهوب الجانب استرجع منطقة جنين وتقدم ليحتل وادي بيسان واتخذ مواقع استراتيجية وتقدم حتى وصل منطقة طولكرم إلى البحر المتوسط في ناتانيا ولكنه تلقى فجأة أمراً بالإنسحاب إلى مواقع إلى الخلف فوقف عند المثلث العربي بعيداً عن الساحل بعشرة كيلومترات وأخلى رأس العين الذي كان قد احتلها والمجدل الصادق كما أخلى الجيش الأردني بقيادة «أبو حنيك اللد والرمله ومطار الرملة الدولي في معركة شكلية وانقلبت المعركة المظفرة إلى تراجع خبيث مدبر بعد معارك صورية وندم الناس لأنهم وثقوا وباعوا أسلحتهم طلب ضباط الجيش العراقي من المناضلين في منطقته أن يتعاونوا معه عندئذ تعرفت على ضباط عراقيين هم الآن في السلطة اشتغل عمي مع أحد الضباط العراقيين في رابيه نظم الجيش العراقي المسلحين في كتائب وسرايا وكنت أنا في سرية عمي كان المناضلون الفلسطينيون على خط الجبهة وخلفهم الجيش العراقي بأسلحة المساندة كنا نهاجم والجيش العراقي يساندنا ولكن كنت أحس بالمرارة في كلام ذلك الضابط العراقي كان يقول ان المعركة تجمدت وإنها إذا كانت لا تستند إلى حكومات وطنية ديموقراطية فانها لا تتقدم كان يتذمر من بقاء الجيش العراقي في الخيام وقد منع من إطلاق النار كان المصريون يقعون تحت نار حامية والجيوش العربية ساكنة وكان الضباط الإنجليز في الجيش الأردني يضربون مواقع الجيش المصري ذات مرة فتح العدو النار على جنودنا من مواقعه القوية وكانت أسلحته جديدة وثقيلة تلفنوا الينا يبلغوننا بوقوع العديد من الجرحى والقتلى كان

الضرب شديداً وأسلحتنا خفيفة قديمة جاءنا الضابط العراقي وهو متألم جداً يكز على أسنانه من الغيظ وصاح في بغداد لا يعطوننا أوامر لإطلاق النار وأنتم تتساقطون قتلى وجرحى فكيف يرضى ضميري بذلك ؟ سآخذ الأمر على مسؤوليتي وليكن ما يكون وقاد وحدته وسار بها في أرض مكشوفة وأسكت نار العدو وعاد وقال ولكن المستقبل لكم لن يبقى هذا الليل بلا آخر إلى الأبد ستمسك الشعوب العربية زمامها بيدها لقد كانت له تطلعاته وإحساسه وحدسه الصادق وإدراكه لجوهر المسألة وتلك خاصية موجودة بكثرة بين العراقيين

الفصل الثاني عشر

— ١ —

أخذ داود يتحاشاني كنت أراه يسلم خطفاً ويفلت رغم أنني كنت آتي إلى الوكالة قبل الوقت بساعة لأخلو به كان يتظاهر بأنه مشغول ويخرج بصورة مفاجئة بعد أن يلقي عليّ « إلى اللقاء » عابرة وعلى الماشي هل كان يعرف أنني بحاجة اليه وأنه المفتاح إلى مشكلة تؤرقني ربما فطنت آمنة إلى دهشتي حين نطقت باسم أبيه فنقلت ذلك اليه واعتبر ذلك إلحاحاً وسماجة فتح لي شقاً كبيراً في صدره فطمعت بأن أوسعه بيدي لغاية في نفسي أو ربما لم تقل له ولكنه كان لا يجد ميلاً للخلو إليّ مخافة أن أفتح الموضوع من جديد فيبتذل ويصبح مضغة في لساني أو لعله شعر بميلي إلى آمنة اعتبر مجيئي مبكراً طمعاً في الخلو بها وكره ذلك كرهي وكرهها وكظم غيظه وداراه بالتخلص مني وأنا أيضاً كنت أحس وكأنني أقدم على أمر منكر تمتص الحراجة دمي وتحل أعصابي كيف تذكر الناس بما ينغص حياتهم ويأكل قلوبهم، حتى كان ذلك لغرض بريء منزه من كل طعن مجرد أن تجد عائلتك، وتعود إلى عطفها عطف؟ من قال لك أن داود يؤمن بذلك؟ الحياة خالية من العطف، وفي غير حاجة اليه. الحياة عصامية وانفراد بالذات

ولم تعد آمنة تتحدث عن داود لم تعد تتحدث عن أي واحد من البشر كان كلامها مبهماً تمتمة أحياناً وإذا تكلمت جنحت إلى الأسئلة تلقيها تباعاً وبلا ترابط كان القلق يلهوجها ويفتت ما كان متماسكاً في ذهنها كانت تبحث عن شيء تتشبث به وتستند اليه ماذا سيحدث للعالم ؟ هل ستفترسه العناصر المشبوهة العاملة في الظلام ؟ أم ينقذه منقذ هو الآن في طيات الغيب أم يعود الحاكم بفكرة جديدة أكثر حزماً ومعقولية. وأقرب إلى دنيا الناس وأفكارهم وهواجسهم أم يظل الحال على هذا المنوال فوضى جعجعة فارغة صراخاً يثير الأعصاب ويظل الناس لا يعرفون ما يخبيء القدر لهم في الغد البريء منهم يؤخذ بجريرة المسيء أو يهان وتكال له أبشع التهم ويسلق بألسنة السوء لقد انقلبت رزانة آمنة إلى جهامة والبسمة المطلة من عينيها إلى لمعة دموع توشك أن تنفجر

وماجدة أيضاً كفت عن ضحكتها العسلية خفضتها إلى بسمة خجول مستحيية تطل من شفتيها وعينيها على السواء وكانت ترنو إلى الديك الفلسطيني وكأنها تقرأ قسمات وجهه وتقيس عليها تصرفها وتستشف منها ما يرضيه او يكدره وصارت بيني وبين اسماعيل إشارات خاصة لها علاقة بجدالاتنا في ليال سابقة كأن يقول حين تأتي الأخبار في الساعة المحددة «تنظيم حضاري وحين تتأخر «متعلقة برجل واحد يقصد الساعي الذي يجلبها من الإذاعة حيث وضعت آلة الالتقاط حين تشتغل ماكنة الستنسلات قبل الوقت المحدد وتضج ضجيجها الكريه تبللنا بدش من الفوضى ولكن المبلل لا يخاف من المطر

بقيت حائراً لا أعرف السبيل إلى قلب داود إلى خلوة يكاشفني فيها عن سر أبيه وفجأة جاء الفرج من شخص غير متوقع من مدير الوكالة .

دعانا جميعاً إلى الغداء بمناسبة عيد زواجه العشرين وقلنا فيما بيننا هذا أول رجل يحتفل بمثل هذا اليوم احتجت ماجدة قائلة ان هذا اليوم بالنسبة له عيد ميلاد ثان قلت معلقاً وربما أحسن لأنه في الأول لم ير الدنيا بوضوح بينما في الثاني رآها بكل علاّتها ومشاكلها

لم تعجبها النكتة فاكتفت بابتسامة شاحبة ورنت إلى اسماعيل

جلسنا إلى مائدة مستطيلة احتل المراسلون جانباً، والمترجمون ومعيتهم الجانب الآخر بينما جلس المدير وزوجته على طرفي المائدة وفاحت روائح زيوت غريبة ، منها ما يستخرج من عباد الشمس ، وما يستخرج من السورغو ، ومن الكتان تعمدت الجلوس قرب داود قائلاً له

– سأداريك

قال بنفور

– لست من حلاسها لتداريني

– المائدة لا تحفل بالخمرة وحدها

كان على المائدة عدد كبير من الأطباق ولونان من الخمرة « الجعة البغدادية وخمرة بيضاء أجنبية موضوعة في صحيفة صغيرة منقوشة نقشاً غريباً قال المدير يصفها

– إذا ترجمتها إلى العربية كان معناها « عظام الآلهة

قلت

– ربما تقصد « نخاع الآلهة ؟

– بالضبط . . نخاع الآلهة . . . ماذا نبدأ بالنخاع أم ببيرة « فريدة ؟

سكت الجميع خجلين قلت

أما أنا فسأبدأ بنخاع الآلهة لأهضمه بفريدة

قال اسماعيل

– أنا لا أشرب شيئاً

وكذلك امتنع داود ووضعت آمنة راحة يدها على قدحها وفعلت ماجدة مثلها إلا أن اسماعيل همس لها فرفعت يدها من قدحها خجلة فانسكب السائل الشعيري الأصفر متلألئاً محبباً مزبداً بينما كان المراسلون ومعينهم أشجع منا ابتسموا جميعاً لنخاع الآلهة حين صُبَّ في أقداحهم شربنا القدح الأول نخب عشرين سنة أخرى من المحبة الزوجية، على أن لا تكون الأخيرة كان «نخاع الآلهة» حارقاً كأقوى البهارات الهندية أحسست به يشق حلقومي، إلى المريء مشعاً في الصدر داخلاً إلى المعدة، قافزاً منها إلى المخيخ سمعت نحنحات وسعالاً ومضت لحظة صمت هي في الحقيقة لحظة انبهار واحتباس الأنفاس قال بعدها المدير

– ما رأيكم ؟

– قوي .

لا ابداً انا أستطيع ان اشرب علبتين من هذه العلب

قلت شاعراً بدوار خفيف في الرأس

– لا بد انك احد أبطال ريمارك من قرأ قصة «قوس النصر» ؟

لم يقرأها أحد بينما نظر الي اسماعيل مستطلعاً .

قلت

– أما انا فقرأتها وأعجبت بها واشتهيت خمرة «كالفادوس» التي كان يشربها البطل «رافيك» بشراهة تصوروا في ليلة واحدة شرب مع صاحبته زجاجتين كاملتين، وبعد منتصف الليل خرج صاحياً يبحث عن زجاجة ثالثة

قال شخص من المراسلين

– شجاعة ! وفي منع التجول ؟

لا ، لم يكن هناك منع تجول

– لم يبتكر بعد .

قال داود

– كان مبتكراً حتماً اتعرفون ما هو أول منع تجول في الاسلام ؟

قال المراسل

– في زمن السفاح

– لا عندما دخل النبي مكة . فأعلن من دخل بيت ابي سفيان فهو آمن

ضحكنا وقال اسماعيل

–دعونا نسمع حكاية كريم . ماذا جرى بعد ؟

– حسناً وكم وددت ان اذوق تلك الخمرة التي يمجدها ريمارك ! وفي طريقي الى هنا ، توقفت الطائرة في زوريخ ، فهرعت الى البار وطلبت كالفادوس لم تكن كالفادوس معروضة في البار ولكن الفتاة

الحسناء جلبتها لي على أية حال في رجاجة كبيرة ، وصبت لي قدحاً صغيراً فقلت اريدها مضاعفة

طسع

– تناولت الفتاة كأساً اكبر وصبت لي سائلاً بنياً صافياً كالبيرة وعندما جرعته احسست بأنني صببت صودا كاوية في حلقي أوه يا ربي ! كيف يستطيع مخلوق من البشر ان يتحمل جرعة واحدة من هذا ! وعندئذ عرفت ان القصة على العموم ، مجموعة من الاكاذيب تشبه الحقائق . ولهذا يفشل قصاصونا في العراق لأنهم يكتبون حقائق تشبه الاكاذيب

قال اسماعيل ضاحكاً

– العتب على الفن

– العتب على التنظيم الحضاري

بدأ « نخاع الآلهة » يختلط بنخاع البشر على نحو مونبس ومطرب ولكنه كان يقطع حبالي مع الآخرين في الكأس الثانية قالت آمنة :

– كريم انطلق

– ألا تريدين لي ذلك ؟

– في حدود معينة

– ارسمي لي هذه الحدود حتى لا أخرج عنها

– ومن انا حتى أرسمها لك ؟ أرسمها لنفسك

– حسناً سأشرب الثالثة والأخيرة ... نخب المستقبل !

الحر أم المربوط بالرباط المقدس

– المستقبل بشكل عام احتمال الشقاء في الحالتين موجود

نحنحات أخرى ووشوشات قال احد المراسلين

فيها طعم لا أستطيع ان أتبينه

قلت

أما أنا فيذكرني بنوع من الخشب حين ينقع في الماء .

– أي خشب ؟

قلت متخلصاً من الاحراج

–لا أعرف ربما خشب الشوح

قال المدير يسعفني

فعلاً يدخل في تركيب هذه الخمرة بعض الاعشاب التي تكثر في غابات معينة ربما فيها هذا الخشب لست خبيراً بالاخشاب

قالت ماجدة باسمة

– ولكن كريم من اين يعرف هذا النوع من الخشب ؟

رفعت بصري اليها فرأيت كتفها ملتصقة بكتف اسماعيل قلت مهتبلاً الفرصة

– أنا الذي تربيت قرب سكلات الخشب ، ولا أعرف اسماء الخشب ؟ حقاً من يفطن منكم على سكلات الخشب ؟

لم يجب أحد تلفتّ في الوجوه وقع بصري على رأس داود المدور كان يهزّه هزة لا أعرف هل هي اثبات ام انكار كررت قولي متشبثاً

هل تذكرها ، يا داود ؟

همس في أذني ، وكأنه يريد ان يتخلص من إلحاحي

– نعم في قديم الزمان كنت أمر على أحد دكاكينها الخربة أمسكت بيده وهمست مثله أي دكان ؟

نظر الي ، وكأنه يتعجب من إلحاحي كان صمته يعذبني ولكنني مضيت والحمرة تسري موجات جسورة في دمي

– اي دكان ؟ أنا اعرف كل الدكاكين الموجودة في سكلات الخشب دكان حسن الحلاق وغلام الصباغ ، وسعيد ابو الفحم ، ورجب القندرجي

هز داود رأسه نفس الهزة الغامضة وقال هامساً

– ولم كل ذلك ؟

همست له ، وصار حديثنا سِراراً

– ربما سيكون الحظ بجانبي فيكون رجب القندرجي

قال بهمس بارد

– ولم سعادة الحظ هذه ؟

– لانني أبحث عن رجب منذ وصولي الى هنا . لأنه المفتاح لمعرفة أهلي . قل لي أرجوك .

لم تكن في عينيه المستديرتين المحدقتين في أية نظرية ولا استجابة للهفة الجمود يسمر وجهه خيل الي أن هذا الجمود مثل درع حصينة يتراجع وراءها اذا لاح في الافق شبح اهانة او ازعاج تائه

– وهل هو ضائع لتبحث عنه ؟

بالنسبة لي ضائع مفتاح ضائع لقلعة همومي هل تريد ان احكي لك ؟

رفعت رأسي لأرى ماذا يفعل الآخرون ، استعداداً لأن احكي له قصتي كان الآخرون مشغولين في هموم اخرى وآمنة تتحدث مع ماجدة حديثاً جدياً عندما هممت بالحديث أوقفني داود قائلاً

لا أريد ولكن اذا كان رجب لم يمت حتى الآن ، فانك ستلقاه أعمى في قهوة الكرك

– ٢ –

وتبين ان مقهى الكرك يقع في مكانين قرب النهر احدهما على الشاطىء تماماً حيث وجدت حمالين كثيرين . وأطفالاً مشردين وشرطياً مسود البشرة ممصوصاً كأنما قضى حياته كلها لا يبارح الشاطىء . دخلت المقهى الضيق بتخوته العرجاء وأناسه المضوضئين ، الباصقين الماخطين ، الذين لا يمتون بصلة الى عالم التجارة وكاركها لم أجد احداً يشبه رجب القندرجي من بعيد أو قريب فذهبت الى المكان الآخر الكائن في عنق السوق دخلته من باب جانبي عبر حباب الماء الآخذة بالجفاف وفي الظلمة المخمرة ، النفاذة الرائحة رأيت شيوخاً يسعلون وينفثون دخان نرجيلاتهم جلست على تخت فارغ مقابل الباب الرئيسي ووضعت رجلاً على رجل

لأرفع الكلفة وأخرجت من جيبي سبحة اشتريتها مؤخراً بنصف دينار وصرت وكأنني من رواد المقهى اخذت أتطلع في أرجائه بعد ان تعودت عيناي على ظلامه لم اجد رجباً بين شيوخ المقهى ولكني وجدت مَن يشبهونه وربما هم زملاؤه جاءني قدح الشاي دون طلب مدته اليّ ذراع هزيلة طويلة بعد ان سكبت على الارض ما تناثر منه على الماعون بحركة بارعة قامت بها كف واحدة انشطرت شطرين ، باصبعين أمسكت بالقدح وبالاصابع الأخرى مالت بالماعون ترددت قبل أن اتسلم القدح ثم عنّ لي أن في مثل هذه المقاهي لا يقدم الا الشاي و «الحامض» كان الجايجي ينظر الي سألته بالمناسبة عن رجب القندرجي فقال

اي نعم هسه على جيه

زرع هذا الجواب التوتر في اعصابي كأنني فوجئت به . كأنني كنت أعبث والآن سيطل عليّ من الماضي وجه أعرفه وكأنه خارج من قبر شربت الشاي بثلاث جرعات ووضعت القدح بأصابع عصبية على الطاولة امامي ونظرت الى الباب ، بانتظار قدوم رجب

هجس بي هاجس بأنه لن يأتي وحده سيأتي معه شخص آخر يعرقل استجوابي له او ربما سيأتي معه ابي ! وستكون مفاجأة أول مفاجأة سارة في حياتي .اهذا كثير على القدر؟ سيأتيان معاً. ويتخطيان تلك العتبة الصغيرة ، شيخين أحدهما اكبر من الآخر ابي محلة واحدة امحت من الوجود يرتبطان بذكريات مقاه كانت عامرة من قبل أو ربما بشتائم وزعلات قصيرة على ما اعتبر تزويراً في لعبة طاولة ، او ضربة حظ في لعبة الدومنة أو خطأ في عد الشايات المكسوبة بما حذاء حك قدمي بجلده الجاسي وأنا صغير لأن قدمي لم تكن « ترهم على قالب وغير ذلك من آلاف الذكريات الصغيرة والآن سيبرزان أمامي يتحديان الهدم والهرم وسأهش

وأبش بهما ماذا سيقول أبي حين يراني ؟ بما لا يعرفني من الوهلة الأولى .
انا ابنه البكر لا يعرفني من طول الغربة سيتطلع الي ببصره الضعيف حين
أناديه « يابه ! وأرى عينيه الصغيرتين تستديران وفكيه المشعرين
يرتجفان وربما ارنبة انفه ايضاً كانت ترتجف عند الانفعال الشديد
« هذا منو كريم اي ، يابه آني كريم ونتعانق ويبكي أبي
وربما انا ايضاً ويضحك الآخرون لا ربما لا يكون اللقاء بهذا
الشكل قد يقابلني بوجه جهم جيت وراح تجيب المشاكل علينا.مو كنا
مستريحين منك وبهيجي وقت جاي ؟ او لا ربما لا هذا ولا
ذاك .. سيلتقي بي لقاء فريداً يختلف عن كل توقعاتي وتصوراتي تماماً مثل
كل الاشياء التي أتوقعها في شكل وأجدها في شكل آخر اقلب كل
الاحتمالات في ذهني وانخيل كل الملابسات واذا بي في احتمال لا على
البال ولا على الخاطر

شعرت بيد تمسكني كان الجايجي يشير بيده الى هناك حيث وقف
شيخ وصبي كان الأول يمكن ان يعتبر صورة مهزوزة من رجب القديم

جلس رجب على تخت عند الباب متوكئاً على ذراع الصبي وظل
برهة منكس الرأس مكوماً على التخت محلول المفاصل وكأنه في
قبضة ألم ووهن ينتظر ان تنفك عنه والصبي واقف إلى جانبه ينظر في
أرجاء المقهى وكأنما قد أوصل الامانة وأدى واجبه ولا يهمه الآن
ماذا يحصل لها حاولت ان اتذكر اين رأيت هذا الصبي كان يرتدي
دشداشة زرقاء متلمة وسترة خضراء سميكة فضفاضة ثم شتمت نفسي
لأنني عدت الى سخافتي القديمة في تصور الناس ، وكأنهم لم يكبروا ولم
يلدوا أطفالاً جدداً في غضون ستة اعوام وانا وحدي ركضت في دروب
العمر .

رفع رجب رأسه قليلاً ونظر الى المقهى من خلال حاجبين كثيفين رماديين وهمس للصبي بشيء انصرف الصبي غير عجلان وظل رجب على التخت وحده

حدقت به هذا ما أبقت السنون منه هيكلاً عظمياً ضخماً ورأساً مستديراً جباراً ذكرني برأس داود ولو انحسر ذلك « اليشماغ الملفوف على رأسه برخاوة المقبقب على الجانبين لرأيت صلعة الاب حتماً أكبر بكثير من صلعة الابن المبكرة ثم ذلك الأنف الصغير المستدير المطل بتواضع كزر أحمر صغير فوق شارب أشيب تختلط حدوده بشعر الوجه النامي او رأيت رجباً في الشارع لما عرفته يبدو انني لم أره منذ كنت في الابتدائية

جاء الجايجي فوقف أمام رجب وتنحنح بقوة رفع رجب رأسه فانحدر « اليشماغ على علباته وانكشف نصف رأسه الاسمر اللامع أخرج كيساً اسود من مكان ما في صدره ومده باتجاه منحرف عن المكان الذي يقف فيه الجايجي أدخل هذا يده في رأس الكيس وأخرج حفنة من التبغ داكنة اللون ، وضغطها في يده ولف الكيس ثانية ووضعه في يد رجب التي كانت ممدودة حتى قبل أن يفرغ الرجل من العملية تناول رجب الكيس وطواه ووضعه في مكانه المجهول ولما انصرف الجايجي رمقني ثانية . خفت ان يظن بي السوء . نهضت ، وتقدمت من رجب وناديت وأنا ادلي رأسي عليه

— مرحباً ، عمي رجب !

لم اتذكر انه كان يسمى بـ « ابي داود ولا أعرف لماذا تبادر الى ظني أنه كان يسمى باسم ابنته .

رفع رجب رأسه قليلاً وقال

هلا

ونظر اليّ بعينين مستديرتين مانعتين زلاليتين وكان يبدو انه يرى شبحي ، ولكن لا يتبين ملامحي انه ، كما قال داود ، قليل البصر او كالاعمى حين لمحت رأسه يأخذ بالانخفاض مرة أخرى، قلت له

عمي رجب ، تعرف منو اني ؟

منو ؟

جلست بالقرب منه على التخت

– أنا ابن داود الغزال

– ابن من ؟

– ابن داود الغزال

– دكتور ؟ – وأشاح وجهه عني – الله يلعنك ، يا مهديه بالقهوة ، وملاحقتني بالدكاترة ماريد ماريد

جفلت من هذا الرد ، وهممت ان انهض قبل ان يوجه ثورته علي .

عمي رجب أنا مو دكتور

– مو دكتور ؟ لعد اش جابك عليّ ؟

– انا وحدي جئت

– ولويش ؟

– أريد اسألك على والدي .

والدك ؟ ها المرة أنا صرت دكتور

وضحك رجب كانت ضحكته موجهة لي ، طعنة فقد لفتت أنظار بعض الناس اليّ فلم يعد الكلام معه مريحاً سكت محرجاً أريد ان أغوص في تختي وانسل من المقهى غير ملحوظ مسح رجب شاربه وفمه براحة يده . والتفت الي ، وقال مستغرباً

– ابوك منو ؟

قلت بصوت مرتجف

– ابويه صديقك داود .. داود الغزال كان يمر على دكانك بشارع الكيلاني ما تذكر عمي ؟

– من ذاك الوقت ؟ عمر كلهم راحوا بس آني بقيت

جاء الجايجي بالنركيلة ووضعها أمام رجب بعد أن قرقر فيها مرتين او ثلاثاً ثم مسح المبسم وسلمه لرجب الذي أطبق عليه يده ، ورفعه الى فمه في الحال . راقبته يمتص مصات خفيفة نافثاً الدخان رأساً وكأنما ينفخ في نار خامدة ولما استوى له ذلك ران الارتياح على وجهه أخرجت علبة السكائر وشرعت أدخن ايضاً متوسلاً بشيء من الارتياح بدا رجب وكأنه نسيي كان يتلذذ بالدخان وبالسعال الذي صار ينظف صدره بحشرجة خفيفة . الا انه التفت اليّ وحاول ان يتحدى ضعف بصره ويراني يظفر بملح قديم يعرفه بي ثم قال بلهجة هادئة هذه المرة أو مخدرة

– وليش عجب تذكرت ؟

– عمي رجب ، كنت في الخارج ما تذكر لما كنت أرسل لأهلي رسائل بواسطتك .

بواسطتي ؟

يعني لدكانك

— يادكان هذا ؟

دكانك بباب الشيخ

— وليش آني تنعمت بذاك الدكان ؟ بعته للخلفه من زمان ما كنت أشوف بعيوني حوبة مهدية

وأطبق فمه على المبسم مثل طفل على مصاصه وبقبق الماء في الشيشة قال رجب بلهجة مستغربة :

— وين جئت ؟

كنت بره بالخارج أدرس

— دكتور

لا أدرس تاريخ

— وبعدين ؟

جئت واذا محلّي ممسوحة وأهلي ما أدري وين

— من ذاك الوقت وانت بره

— من ذاك الوقت

— جيت وايدك فارغه ؟ هذا يا تاريخ يطلع

ضحك رجب ضحكة مقتضبة ثم اكتسى وجهه المستدير جدية الشيوخ وقال

وهسه شي تريد ؟

أريد اعرف وين أهلي

ما تعرف وين ؟ وأنا شمعرفني بيهم ؟ محلة وتركتها قبل ما يكصوها. ما جيت عليها الا لما شيعنا داود الغزال

ابويه مات

ابوك ؟ ما تدري ؟ هذا شلون ابن اجرب

ثم تكلم كلاماً فظاً منحوساً ، وقرقرت النركيلة ، وخشخش السعال في الصدر ، وكل ذلك وشوش في اذني مثل كورة من الزنابير كنت أريده ان يصمت ، أن تسكت النركيلة ، ان يهدأ العالم لحظة لأخلو الى الخبر الا ان رجباً مضى يدمدم دمدمة مفزعة ، متشكياً ، ناعياً شاتماً اياي سكت على مضض مسلوب الارادة ، فقد تساوى عندي كل شيء . فان أفجع عقوق بالنسبة لإبن هو ان يموت أبوه وهو لا يعرف به ، ان يمضي الى قبره دون ان يسير في جنازته ، ان لا يلقي النظرة الاخيرة عليه ، النظرة التي تنحفر بالذاكرة ، ولا تتكرر أبداً أنْ لا يبكي في نواحه ، والمصاب حار وهو مسجى في الفراش قُلْ للجميع ماذا شعروا حين توفى شخص عزيز عليهم ، فسيقصون عليك تاريخ اللحظة الأخيرة ؛ أما الآن ، وبعد مضي مدة طويلة على وفاة أبي ، فقد انحبس الدمع في عيني وتحول الحزن كله الى جمود صخري

— ٣ —

تركت رجباً وأنا لا أعرف الا شيئاً واحداً هو ان أبي قد توفي في غيابي فلا أنهم قد تركوا البيت بعد وفاته . لم يعرف رجب شيئاً

من ذلك باع دكانه منذ زمان للخلفة حوبة مهدية من مهدية هذه ؟ ألعلها ام داود ؟ وحتى الرسائل لم يكن يعرف بها كان يهذي يطرق مواضيع متنافرة متشكياً من امانة العاصمة ومن الاطباء

تركت رجباً ، وأنا لا أعرف اين اتجه كنت على موعد مع مهدي عبد الصمد موعد تثقيفي على ما أظن . ولكن أية ثقافة تدخل في رأسي الآن ؟

اتجهت الى حمام المالح في أزقة بغداد أصداء عمري كل الروائح والظلال هنا فيها شيء مني ومع ذلك فقد مر في مثل هذا الزقاق تابوت أبي ، ولم أسر وراءه من سار وراءه ؟ خمسة أو ستة اشخاص ، وابنه الكبير ليس بينهم . يا للقطيعة ! لو كان الابن الأكبر هنا لخجل الناس وساروا وراءه بكثرة فالناس لا يسيرون في الجنازة احتراماً للمتوفى فقط ، بل خجلاً وحراجة من الاحياء ايضاً اين كنت في تلك اللحظة ؟ وجدت من الاثم ان افكر في ذلك . ربما كنت في حانة ، او أضحك ملء فمي ، او ارتكب موبقة كل شيء جائز لأن تلك اللحظة من عمري مرت دون تسجيل مرت ضائعة دون هوية

سمعت من ورائي تحية التفت فرأيت كاكة حسن يلوح لي من علياء دكانه مررت دون ان أبادره السلام فسلم هو عتاباً كنت معزولاً عنه كنت معزولاً عن البشر كلهم. فعندما يتجمد فيك كل شيء ويتحجر ، أسفاً على شخص لن تراه ابداً ، فان الاشياء حولك تفح برودة ، ولا ترتبط معك بوشيجة غريبة عليك ، عجماء ، جافة ، لا أمل فيها

دخلت البيت ذا المجاز الطويل . استقبلتني هدية في الحوش

— شفت لك ناس آخرين غيرنا ؟

عدت الى دنيا الناس وتذكرت

البارحة كنت نائماً عند صديق

سمعت سعالاً من الداخل . سألت أهذا هو العم نوري ؟

نعم ، لم يخرج الى الشغل لأنه مريض

دخلت الليوان ، ومنه الى الحجرة لأسلم على نوري

خير ان شاء الله سلامات

صبحت من الصبح وكأني وقعت من السطح بالليل نمت عند اسماعيل ؟

أجبت بنعم فقال وكأنه يعتذر من ضعفه

صديقك اسماعيل رجل طيب سينتظرني اليوم ، ويتعطل على الشغل مشيت معه مثل الميل الساعة الثالثة والسيارة أمام بيته . اليوم أول مرة اتأخر عليه يمكن ان تخابره ما عنده تلفون ؟ خابر الشركة المحروسة

طمأنته الى اننا سنلتقي بعد ساعة كان نوري راقداً في سرير عريض من الحديد الأسود يستند على حائط زُين بحصران صغيرة عليها صور لواجهات مساجد ، وطيور غريبة وغزلان تنحى ليدع لي مكاناً أجلس فيه على السرير رفع جسمه على يديه ، واستند الى مخدة طويلة بعرض السرير وانحسر الثوب الابيض عن ذراعين هزيلتين كان وجهه نحيلاً غير حليق وبلون الشمع وكانت عيناه الصغيرتان تلوحان في الظلمة الخفيفة أكثر اتساعاً ولكنهما بلا بريق

دخلت هدية علينا وقالت :

– ما دام كريم في البيت فسأخطف رجلي الى السوق

سألته عندما ذهبت

– ماذا تشعر يا عم نوري ؟

– ماكو شيء . ماخذ برد . الدنيا صارت باردة ، وعظام الشايب تخاف من البرد

لأول مرة اسمع منه شكوى من تقدم العمر من الضعف والوهن قلت

– لا بأس عليك ستتعافى

– سأتعافى انا اعتبر نفسي مثل الحصان الاصيل ، اصالته لا تتبين الا في الميدان ولكن الحصان بيني وبينك ، يعجز ايضاً

– هذا كله من أفكار المرض عندما يمرض الانسان تنتابه أفكار مزعجة ، أنت ما تزال قوياً

– قوي انا أعرف مثل سيارة عنتر ناش ولكن ، بيني وبينك هذه السيارة عتقت ، مشت هواية في الطرق الصعبة اكلت حلاوة عمري تعرف ليش يوزعون الحلاوة على روح الميت ؟ لأنهم يحسبون أنه أبقى من حلاوة عمره شيئاً يوزعه للناس بس انا اكلت حلاوة عمري كلها عندما أموت سأقول لهدية ألاّ توزع حلاوة على روحي

قلت مشجعاً اياه

– هذه أول مرة اشوفك بهذه الافكار كل ذلك لأنك مزكوم ؟

حسبي اخاف الموت ؟ شايب وبخاف الموت ؟ لا ابداً ولكن اخاف النوم الطويل على هذا الفراش الملعون

— غداً ستشفى ، وتنقلنا الى العمل

— سأشفى والشيخوخة ليست عيباً اتمنى لكل الناس ان يعيشوا عمراً طويلاً ولكن كل ما اخشاه ان اصير مثل ذلك الحصان العجوز

—لا أعرف عم تتحدث يا عم نوري

— أتعرف ماذا يفعلون بالحصان عندما يعجز ولا يستطيع أن يركض أو يجر عرباته ؟ يأخذونه الى البرية ويتركونه هناك وحيداً ليموت مسكين ذلك الحصان العجوز التائه في الصحراء يسمع نباح الكلاب ونعيب البوم ، ولا صوت حصان اصيل الى جانبه مثل هذا الموت لا تتمناه حتى لعدوك

قلت مواسياً ، وقد زاد من اساي

— يا عم نوري ، أنت عملت أشياء كثيرة في حياتك ويجب ان تكون سعيداً لانك شققت طرقاً على حد قولك كم من الناس يسعدهم الحظ ليشقوا الطرق للآخرين ؟

هز رأسه ، ووضع يده على صدره ، وقال

— عندما كنت شاباً ، وأنا وراء الستيرن ، لم أكن اعرف انني اشق الطرق كنت اشتغل فقط عندما كبرت صرت مثل مأمور بلدية ، اتكلم عن شق الطرق الانسان اللي عنده شغل لا يفكر بغير شغله

— ستشتغل حتماً .

كلامك يعطيني حرارة

– هذه حرارة إيمانك يا عم نوري ، نابعة من الداخل ولا أحد يعطيها لك

– الإيمان أشهد بالله يعطي أحسن حرارة

– أنت دائماً ، تتحدث عن الإيمان وهذا يعجبني منك الإيمان شيء عظيم

– هدية دائماً تتحدث عن الخسارة والربح اش حصلت ؟ اش كسبت ؟ إذا من جهة الفلوس أنا لم أكسب شيئاً الإنسان دائماً يريد الفلوس حتى لا يكون معتازاً العوز أكبر ذلة بس الفلوس لا تشبع قلبك ، ولا تعطيك الإيمان ولا تدفيء عظامك أكو ناس عندهم ذهب الدنيا ولا عندهم ذرة إيمان

وكأنه تعب فقد قال الكلمات الأخيرة بصوت خافت ومغمض العينين تقريباً ولا أعرف لماذا بدا لي أنني أمام فراش الموت وان هذا المسجى هو أبي فهل كان راقداً هذه الرقدة المريحة في الفراش مطمئناً هذا الإطمئنان ، أم مات ميتة غير مريحة ؟

الفصل الثالث عشر

– ١ –

الليل أبو المفاجآت بدأ الناس يعتقدون ذلك الليل مخيف مملوء بالأفخاخ مسود بالأشباح المريبة وكان الناس يتوقعون شيئاً ما إن الحال لا يمكن أن تستمر على هذا المنوال . لا يمين ولا شمال بدأت الأعصاب تضيق بهذا الذي يخرج كل يوم في تلفزيون بغداد ببجامته المخططة يلوح لعدسة الكاميرا بذراعه الطويلة ماذا يخبيء لهم ؟ لا أحد يعرف كان بعض الناس يحاول ان يستشف شيئاً من كل إشارة منه يقرأ كل حركة من أصبع والبعض الآخر يقول بسذاجة مستسلمة اشبيك عيني اشبيك ؟ الله خبلك ؟ متمشي عدل ! » وكانت الصحف تمتليء بأشياء متناقضة ، كل صحيفة تنسج النسيج الذي يحلو لها ، وتجهد بجرف الماء إلى الطاحونة المكلفة بتدويرها كان يبدو وكأن الصحف مشتركة بلعبة جرالحبل ولا أحد يعرف من المنتصر في آخر المطاف وكان هناك كاتب كبير يكتب مقالا ت ملتهبة حارقاً دمه وأعصابه ليلتقط كلمات موحية مظللة محملة بأعظم قدر من الإيحاء والتلميح جومشحون سباب توقعات مخاوف آمال وكل واحد يعتقد أنه زرقاء اليمامة

جلست في شرفة اسماعيل أدخن وكان اسماعيل يضيق من رائحة

الدخان. ولا يريدني أن أدخن إلا في الشرفة. حيث كانت تنطلق طيور أفكاري، عبر الملعب إلى البعيد وحيث تتوافد عليّ حمامات الذكرى الزاجلة محملة ببريد الماضي الذي أريد أن أنساه

سمعت اسماعيل يقول من الداخل

– سيأتي نوري اليوم مو هيك ؟

هيك ! قال لي ذلك في الصباح وقد خرج اليوم إلى الشغل

يبدو أنه تعبان

– إنها الشيخوخة يا اسماعيل مثله في البلدان الأخرى يتقاضون تقاعداً أما هو فلا أعرف أين ستذهب زوجته إذا توفي

إنه صندوق معبأ بالحكايات

– هذا كل مكسبه في عمر طويل قضاه في شق الطرق للناس. خمسة وثلاثون عاماً قضاها في دروب العراق الترابية الوعرة الباهتة المعالم ينقل الناس، ويبشر بعالم الحضارة التي تتحدث عنها يا اسماعيل ولم يحصل من ذلك إلا على شيخوخة موحشة تتدفأ بالذكريات

– يعني عنده شيء يقصه

– ولا شيء آخر لا مال ولا أولاد ولا جاه لدى الناس لا شيء غير ذكريات حياته

رأيت اسماعيل يقف في وسط الغرفة منتصب القامة، متماسكاً. قال :

وما أدراك أنه كان يسعى إلى كل ذلك ؟ لا تقس الناس بما تريده أنت بل قسهم بما كانوا يريدونه هم بماذا كا نيحلم نوري ، وهو شاب ؟ وهل حقق هذا الحلم ؟

– لا أدري بماذا كان يحلم ولكنه ولع بالسياقة ولعاً لقي منه معارضة من جانب أعز الناس اليه كانوا يقولون أنه يسير في درب الخسارة ، وهذه مهنة غير مضمونة أما هو فقد سار في هذا الدرب راضياً

– وليس نادماً على الطريق الذي اختاره لنفسه الندم الذي يحسه الإنسان بعد فوات الأوان

– ولا هذا أيضاً

– إذن فهو يتمتع بسعادة لا يملكها أولئك المترددون النادمون في كل لحظة على الخطوة التي خطوها في اللحظة التي سبقتها أما مسألة الغنى والفقر فمثل هؤلاء الناس لا يفكرون بها المهم عندهم هو وضوح الرؤيا

وبدأ اسماعيل يتهيأ للخروج راح وجاء في الغرفة أخرج قميصاً نظيفاً وبدأ يغرده سحبت ملء صدري دخاناً جافاً يمتص النداوة من صدري ونظرت إلى الملعب منطلق هويماتي كان مغموزاً بالشمس صافياً والأشجار نحيلة تكاد تكون عارية وخلف الملعب شارع فيه بعض الناس وصف من الدور نشر على سطوح بعضها غسيل ، فبدا كالبيارق الصغيرة في سفن راسية في الميناء وخلف البيوت دخان يمامي اللون وأبعد منه برج لمياه الشرب تتوجه غمامة سوداء لا أعرف من أين جاءت في سماء صافية ساءلت نفسي لو جلس نوري في مكاني ، فهل كان يرى عمود الكهرباء . هناك . في الشارع ؟ إن نوري يشكو من ضعف بصره

ربما لو جلس هنا لما رأى أعمدة الكهرباء ولا حتى مستطيل الهدف في الجهة الأخرى من الملعب ولا الشبكة الممزقة التي تغطي الهدف القريب ولكنه يملك وضوح رؤيا لا أملكها أنا ما هو الهدف الذي أسعى اليه ؟ تجولت في الشرق والغرب دون أن أطوي جوانحي على هدف واضح مجرد أن الحياة تدفعني كالكرة في ملعب فيه لاعبون محترفون

نفساً وراء نفس ثم سحقت عقب السيكارة داخل علبة الكبريت شبه الفارغة وها أنا مهيأ لدخول غرفة اسماعيل ولكنه لم يكن في الغرفة مددت جسمي على الأريكة يدي خلف رأسي وبعد دقيقة دخل يحمل فوطة وعلبة لحفظ الصابونة فرك عينيه و أسرع في وضع النظارة السوداء قلت له

– تكلمت اليوم كلمات من ذهب

وجلس إلى جانبي حين نهضت من الأريكة ومد ذراعه على ركبتي. وقال

– يعني كلامي عجبك

– تعجبني أنت أيضاً ماجدة محقة جداً

– هيك !

ونهض وكأنما قد استفز وبعد توقف قال

– على العموم انت غلطان

– لماذا ؟

وهيهات أن أرده فالحب ليس عاراً إلا أنني اكتشفت أن في ذهنه شيئاً آخر غير الذي يدور في ذهني قال

كلنا أو معظمنا يستطيع أن يتكلم كلمات جيدة

قلت شاعراً بخيبة

الكلمات حلول معلقة أنا أستخدمها بشكل مخجل على حساب الحلول الواجب أن تتخذ

هي أحياناً نوع من تأنيب الضمير غير المباشر أو من التبرير المؤقت أو الدائم لحالة أنت واقع في حبالها أتعرف أن هناك بعض الأطباء ينصحون بترك التدخين وهم أنفسهم مدخنون مدمنون لماذا هل لأنهم لا يؤمنون بأن التدخين مضر ؟

ربما ليس مضراً إلى هذا الحد

— لا انه مضر إلى حد كبير لا أريد أن أخيفك ثبت علمياً أنه يؤدي إلى سرطان الرئة

وقطع كلامنا تزمير سيارة نظرت من الشرفة فرأيت الشوفرليت الزرقاء التي نقلتني من المطار تقف عند الباب ارتدى اسماعيل سترته وأدخل ساعته في معصمه وكان شعره أكرت لا يحتاج إلى تمشيط ونزلنا السلم

— ٢ —

في الوكالة رأيت مهدي عبد الصمد في انتظاري

لم أعرفه في الوهلة الأولى إلا أن الساعي أشار إلى رجل يلف رأسه بيشماغ جالس في ركن الصالة وقال « الأخ يريدك لم أدر لماذا تخيلت للحظة خاطفة أن هذا هو خلفة القندرجي وأنه جاء مرسلاً من القدر ليخبرني عن أهلي إلا أنني عرفت مهدي من حاجبيه الكثيفين وعينيه النافذتين حين رفع النظارة السوداء التي كان يضعها على عينيه وقف يبتسم ابتسامة خجلى شاحبة في أقصى الصالة ليس فيها طراوة لثته الطفولية كان غريب الهيئة متنكراً تنكراً غير متقن أوقع الرهبة في نفسي وجهه غير الحليق شاحب مؤطر بيشماغ يبرز اصبعين فوق جبهته ولم أشك في أنه في مأزق انه مطارد في أغلب الظن ولكن هل وصل الوضع إلى هذه الدرجة من السوء ؟

قال مهدي بصوت خفيض غير صاف

ـ أنا في انتظارك منذ ساعة

ـ متأسف إذا كنت بحاجة إليّ فبامكاني أن أتأخر

دخلت غرفة الترجمة وانتحيت باسماعيل ناحية ورجوته أن ينوب عني ساعة ، وطلبت منه أن يقرضني خمسة دنانير دس في يدي الورقة البنفسجية ولما اطمأننت تذكرت أنني دخلت دون أن أسلم رفعت عيني ، وسلمت من مكاني ، ورأيت عيني آمنة المستديرتين مملوءتين بالغرابة والإستهجان

في الخارج وضع مهدي نظارته السوداء التي بدت كبيرة عليه سرنا صامتين حتى عبرنا الشارع إلى بقية البستان أمام الوكالة وانتظرت حتى يبدأ مهدي بأن يفضي لي بما في نفسه تكلم بخفوت

ـ لم تكن تتوقعني

— لم أكن أتوقعك على هذه الهيئة

هيئة متخفٍ ؟ أنا مطارد

ذلك ما ظننته

من حسب رأيك ؟

ضحكت ضحكة مفككة وكأنني أقول له وهل ذلك يحتاج إلى سؤال ؟ إلا أنه أصر على امتحاني

— ممن ؟

— من الشرطة طبعاً

— لا

— من أين إذن

— أنا هارب

هارب ؟ ممن

— إذا قلت لك لا تصدق

— قل لي بالله أعصابي لا تتحمل

— من اخي

— من اخيك ؟

— نعم من شقيقي من أُمي وابي

— هل تعاركتما على ميراث ؟

— اي ميراث لنا !

على حب امرأة واحدة ؟

– الحب لك زمن الحب انتهى

على اي شيء اذن ؟

– لا تستطيع ان تتصور انه يحمل سكيناً ويبحث عني يريد ان يقتلني

– يقتلك ؟

– لا تستطيع ان تتصور ولكنني اتصوره واقول لنفسي ربما حدث ذلك في تاريخ البشرية

– انا لا أفهم لماذا يريد ان يقتلك أخوك !

– ان اخي هذا أكبر مني هو من الغلاة وذوي النعرات يقول ان عائلة عبد الصمد محافظة ونظيفة ولا يمكن ان يكون فيها شيوعي سأقتله وانظف العائلة منه

– والشرطة ؟

– الجميع يريدون ان يتخلصوا منا في أقرب وقت ممكن

– وأهلك ؟ أمك ، ابوك ؟ اخوتك ؟

– ابي مستقر في قبره وأمي لا تحل ولا تربط يقولون لها إنه خرج عن الشرع وعندي اربعة اخوة احدهم يشتغل مهندساً في الري ولا يأتي الى بغداد . والثاني معلم ابتدائية يخاف من ظله والثالث وكيل اخراج متضايق من الثورة لأنها تقلص الشركات ، وتحصر الاستيراد بالحكومة .

أما الرابع الذي يطاردني فهو يشتغل قومسيونجي في سوق البزازين وهو ناقم لأن الأمور لم تتطور بالشكل الذي يريده. فيريد ان يصب جام غضبه عليّ انه يترصدني في الشارع المؤدي الى مدرسي وفي اول الزقاق الذي استأجرت فيه غرفة منذ ان توظفت في اول العام الدراسي

— عجيب ! الى هذا الحد بلغت الامور ؟

— وستكون اسوأ انتظر

— ثورة ! اذكر انك قلت لي يوماً حين سألتك والثورة الا تخيف ؟ اذا لم نكن الى جانبها وها انت الى جانبها

— لست أنا الخائف ، بل هو الخائف ، ويلجأ الى هذا الاساوب

— ولكنك متخف ، هارب يعني خائف غير مطمئن

— هذه تناقضات الحكم عندنا سيادة القانون .

— عجيب هذا الحكم رأس واحد وسبعون ذراعاً مختلفة انه شيء غامض

— لا ليس غامضاً كل شيء فيه مفهوم

— قل لي ما هو المفهوم فيه ؟

قلت وقد بلغت حد النقمة التي يجد المرؤ نفسه فيها حين يقف امام ظاهرة غريبة يعجز عن تفسيرها قال مهدي يبعدني عن عدميي

— لا تنس انه حكم وطني معاد للاستعمار هذه حقيقة كبرى لا يختلف فيها اثنان أليس جيداً في تاريخ العراق ان يكون له بعد اكثر من

ثلاثين سنة من الاستقلال الزائف حكم يحمل هذه الصفة ؟ ثورة ١٤ تموز حدث تاريخي لا يمكن التقليل من عظمته ولكن وآه من « لكن هذه التي تقال في هذه الايام بكثرة ولكن تاريخ العام والنصف الفائتين يدل على انحدار هذا الحكم الوطني لا ارتفاعه وتطوره هناك ميل واضح الى تقليم المكاسب ، والميل بسرعة الى اليمين تلك هي ازمة الحكم الراهن كل شيء يفلت والمكاسب تتزعزع ، والرجعية تتحدى ، والمد الثوري ينحسر ونحن فقط نحاول ان نطيل هذه العملية لا ان نوقفها

وصمت مهدي عبد الصمد . ثم تحدث بانفعال عما يحدث في الساحة السياسية تمزق عملية انحدار يجب ان نوقفها

فسكت شاعراً بملموسية انفعالية لحقائق تطوف شبحية في الجو العام كل شيء يمكن ان تجادل فيه ، كل شيء يمكن ان تبرهن عليه وعلى ضده كل شيء يمكن ان تضيف له من عندك لتستقيم له الكفة الراجحة في الميزان . رغم ان الحقائق واضحة كالبديهيات والكل ينشدونها يحرقون اعصابهم من أجلها او هذا ما يقولونه بألسنتهم

اخرج مهدي منديلاً ، ومسح جبهته ، ونظر في المنديل وقال باشمئزاز

— وسخ ! منذ اسبوع وأنا لم أغسل وجهي بشكل جيد اتعرف أين أعيش الآن ؟ في احد الكراجات تصور ، وكأنني مطارد من قوة غامضة لا تخضع لقانون تصور انني في مخبئي انتظر حدوث معجزة وكأن الشيوعيين يؤمنون بالمعجزات

هونت عليه ، وانسقت مع الشعور العام

— ولكن ما البديل للوضع الحاضر .

تلك هي المقولة المطروحة المحبوبة في هذا الوقت وقد تطورت مع تطور الحكم الفردي الذي يتحكم فيه رجل واحد وأشهد أننا لم نفعل ذلك عمداً الظروف جعلته الشعب المسحور بالكلمات الجديدة التي قالها بسطاء الناس الذين يقبلونه ، ويجدونه قريباً من نفوسهم البرجوازية الصغيرة التي يمثلها الجزء الاكبر من المثقفين الذين رأوا في شخصه حرية العبث باسم الثورة ، التحرر تأجج النزعة الى شيء جديد ثم لا تنس منطق الحرمان والكبت الذي عاناه الشعب العراقي سني الجفاف والخنوع وفقدان الثقة بالنفس ، سني تقسيم الناس الى أسياد ومسودين ، ثم هناك عامل قوي آخر هو نفسه بنزعته التحكمية حب التسلط والانفراد السلطة ولكن هل هذا شيء مقنع ؟ هل هو تحليل ماركسي لمجموع الاحداث ؟ ما موقفنا نحن من كل هذا ؟

– اظن ان كل شيء مدروس ومعروف

مدروس ومعروف ؟

ولم وجه مهدي بسبب بروز اليشماغ ولكنني أيقنت انه يخفي عني أشياء وانه يريد ان يقول أكثر من هاتين الكلمتين المعادتين وهذا ما كان فبعد سكوت متوتر قال

– يجب ان يكون لنا موقف واضح

أليس هو واضحاً ؟

فعاد يصر على فضيلة الارادة في العمل في اتخاذ موقف مستقل

ثم رفع مهدي صوته علي متأثراً

– متى صار الشيوعيون ينظرون الى قسمات البرجوازيين حتى ولو

كان هؤلاء البرجوازيون وطنيين صادقين يجب أن ينظر الشيوعيون دائماً الى الاسفل الى الجماهير لا الى فوق الجماهير هي الحكم الاول والأخير الا نقول نحن حكمتنا حقيقتنا الموضوعية ؟ الشيوعي يجب أن يقول كلمته في كل الظروف كنا في السجن ونقول كلماتنا في وجه الجلادين كانوا يطلقون الرصاص على رفاقنا السجناء ونحن نصرخ في وجوههم بحقيقتنا ــ نحن لا نملك شيئاً غيرها ماذا لنا في هذه الدنيا ؟

أوقعني مهدي في حيرة : يطلب مني أكثر مما هيأني الوضع العام له اكثر من هذا الاخلاد الوادع لتطور الاحداث اكثر من الانتظار المعذب والحلم بشيء أفضل قلت

اذن ، فأنت تطالب بتغيير شامل

تراجع مهدي قائلاً

اسمع كريم أنا رجل شيوعي وانا لا يمكن ان اتصور نفسي خارج الحزب لا يعني هذا موتي سأكون مثل سمكة على الرمل ان الحزب هو كياني وروحي ودمي ، وملاذي وسكني . أنا لا اتذكر متى لم اكن شيوعياً تلك الاعوام بترتها من حياتي وانا ارضخ لاوامر الحزب وأنفذها ولو طلب الحزب مني النزول الى الشارع والدفاع عن الحكم الحالي لنزلت ودافعت عنه بآخر قطرة من دمي ولكن أحس ان هناك خطأً في الموضوع خطأ جسيماً نحن واقعون فيه .ويجب ان نبادر الى تصحيحه ،والا فسيهلكنا. سنذبح ذبح الخراف

ومضى مهدي يهز الصورة التي ألفتها لم أكن اتوقع كل ذلك منه ، كما لم اكن أتوقع الثقة التي أولاني إياها. كان واقعاً في أزمة وكان يحترق ويحاول ان يجد مخرجاً للوضع الذي يتردى ، للخروج من عاصفة الكلمات

الصاخبة التي تدير الرأس فريق يضج بالكلمات وفريق يعمل في الخفاء
لقدكان ذلك واضحاً

— ٣ —

عدت الى الوكالة جو عملي يأخذ بالانفاس النقر متواصل محموم
ولم يرفع احد الي رأسه انسللت بخفة بين طاولتين لأستقر الى طاولتي
يسار آمنة كانت على طاولتي كومة من الاخبار قلبتها متضايقاً عيوفاً
آه من هذا العالم وأخباره في لحظة واحدة يخيل اليك أنه ما من رغبة في
نفسك أقوى من الرغبة في التخلي عنه تريد ان تنقطع لنفسك وتفكر
في لحظة واحدة تحس بأن ضجيج العالم وضغوطه تهاجمك كالاقراش
فتريد ان تفلت ، على الأقل لتواصل سيرك مرة أخرى في وعي أصفى
وحرية على التصرف اكبر فجأة تحس بأن نبضك أضعف من نبض هذا
العالم الدفاق وانك لم تكن تسايره ، بل كنت منجرفاً معه غير مفكر
بأحداثه التفكير الذي يضمن لك معرفة ما حولك ومن حولك لم تكن
تملك زمام نفسك . كنت أريد ان أفكر فيما حولي

سمعت ماجدة تقول « اي وعندما التفت رأيتها مطرقة برأسها في
خجل آه ، يا ماجدة أصبح الخجل يلون وجهك في هذه الايام مثل
حمرة التفاح الباكر قلت لها

— سأهيىء لك ترجمة

ومع الترجمة بدأت أفكر فيها ليست خجلة فقط بل ومرتبكة
ولكني أرى في عينيها الحزينتين بقايا ضحكتها القديمة اتزان
مكبوت ضيق من شيء لا أعرفه لا أظن ان ضيقها من طينة ضيقي
لا أظنها تفكر بمستقبل هذا العالم ربما بمستقبلها فقط . « يطالب الشعب

الياباني باعادة اوكيناوه له وكانت تبدو ذليلة « وقد شهدت الجزيرة مظاهرة ضخمة ضد المحتلين الامريكان عجبت من هذا الانكسار والفتور في نظراتها « وفرضت حالة الحصار على الجزيرة وهي لا تتكلم الا لماماً « واستدعيت فرق خاصة من اليابان »وأنا اخاف من هذه الحالة عندما تبتلى المرأة بها تكف عن ان تكون امرأة بل تصبح ظلاً لرجل « واستعملت خراطيم المياه والغازات المسيلة للدموع والهراوات لا اظن أنها سترد عليّ اذا كلمتها لا أظن حتى اذا اجابتني ستكون عيناها مصوبتين الى شخص آخر تستأذن منه ان تكلم شخصاً غيره « ولم يسمح للجنود الامريكان بمغادرة معسكراتهم ورغم الجو الممطر زحفت المظاهرات على القاعدة ولكن هذا لا يهمني المهم ان تتحرك آمنة صخرة ابي الهول « وقطعت الطرق المؤدية الى القاعدة وكان هناك وفد من هيروشيما الذبيحة ، الممحوة من الوجود» هي ايضاً تغيرت بصمتها هذا القاتل تغيرت منذ ان قالت لي « ومن انا لأرسم لك الحدود ؟ » هي لا شيء عندي او أنا لا شيء عندها « وكان منظراً مؤثراً ان يسير المشوهون في المقدمة. وطوال الليل لم تنم الجزيرة بقيت حالة الحصار مفروضة ولكن ذلك يهمني أنْ ترسم لي الحدود صامتة انتهى الخبر

فضلت ان أعطيه لآمنة عسى ان تتكلم معي تناولته دون كلام وبشيء من البرود . لماذا يا آمنة ؟ ربما لم اسألها عن حال أبيها عن داود اما زال يناكفها ؟ عدت الى تكتيكي القديم المتخاذل انتظار وقوع السمكة في الشص رغم ان شصي ظل خالياً اكثر من ربع قرن لا تفكر بمكاسبك الخاصة يا أناني فكر بمكاسب الثورة التي هي في مهب الريح هل استطيع تبديل مجرى الريح ؟ لا استطيع ان أبعد المكاسب عن مهبها كان الخبر الثاني عن رجل صيني في الثمانين وضع له برنامجاً ثقافياً للسنين العشر القادمة

خطك صار سيئاً يا كريم .

– آسف على هذه النتيجة

– بعض الكلمات غير مفهومة

– ما هي ؟

واقتربت منها وشممت رائحة بيتية مريحة وقالت شيئاً ضايقني اذا كانت ستسألني عن كل كلمة فلن تكون هناك ترجمة انها تريد أن تبعدني عن جنتها انتِ ايضاً تغيرت ، يا آنسة ، انحرفت انا أرى مكاسبي لذلك تتناقص زراعة الافيون كل الناس اخذوا يسفرون عن وجوههم الحقيقية . والافيون بعكس الخمرة لا يدع الانسان يسفر عن وجهه الحقيقي خدر قاتل ، وتهويمات عابرة اذا أُخذت بنصيب حركة الخيال ولكن سبحان الذي يضبط هذا النصيب ، لا سيما اذا كان مثلي ليس له مَن يرسم حدود الانبساط كان بامكانها ان تجاملني على الاقل حتى المجاملة ذهبت ادراج الرياح ولكن ربما كان أبوها عقدة حياتها هذه العصبية منه

– يا ست ، عرفنا

قالها اسماعيل ورأيته يشير بشيء الى ماجدة لست أعرف ماذا عرف ، ولكنها تعرف ماذا عرف وبدت لي ماجدة مغلوبة على أمرها تجاوزت حدها أم كان ذلك دلالاً من جنابه ؟ أوه كم رأيت محبوبين يتدللون على حبيباتهم بحضوري ! وذات مرة أردت ان أفعل ذلك مع الصغيرة قلت لها ونحن في ذروة العناق والقبل انت لا تحبينني انت تمثلين فصفعتني على خدي صفعة رنت لها أذني رنيناً لن أنساه أول صفعة من صديق أو عدو .

وبعد أن انتهيت من خبر عن الافيون تناولت خبراً عن اندونيسيا وترجمته بعجالة ماذا يطالب الشعب الأندونيسي أكثر من اريان الغربية ؟ والعالم كله معه قلوبنا كلها معه كلماتنا الحلوة الصاخبة العنيفة الكلمات المضادة للكلمات نستخدمها نحن العراقيين بكثرة نعاملها معاملة واحدة الكلمات الحلوة والمريرة تخرج من مخرج واحد الله ، ما ألطفنا نحن العراقيين بالتصرف في استخدام الكلمات التي لا تُنبيء قط عن مدلولاتها ! ولكن عن حالتنا النفسية عيني اغاتي قلبي تفضل للموقف وتفضل لغرفة الاعدام ، عيني اشلون رصاصة حلوة محضر لك وانا ممنون كلمات بيض االقلق أخي أنت قواد ؟ لا برجوازي شريف رأسمالي ثوري شيوعي شعوبي ، راح اضربك راشدي يعجبك توصاه الكلمات وراء الاخرى نداوي بها جروحنا آه ، لو كانت الكلمات تصبح كلمات حقيقية انها دائماً مشفوعة بشيء يعطيها اعتباراً زائفاً ليس اعتبارها الأصلي ، ولكنه اعتبار طارىء ضروري لها في حالة عجزها الكلمات في هذه الحال لا تنفع اريان الغربية لن تحررها الكلمات ، ومهدي لن تحرره الكلمات والوضع الراهن لن تصلحه الكلمات

الفصل الرابع عشر

– ١ –

– هل قابلت الاعمى ؟

– من ؟.. آه ، نعم

– وكيف ؟

– لم استفد منه كثيراً لم أعرف منه سوى أن والدي توفي في غيابي ولكن لم يعرف اين يسكن أهلي الآن

– لم يعرف أين يسكن أهلك ؟

وفطنت الى انني لم أقل له شيئاً عن قصتي فاضطررت الى ايجازها له ولم يبدو منه أي تأثر كان وجهه قناعاً مدوراً مدلهم السحنة معبأ بأفكار أخرى

– رجب القندرجي لا يعرف من دنياه شيئاً فطيسة كيف تريد ان تعرف منه شيئاً عن الاحياء ؟

– على العموم انه عرفني اخيراً ولو كان يظنني طبيباً

طبيب ؟ هل قال لك ذلك ؟

نعم وكان يتخوف من الاطباء .

– اها مفهوم

لا بد أنه يعاني من مرض وزهد من الاطباء

تنهد داود ورفع رأسه بحركة تهكم ونفي وقال

لا انه يتصور أن ابنه قد أصبح طبيباً ولا بد أنه سيأتي اليه ، ويسممه

وكيف لا يعرف ابنه ؟

تغابيت لأجعل داود يقر بنفسه

لأنه نبذه منذ الطفولة

نظرت اليه وكأنني استزيده

كيف تعرف ذلك ؟

ذلك هو أبي الذي حدثتك عنه

قلت ، ولم ابد دهشة كبيرة

– ربما ذلك من تأنيب الضمير

قال داود بحدة

– تأنيب الضمير لا اقر به اذا تأخر

– ولماذا اذا عاد الانسان الى صوابه ؟

– اسكت عمي اسكت . ما فائدة الضمير اذا لم يستيقظ في الوقت

المناسب ؟ هل يعيد لك الخسارة التي لحقت بك ؟ لو جاء رجب القندرجي على شيخوخته وعماه وقال سامحني ولدي لقد ارتكبت خطأ ازاءك هل سأسامحه ؟ هل سأقبله ؟ وأقول عفا الله عما سلف انسى ليالي تشردي ليالي تعاسي ايام وقوفي ذليلاً أمام دكان خالي القصاب أخاف ان أقول له اريد دفاتر مدرسية ؟ اسكت عمي اسكت كيف أنسى السرقات التي ارتكبتها أمي في سبيلي الذلة الهوان كيف أنسى كيف ؟

ولكن ذلك لا يرجع لك حياتك ولا يعوضك عن شيء

على الاقل يجعلني أشعر بأن لي حقاً على الدنيا وأنها مدينة لي بحياتي بجهدي بذلي بكدحي بطفولتي المنبوذة لست انا المدين بل أنا الدائن هل فهمت ؟ هل ساورك الاحساس بأن لك حقاً على الناس وأنهم مدينون لك ، وانك ذات يوم ستسترد الدين

كان ذلك عكس شعوري تماماً شيئاً منفراً بالنسبة لي قلت

بهذه الروح الانتقامية لا تستطيع ان تكون منصفاً

– منصف ؟ وهل كانوا منصفين معي لأكون منصفاً معهم ؟ لماذا طلب الانصاف مني فقط ؟

– أنا لا استطيع ان اتدخل في شؤونك الخاصة ولكن أن تجعلها المنظار الذي تنظر بها الى العالم ، هذا ما لا أقره لك .

– الذي يدمر حياتك ماذا تقول له أحسنت

صممت محرجاً ، الا انني وجدت نفسي اقول :

لم   أحد حياتك   ها انت شاب معافى مثقف   ستتخرج من الكلية

عندما يكون عمري ثلاثة وثلاثين

وليكن   ذلك لم يمنعك من ممارسة حياتك

كنت أدافع عن نفسي   من طرف خفي

فوّت عليّ أشياء كثيرة

سبحان الذي لم يفته شيء في هذه الدنيا   المعاناة الصفة المشتركة لصبانا وربما لطفولتنا

هناك معاناة مفروضة فرضاً عليك ، وهناك معاناة مخلوقة معك ، كأن تولد في عائلة فقيرة   ان تعاني بسبب سوء تصرف الآخرين ونزق أهوائهم   فهذا شيء لا تستطيع ان تغفره للآخرين

— يعني أنت تدعو الى الانتقام

لا بأس به   اذا كان ممكناً.

— حتى من شخص يربطك به رابط قوي ؟

— الذي يسيء اليّ لا يربطني به رابط قوي

أنت تعذب نفسك بذلك

لا   ابداً لانني لا أحس بالأسف

هذه الحرقة ليست أسفاً ؟

— انها رد لدين سابق   اذا سنحت لي الفرصة لأرده .

صمتنا وكأنما جف معين الكلمات انطوى كل واحد على ما في قلبه تقاطعت عيوننا لتنظر الى جهتين مختلفتين نظرت انا الى قوس الجندي المجهول كان مضاء بلون أزرق مثل لون الاضرحة ينعكس على المرء انعكاساً حزيناً مغبراً وكأنه رفات لون. لا لون وكانت الشعلة لا تبدو لعيني ولكن المصابيح المقبّعة بظليلات عريضة تبدو مثل شعل متناثرة تلوح وتختفي وراء أجسام السيارات المنطلقة وكانت نفثات البنزين التي تصلنا مثل محروقات الغاز المستعمل في تلك الشعل ولما صمتنا بدت أصوات السيارات تضحك منا مزعجة مخدشة ، لا باليه وكان المقهى قد بدأ يهدأ غادره أغلب رواده الى الحانات القريبة لقضاء ليلة الجمعة هناك ممارسين طقوساً سنوها لأنفسهم أقدم الطقوس في تاريخ البشرية ولأن جيبي فارغ فضلت أن أجلس في هذا المقهى مع زميل لا يعاقرها

هل تلعب الطاولة ؟

أكرهها

— والدومينو ؟

يتصدع رأسي منها هل ضايقك كلامي ؟ انا رجل صريح مع نفسي ومع الآخرين أقول ما في قلبي واذا كتمته أحسست بالاختناق

الصراحة شيء حسن

كان داود اليوم صريحاً معي صراحة لم أعهدها منه في السابق كان يلمح أما اليوم فكان يقول أفكاره دون مواربة وهو الذي دفعني الى الاسترسال معه في حديث سياسي كنا نقف فيه متعارضين

ولم يضيق الشقة بيننا ارتفاع أصواتنا وبحيحها فالتزمنا الصمت ربما لنتابع الحوار مع أنفسنا كنت أحس وكأنني في شاطىء.وهو في الشاطىء الآخر وكنا نتحدث عبر نهر صاخب من عواطفنا المتأججة. حتى انني أحسست بالتعب وكأنني قمت بعمل عضلي جاهد. وبقيت الاسئلة التي طرحها الواحد على الآخر غير محلولة ولكن لم يكن لدينا ، في تلك اللحظة ذاتها شيء غير الكلام كافترقنا بأمان بل وقف داود عند الباب يسترضيني بالسؤال عن أهلي وكأنما ليخفف من سوء تأويلي لكلامه وكمحاولة لأن يعيد الصفاء بيننا قال لي

– اذا كنت تريد ان تذهب الى الخلفة الذي حدثك عنه رجب ، فهو في عقد النصارى اذهب اليه لعل لديه اخباراً عن أهلك

– ٢ –

وذهبت الى دكان الخلفة في اليوم التالي دخلت اليه من المدرسة الجعفرية التي كانت ، يوماً ما قطعة مصقولة من الآجر الاصفر الزاهي وسط بيوت متهالكة ترابية اللون فاذا بي أراها قد اكتست اللون السائد هناك بعد عدة أزقة وصلت الى الزقاق المنشود مررت بمخبز وحلاق وخياط سمّى محله « معمل التفصيل الوطني ثم بعدة عطارين واسكاف وجراخ خشب ، ومقهى صغير عاري التخوت وبعده رأيت واجهة زجاجية تضم أحذية جديدة عريضة الابواز ولما احاط بصري بالمكان واتتني الجرأة رأساً على ان أقف امامه ، وأواجه الجالسين فيه .

– اسطه رحيم ؟

نظر الي من وراء لوحة سميكة من الخشب رجل قصير القامة عريض

المنكبين رفع اللوحة التي كان يقطع عليها قطعة من الجلد البني وجاء نحوي رامش العينين من النور الساطع خارج الدكان وقال « أهلاً وسهلاً » وابتسم لي ومدّ يداً عريضة بعد ان مسحها جيداً في مئزره فأدركت انه قد عرفني الا انني قلت للتأكيد

انا ابن داود الغزال

نعم عرفتك من أول ما شفتك رسائلك كلها مرت على هذه اليد

وعصر انفه بابهامه وسبابته ومسح أطراف اصابعه بمئزره قلت

ذهبت الى رجب القندرجي لعلي اظفر منه بشيء عن اخبار أهلي ولكن رأيته قد ضيع

قال رحيم مبتسماً ابتسامة دسمة

– هو مضيع من الاول

– لعلك تعرف قصة أهلي أنا عدت من الخارج ولم آرهم آيت محلتنا ممسوحة من الوجود

أعرف المرحوم والدك كان صديقي الله يرحمه تعذب بدنياه وعصرتني اللوعة داريت اضطرابي بأن نظرت عبر الدرب الضيق دعاني رحيم الى قدح شاي في المقهى وهناك لم أعرف كيف ابدأ الحديث معه ظل يسألني عن غربتي عن المدة التي قضيتها فيها هل كانت مريحة لي ؟ كان يقول رأيه قبل ان يسمع جوابي اكيد تعذبت الغربة من يتحملها كلام رطانة عادات، تقاليد دين ايمان قلت له اوقفه من استرساله :

كل شيء يهون الا ان أعود ولا اجد أهلي ذلك شيء لا يحتمل

– وحتى الآن ما وجدتهم

– اين أجدهم ؟ منذ أكثر من ثلاثة اشهر وانا أبحث عنهم اين سكنوا ؟

ورأيت الوجه الممتلىء ينكمش وكأنه استشعر خجلاً او ارتباكاً قال

– انت تعرف بوفاة والدك

– هذا فقط

– بعد وفاة والدك تركوا البيت حالاً لم تستطع الوالدة صبراً كانت تقول البيت كله يذكرها به انت تعرف كيف كان يعتني أبوك بالبيت كل حجر ، كل خشبة كانت شاهداً عليه

وتأوه رحيم وانفلقت عيناه قليلاً أوسدتها وجنتاه البارزتان قلت

– أنا اعرف نصف رزقه كان يضعه في ترميم البيت

– مرضه الاخير سببه البيت لعلهم لم يكتبوا لك بدأ الجيران يعمرون بيتهم واذا بالجدار المشترك ينهار لم يتحمل الثقل واضطر الوالد ان يستدين ليعمر الجدار انا أعرف كيف كان يذهب الى داود تنك الصدر أعرف كان يروح على رجب القندرجي حتى هذا « العصي سلمه عشرة دنانير روحه طلعت حتى عمر البيت وبعد شهرين او ثلاثة عرفت الناس أن عقد الطاق والمحلات المجاورة ستستملك من قبل الحكومة تصور حالته اعتقد ان مرضه الأخير سببه القهر على التعب الذي راح عبثاً نعم البيت والقص جنيا عليه عندما صاروا يستملكون البيوت كان المرحوم والدك يراجع الدكتور عبد المنعم

وصمت رحيم ليسلم على شخص مر في الزقاق قائلاً له : « عيني القندرة

حاسرة ممنون بالخادمة ومسح أطراف فمه باصبعين غليظتين مدبوغتين قمت ولم أعد اخجل من أن اكاشف رجلاً يعرف هذه المعلومات عن حياتنا

كانت الوالدة تحدثني عما عاناه حتى اشترى البيت كل شيء الا ان يكون وقفاً على جامع العندروسي وانت تعرف اي بيت كان خرابة

— اعرف خرابة ، ولكنه ستر والذي ماعنده بيت ماعنده والله امر بالستر ولكن القص شتت الناس

— يقولون هناك عوائل استفادت من الاستملاك

قلة هؤلاء كان عندهم ذخر الى جانب البيت فاشتروا بيوتاً جديدة ، او قطعة ارض في الوشاش او البياع هؤلاء كانوا شياطين كانوا يعترضون على الثمن ويعطون الرشوة فتأتي اللجنة لتعيد التقدير وترفعه ولكن هناك اناساً قسطوا لهم الثمن تقسيطاً تصور دفعت لهم أمانة العاصمة الثمن بالاقساط

سكت فقلت حدساً

لا بد ان أهلي كانوا من هؤلاء

— نعم ! عندما توفي الوالد تركت الوالدة البيت واستأجرت غرفة مع اخيك في دكاكين حبو وانتظرت حتى تجيء لجنة التقدير وكل يوم تقول بكره تجيء واللجنة نايمه ومن يراجعها اخوك عدنان ابن الاثني عشر؟ كنت اترك الدكان واراجع حتى جاءت اللجنة وقدرته بخمسمائة دينار من أقل البيوت وظلت والدتك تنتظر الفلوس والحكومة ما عندها فلوس

سقا وقربته فارغة ، على قول اسطه رجب .

موقف ان تقضي ية حياتك هنا وعندما فتح لك باب العودة خايب من كل مشاريعك السابقة

أنا اكاد أغرق في بحر الذكريات كأنني سمكة صغيرة تحاول ان تسبح ضد التيار

انت تذكر ساعة وداعك في المصيف كانت أقسى ساعة في حياتي أحاط بك وعانقك الذين يحبونك والذين لا يحبونك الذين اسفوا لفراقك والذين قالوا في قلوبهم: خلصنا من مشاكله. أما أنا اقرب الناس إليك، او هذا ما احب ان اتصوره حتى الآن، فقد وقفت على مسافة من سيارتك لا اعرف ماذا أفعل لم تكن تملك الشجاعة لتتقدم مني كنت جباناً على عهدي بك، أيها الفاغوبند التائه لا تحب الاقدام وتخاف الفضيحة. على العموم، انتم الرجال جبناء، في علاقاتكم مع النساء، وهن أشجع منكم في هذا المضمار على الاقل أنتم تتظاهرون بالشجاعة ولكنكم، عند الجد ترتعشون أمام كل اوهام الحياة والناس ولنعد الى قصتي معك في اللحظة الاخيرة لم اضبط نفسي فاخترقت الحصار ومددت لك جسوراً بل هممت ان أعانقك امام انظار مودعيك كلهم لاضرب لك مثلاً آخر على أنني معك، وأكثر شجاعة منك وعندما شيعت سيارتك الذاهبة الى محطة القطار ركضت الى غرفتي وانكببت على سراشي نتحب

أنت تذكر الرسالة التي بعثتها لي من العاصمة كتبت لي فيها انك ستغادر البلاد يوم ٢٥ آب وقد وصلتني رسالتك يوم ٢٤ تموز يعني ستمكث شهراً في العاصمة، على عكس ما قلته لي سابقاً وفرحت لأنني سأقضي شهراً آخر معك تمارضت وشكوت لأعود الى العاصمة حتى وافقوا على عودتي وفي القطار وأنا وحيدة في مقعدي كنت استمحت الزمن واتوسل السائق وعجلات القطار وكل الناس حى

يصل القطار بسرعة كانت رسالتك بين يدي اقرؤها عشر اب في اليوم
وفي احدى القراءات ونحن على أبواب العاصمة لمحت خطفاً تاريخ الرسالة
ويالهول ! كانت مؤرخة في ٢١ آب يعني انك أيها الفاغوبند اخطأت
في الشهر فظننته آب وهو تموز وأرخت رسالتك به ، وحسبت تاريخ
سفرك عليه وأحسست ببرودة تشد كياني ومررت بغيبوبة وجمود ولا
مبالاة مع ذلك فعندما وضعت قدمي على المحطة قلت ربما الخطأ في
تاريخ الرسالة فقط واملت أن اراك آملت بتعاسة وعذاب وطوال
الايام الأولى كنت أتخيل انني سأراك في أحد الشوارع في محل عملك
في أحد الاماكن التي كنا نرتادها معاً كنت لا اتحدث مع الناس عنك
لانني ما أزال أخاف عليك اقاويل الناس وكأنما ما تزال تهمي سمعتك
وعندما كنت أسير في الشارع في طريقي إلى عملي كنت اتخيل انني اسمع
صوتك يناديي نداءك الضاحك « ولكن كلها أوهام وحتى قبيل
ان أستلم رسالتك القادمة من وطنك ، كنت ما أزال اعيش على الوهم
أنك قريب مني وأنك في رحلة قصيرة ستعود بعدها الي ولكن
هيهات ! ها هي رسالتك بكل حقائقها الباردة تمزق أوهامي والآن اكتب
لك مقتنعة بأنك بعيد عني آلاف الاميال فهل سنتراسل عبر هذه الاميال ؟
آمل وسأكون وفية

هل ستسهر مع منع التجول حتى منتصف الليل ؟

— لا هذه آخر «كروه وسأسلم السيارة الى الشركة

— أريد ان اجلس معك اليوم في مقهى أو مشرب

— وماذا تفعل بعجوز مثلي ساعة تسعة ينام ، سواء أكان منع تجول أم لم يكن ولكن اذا كان ذلك يريحك فأنا حاضر

وبعد نصف ساعة كنا في مشرب

ماذا نشرب ، يا عم نوري ؟

— أنا اخاف من الشرب عيني تسورب

زجاجة بيرة على الاقل

تنفخ بطني

نص ربع ضعه أمامك

وقبيل جاء النادل مرحباً بعبارته المعتادة «من زمان ما شفناك» مجاملة ممقوتة قلت له

— تائب

وأشفعت ذلك بطلباتي ولما ذهب النادل قال العم نوري

— تائب ؟ التوبة ؟ أقول التوبة ؟ كم مرة يقول الانسان التوبة ؟

وضحك كاشفاً عن أسنان جيدة قلت

التوبة كالمعذرة . والانسان يقدم اعتذاراته لكل الاشياء .

جاء النادل بطلباتنا وصفها على المائدة بمهارة وانصرف قائلا « بالخدمة

ضحك نوري ، وقال وهو يمسك الزجاجة الصغيرة
– من زمان ما قلت التوبة راح تخليي أقولها من زمان ما عملت منكراً

خفت من كلامه فأنا لا اريد ان أعذب ضميره

– اذا كنت تحس بالاثم ، يا عم نوري فلا تشربها انا أريد أن تستريح

انا مستريح

– اليوم كنت حزيناً يا عم نوري فأحسست بالحاجة إليها

حزين ؟ الشباب يحزن ؟

– لا ، يا عم نوري الحزن يثقل على القلب في كل الاعمار

– ولماذا تحزن ؟

فكرت قبل ان أقول له

– عرفت أخباراً عن أهلي

– خير ان شاء الله

– توفي أبي في غيابي وانتقلت أمي من بيت الى آخر ولا أعرف اين تسكن حتى الآن

وغشي وجه نوري حزن آخر ليس مثل حزني حزن متعب بدا في ارتخاء كفه الاسفل ، وذبول نظرته وتعذر الكلام عليه قلت له

أس الجسر حاملاً مسدسه سميناً عرقاً يصدر اوامر بغداد تشاهدت
ونزلت الجسر الذي كان يستند الى عيدان ضعيفة وأخذت اسير عليه ببطء وفي منتصف الطريق رأيت الناس المتجمهرين على الجرف يلوحون بأيديهم ويصيحون التفت فرأيت الجسر قد انهار ورائي قلت لنفسي اكلتها بغداد خـَلْ تاكلها تريد تقنعني وهي اللي ما شافت جسر طويريج ولا عبرت عليه بأنه يتحمل الثقل وبدأت السيارة تتدهور لاسطاب ولا يريلك يزمها ومال الجسر، ونزلنا كلنا في النهر بس لحقت أنزل من السيارة، وأخليها تنزل قبلي هذه هي النتيجة

وأدار نوري أسه اما من سكر او تعب وكنت لا أرى من مكاني عينيه الصغيرتين الا انني كنت ارى جفنيه الاشيبين مطلين على وقبى المنخفضين والجبين المنسرح اللامع المتصل الى الاعلى ببرزخين من الصلع وفي الوسط شعرات بيض نائتة قلت

نتيجة سيئة خجلوا ان يسمعوا كلام سائق واستبدوا برأيهم فوقعوا

كان بامكانهم ان يقولوا سير في الطريق لذي تعرفه صحيح نحن حكومة ولكن لا نفهم في هذه الاشياء يعني راح تنقص هيبة الحكومة اذا قالت ذلك لسائق؟ ولكن الحكومة حكومة في كل مكان وزمان تحكم والا ماسموها حكومة من ذاك اليوم قلت ماراح اعرف الحكومة، ولا هي تعرفني هي تمشي بدربها أنا امشي بدربي

وما مشيت مع الحكومة

— اضطررت اضطراراً بعد عشرين سنة من هذا الحادث وجدت نفسي لا املك سيارة. والبلام من غير بلم يشتغل عند ابو ماطور ايام

الحرب اشتغلت عند الانكليز لكن شغلتهم صعبة اعرف بشبابي كيف اشتغلت معهم الحكومة على الاقل عندها لسان مثل لسانك ولما جمعت امانة العاصمة لوريات الانكليز القديمة وصبغتها بلون يلعب النفس وشغلتها باصات أكبر من ام العانه بثلاث مرات اشتغلت عندها

الحكومة التي لم تسمع كلامك صرت تسمع كلامها

ربطوني من يدي ورجلي. اعطوني تقنيناً حددوا لي وين اروح وين اجي لا شبر زائد ولا شبر ناقص صرت اذرع شارع الرشيد بهذا المكان قِفْ، وبهذا لا ثماني ساعات ادور مثل الحصان بالريسز أنا المتعلم على ان اسوق السيارة حسب ما اريد انحبست في مكان واحد

وتنهد نوري، ورفع كأسه ثم خفضها دون ان يشرب شيئاً منها كاد يبدو انه لا يستطيع جمع افكاره يبدو ان الجرعات القليلة أثرت فيه وأنّبت نفسي على انني جعلته يشرب

واخيراً رفع وجهه اليّ وقال

المهم ما قدرت ان اصبر رحت على هدية هذه التي تتكلم الآن من رأسها قلت لها شوفي هدية ! لا أنت ولا ابوك ولا الدنيا تقدر كلها أن تغير طريقي الآن فات الوقت الانسان العمر لا يستطيع ان يغير طريقه أنا سائق وسأظل سائقاً ولكن اكو فرق بين سائق عنده سيارة وسائق مأجور مأمور راح اموت اذا بقيت اشتغل عند امانة العاصمة روحي تطلع راح اختنق على الستيرن دبري لي فلوساً حتى اشتري سيارة مهما تكون قديمة ولكنها سيارتي اسير فيها وين ما اريد. اشم الهواء. اسرح بالبرية راحت على ابيها باكية

٢

كانت الساعة دون العاشرة حين غادرنا الحانة لم أرد ان اذهب مع العم نوري الى غرفتي في حمام المالح . كان الهواء في الخارج منعشاً فيه لسعة برد مطهرة مريحة لأعصابي التي اضرمتها الخمرة وشجون الحديث تركت العم نوري يذهب وحده راقبت قامته تبتعد في الظلام المهلهل المبقع بلطخات ضوء مترّبة وحين غيبه المنعطف تأسفت على أنني تركته وحده . وشتمت نفسي ، واحتواني ما كنت أخشاه دائماً في مثل هذه الساعات الندم والانسحاق والقلق كانت هذه العناصر تتمازج في نفسي مثل ثلاثة عقارب في زجاجة يلدغ بعضها بعضاً ، وتبصق السموم في قعر الزجاجة لم ينفعني الهواء البارد ، ولا السيكارة الجافة التبغ ولا نعومة القمر على صفحة النهر المطلسمة ولا ملايين النجوم المرتعشة وكأنما من برودة ريح تهب هناك . كان شارع ابي نوّاس زاخراً بالناس ، العائدين الى بيوتهم بعد يوم حافل بالحماس واللغط والآمال ولكن ، انا المدمن على التشرد غير المتعود على دفء البيوت ، المتسكع الملول ، الحائر الباحث بجنون ، عن شيء يريحني ، لا اعرف ما هو بالضبط ولكنه شيء يملأ فراغ نفسي ليس هو الخمرة على الاطلاق ولا البيت ، ولا المرأة ولا الحكم الوطني ولا الثورة ، بل كل هذه مجتمعة وأشياء أخرى لا اعرف اسماءها بالضبط أنا ذلك الرجل البسيط المقعد ، امتطيت حصان تشردي الاجرب الهزيل ، ورحت اجوب شارع ابي نوّاس مثل دون كيشوت مكسور حتى رأيت شيئاً يلمع في عيني فدخلته

كان الامباسودور زاهياً من الداخل يممت صوب البار لم يكن صاخباً ، كما صوره لي محسن ، ولم يكن فارغاً مثلما رأيناه ونحن نحتسي القهوة كان البار الامريكي قد جذب اليه من يحبون ان يعرضوا ظهورهم وعجيزاتهم

للآخرين . ووجوهم للزجاجات المسكرة وكانت بعض الموائد عامرة وعناكب النهار على الحائط صارت مصابيح زاهية في الليل ولم اجد محسناً بينهم لعله تزوج وهو الآن يتمتع بدفء البيت والزوجة قبل ايام رأيت صورته مع كبار الاقتصاديين في زيارة لمستشفى السلام كان يبدو اضيأ عن نفسه جاء النادل وطلبت كأس « مارتيني وكنت استعذب رهذه الكلمة كلما قرأتها في كتاب أو شهدتها في فيلم وجلست وحدي ارشفها

لا اعرف أين قرأت أن الانسان ، اذا بدأ يسكر وحده فانه في أول الطريق الى الادمان ولكن لماذا يسكر الناس ؟ أليس بسبب احساسهم بالوحدة – اذن فقد خلقت بذرة الادمان فيهم مثل بذرة الخطيئة الاولى منذ عشرة أعوام وأنا اتعهد هذه البذرة بالرعاية والسقي حتى امتدت فروعها في شراييي كلها وصرت أعيش لها ولنفسي مثل المصاب بالدودة الحلقية ، يطعمها ويطعم نفسه وتذكرت ملاحظة الدوس هكسلي إن الذين ماتوا من الخمرة والمخدرات خلال التاريخ اكثر من الذين ماتوا في سبيل دينهم وأوطانهم واشعرني ذلك بالمهانة والذل لن أشرب كأسا الا وأدفع لها الثمن مضاعفاً لماذا حركت نوري وجعلته يتعذب؟ لأعذب نفسي من خلال عذاباته ؟ أصبحت احاديثه حزينة يخرجها مع قطعة من احشائه اكتشاف الطرق لم يـعُدْ له رونق اصبح ذكرى عابرة ولأنك لا تمارس الشيء الذي تريده وبالشكل الذي تريده فان كل امجادك الماضية تصبح خيوط عنكبوت ، تصبح ذكريات معذبة ، مثل زروع عزيزة عليك ، زعيتها في حياتك كلها ينقطع عنها الغيث ، وتصاب بالمحل تصبح اوراقَ عُمْلةٍ لاغية ! ان سعادة الانسان هي في ان يمارس من الولادة حتى الممات العمل الذي يهواه ، وبالشكل الذي يرتضيه وباطراد في المتعة ، واكتشاف الجديد من الاشياء . وياويله . اذا توقفت هذه العملية

حتى في شيخوخته هذا ما كان نوري يريد ان يقوله لي لم يعد يجد متعة في عمله تسربت الحرارة من بين اصابعه واصبحت ذكرياته القديمة عذاباً له. في الماضي كان يتكلم عن ذكرياته كانتصارات واليوم كان يتحدث منكسراً مخذولاً الآن الخمرة حركت لواعجه، وضخمت متاعبه؟

وجدت الكأس امامي فارغة تناولت خلسة الورقة الصغيرة التي تحمل ثمنها غطيتها بكفي، وسحبتها رويداً نحو حافة المائدة، وضممت عليها يدي، وتلفت ثم قرأت ربع دينار! جيبي يسمح اذن بكأس أخرى. اشعلت سيكارة ونفثت دخانها التدخين ينقي الخمرة من تفالتها، يفلترها في الدماغ وقبل ان اطلب الكأس الثانية سمعت صوتاً منحوت النبرات بالقرب مني ولم اخطىء في تصوري لصاحبه كان محسن يهم بالجلوس على مائدة مجاورة مع رجلين آخرين ناديته.

— هاي انت هنا؟ اقسم بشرفي أنني حلمت بك البارحة

وجاء نحوي فاتحاً ذراعيه وعانقني وقال «هاي انت وين؟». يعني صحيح الصحافة تلعب دوراً عنيفاً في هذه الايام ولكن لا يجوز ان ينسى الصحفيون حلفاءهم القدامى تعال أعرفك وقرب فمه من اذني وهمس

— هاي انت شارب؟

وسحبني من يدي وقال معرفاً إياي بصديقيه — كريم داود صحفي. زميلي في الدراسة من أيام القاهرة الأستاذ محمد حامد، الأستاذ مكي طاهر.

كان أحد الصديقين ضخماً ممتلئاً يحمل غليوناً وهو الذي سماه محمد حامد والآخر أكثر شباباً وأقصر قامة

جلست جاء النادل وأعطاني الورقة الصغيرة التي تركتها على الطاولة خطفها محسن مني ووضعها في جيبه. قلت لمحسن همساً:

كنت أتصورك تنعم في بيت الزوجية

– قال همساً أيضاً

– أسكت القضية تعقدت بعدين أحكي لك – ورفع صوته يقول – أستاذ حامد أنت تعرف كريماً لقد حدثتك عنه

ناد رأس كبير وبرزت ابتسامة من تحت أنف طويل

– نعم أتذكر

– كان يكتب ضد نوري السعيد في مصر شاب متفتح على كل حال ولكنه لا يخلو من مشاغبة بسبب أحلامه الكثيرة مخلص لوطنه يريد أن يحقق التقدم دفعة واحدة ذات مرة جاءني معذباً لأنه رأى بلاده من الجو صحراء جرداء قلت له يا أخي نتظر وسيصبح العــراق جنة عدن

قال الأستاذ حامد

– الأحلام سهلة ولكن الواقع شيء اخر

أقلت مر

– الواقع مر ؟

– لا أقصد الى ذلك بل أن تغيير الواقع عملية صعبة ومعقدة لا سيما إذا كان الواقع مثل واقعنا

سكت الأستاذ حامد فتساءلت مستفهماً

بأي شيء يمتاز واقعنا ؟

ع محسن بالرد

بالأمية والعصبية والحزبية والطائفية إلى غير ذلك من الآفات

امتعضت من هذا الجواب المتحامل المقصود قلت

إذا كان للثورة حلها الصحيح منطلقها الصحيح فلا خوف من ذلك

تحدث الأستاذ مكي طاهر هذه المرة قائلاً باقتناع وثقة

لا أظن أن أحداً ينتقد منطلق ثورة ١٤ تموز انطلقت من بداية صحيحة جداً ومنطقية جداً — ثم تنهد شابكاً أصابع يديه — الإختلاف جاء فيما بعد أي اتجاه تأخذ الثورة

قال الأستاذ حامد

أعتقد أن الثورة وقعت تحت ضغط الجماهير

قال محسن

— جماهيرنا ؟ نحن نعرفها

جابهته قائلاً

— ولِمَ هذا الإحتقار للجماهير ؟

— لا أحد يحتقرها ولكن لا أحد ينكر تخلفها

أعتقد انها ذكية بالفطرة

قال الأستاذ بتضامن :

هذا شيء مقبول   ولكن الجماهير وحدها لا تصنع الثورة
هذا ما تعلمنا إياه الماركسية على الأقل

قلت متضايقاً من إقحام الماركسية في الموضوع

— وبغير جماهير لا تستطيع أن تصنع ثورة

رفع مكي طاهر سبابته   وقال

— على شرط أن تضعها تحت تأثيرك   وتنظيمك دائماً   والا أفلت
منك

كما حدث عندنا

قلت متوسلاً بأبسط الحقائق لتفسير سلوك الجماهير

— ان الجماهير لم تفعل شيئاً سوى أنها عبرت عن آمالها   بطر
ساذجة أحياناً   كانت جماهيرنا   إلى عهد قريب   مكبوتة مقهورة
حق لها في التظاهر وإبداء الرأي والتجمع   لا حق لها في إظهار سخط
فرح   في السير أكثر من خمسة أشخاص في الشارع   لا حق لها في
ترفع رأسها لتلقي نظرة في وجه الحاكم ، لأن ذلك كان يفسر بته
الإحتقار والتآمر   هذه الجماهير وجدت   لأول مرة في حياتها الطويلة
فرصة لتعبر بحماس عما تحب وعما تكره   فماذا تريد منها ؟

هز الأستاذ حامد رأسه   وقال

الخوف فقط أن تُستغل هذه الجماهير الجاهلة   وقد استغلت بالفعل
في مناسبات عديدة

قلت :

يجب التمسك بخط الثورة الصحيح الذي يعبر عن مطامحها

ضحك الأستاذ مكي ربما لأنني قلت جملة اعتبرها شائعة مبتذلة ولكنها خطرت ببالي على أية حال

— أي خط تقصد ؟

— الخط الحقيقي لها الخط الذي يجب أن تسلكه لخدمة الجماهير التي هتف لها وتدافع عنها

لم يوافقني الأستاذ حامد على هذا التعميم وعدم الدقة في التعبير أمسك بأطراف أصابعي وخفض صوته لأن محسناً كان يقدم الطلبات للنادل

— أخي دعك من هذه التعميمات التي لا تفيد ودعنا نتحدث بصريح العبارة إذا وافقك ذلك هناك خط واحد صحيح يقره ماركس وانجلز ولينين —ثم نفخ صدره. وقال— يا أخي ، والله العظيم نحن درسنا الماركسية أعتقد أنها نظرية عظيمة وهي تعطيك وضوحاً وتجعلك تحلل بشكل صحيح وهذه الفلسفة ذاتها لا تؤمن بالتطرف ولا بالطفرة هذه الفلسفة ذاتها قالت أن هناك مرحلتين للثورة أو ثورتين الثورة الديمقراطية البورجوازية والثورة الإشتراكية ونحن بلد متخلف كان إلى قبل سنتين نصف مستعمر نصف إقطاعي وثورة تموز ديمقراطية برجوازية همها أن تحقق مهمات هذه الثورة وهي تكافح بعسر ومشقة لتحقق هذه المهمات وهذا العسر والمشقة ليسا آتيين من مقاومة الرجعية لها بقدر ما هما متأتيان من عدم فهم البعض لطبيعة الثورة ومحاولتهم دفعها في طريق انتحاري بتحميلها أكثر من طاقتها .

قلت

لا أظن أحداً طالب بأن تكون إشتراكية

احتج صوتان

– طالبوا ويطالبون

قال محسن

– الأخ كريم لم يشهد المد كان في الخارج هذا حقه

قلت مدافعاً

– ومع ذلك كنت على علم بما حصل – والتفت إلى الأستاذ حامد واعترتني رغبة في أن أعارضه قلت – ولكن الماركسية أيضاً تؤمن بحتمية الإشتراكية

– ولكن لا تفرضها فرضاً لا تسبق الزمن

– ولكن لا تلزم الجميع على أن يقنعوا ويتغنوا بفضائل الثورة البرجوازية.

قال محسن ضاحكاً وهو يعصر زندي

– مشاغب أكبر مشاغب

– وما نوع المشاغبة في ذلك ؟

– استعمال كلمات ساخرة ان عدم الثقة ستقتلك ، يا كريم

– لقد قلت لك ستجدني واثقاً إذا وجدت أمامي أعمالاً مهمات تتحقق حتى ما يسمى بمهمات المرحلة البرجوازية

قال الأستاذ مكي مستفزاً :

المكابرون وحدهم ينكرون على الثورة أعمالها

ـ أنا لا أنكر أنها قامت بأعمال كثيرة ولكن لا أريدها أن تتوقف

لا أعتقد أن اثنين يختلفان في الأعمال الجبارة التي قامت بها

وجاء النادل بالطلبات ولزمنا الصمت طيلة انشغاله في صف الأواني والأقداح على المائدة وزجاجة الويسكي في الوسط وعندما ذهب أخذ محسن يصب الويسكي في الأقداح بينما شبك الأستاذ حامد يده وغرق في تفكير خلا إلى نفسه يستلهمها المزيد من الحجة وإذا به يقول

ـ مهمات المرحلة البرجوازية حتى بهذا يتشككون ؟ سأحكي لك عن نفسي عن تجربتي البرجوازية ولو ان هذه الكلمة مكروهة الآن وتثير الإشمئزاز يقولون الحكم برجوازي ويكرهون البرجوازيين ولو أنهم لا يظهرون ذلك دائماً يعني أنهم يكرهون الحكم في قرارة أنفسهم أنا، يا أخ كريم. عصامي اشتغلت بأعمال كثيرة شاقة جمعت منها خبرة .وفي عام ١٩٥٤ كونت مع صديق لي شركة عراقية صرفاً للمقاولات.

وسرد قصة طويلة مطعمة بأسماء شركات أجنبية وبنوك كانت تحكم العراق بينما كانت البرجوازية الوطنية مسحوقة

ـ كان على المقاول العراقي أن يستجدي ويقدم الرشاوى حتى ربوا فيه عقدة الخوف والشك في النفس

وتوقف الأستاذ حامد ليشرب من كأسه وأحسست بأنني أفلت من شيء كان يقيد حركاتي ناولني محسن كأساً رفضتها في بادىء الأمر ثم قبلتها انسياقاً مع الشعور بالحرية . كانت رائحة التبغ الذي يستخدمه حامد

قوية خانقة حتى بالنسبة لي أنا المدخن وددت أن يكف عن محاضرته كان يتكلم معي وكأنني غريب عن البلد لا أعرف عنه شيئاً وهذا الذي أغاظني من حقائقه المعروفة

قلت متخوفاً من امتعاض بدأ يغشاني

اعتقد ان هذا الوضع معروف انا نفسي كتبت عنه في مصر

كان كلامنا حول مهمات المرحلة البرجوازية فانظر ماذا فعلت الثورة لتحقيقها دعني أتكلم أرجوك وجاءت ثورة ١٤ تموز بعض الشركات رفضت التعاون مع الحكم منذ البداية وبعضها انسحب يريد إحراج الحكم، وكنوع من الضغط ولكن الثورة كانت لها خطة منطلق على حد تعبيرك تساءلوا ألا يوجد مهندسون عراقيون خبراء عراقيون؟ أيد عراقية ؟ كل شيء موجود والحمدلله فقط أن يتوفر التشجيع وقد توفر بل إن المساعدات المادية أعطيت للمقاولين العراقيين. وعمل العراقيون ونجحوا والآن لم يسبق أن مرّ العراق في كل تاريخه بهذا الإنتعاش الإقتصادي.

ولخص الأستاذ مكي الوضع قائلاً

— كل شيء في سبيل التعريق كل شيء ستكون عليه ماركة عراقية فقط أن ينعم العراق بالإستقرار وسيادة القانون

بادرني الأستاذ حامد

— ألا يسرّك هذا وأنت الوطني ؟

يسرني ولكن لا يولد القناعة في نفسي أنا دائماً أريد وأريد

قال الاستاذ مكي

ماذا تريد ؟ ثورة جديدة ؟ كفاية ثورات شبع الشعب العراقي من الثوريات خلال سنتين

وصاح محسن

خاطر الله ماذا يريدالناس بعد ؟ حكم وطني ، ديمقراطية معامل مشاريع مستشفيات واحياء جديدة للعمال مدن كاملة تبنى لهم ونقابات وجمعيات ماذا يريد الناس بعد ؟

ضقت بلهجة محسن الإستسلامية فقلت له

يا محسن أنت ملكي أكثر من الملكيين

– من الأحسن أن تقول أنت جمهوري أكثر من الجمهوريين

سألني حامد

ما الذي تعترض عليه في الواقع ؟

شربت جرعة من كأسي وقلت

– لا اعترض على شيء ولكن عندما تكون البرجوازية في نعيم تتصور ان الجميع مثلها مثلما تصورت ماري انطوانيت

ضحك الثلاثة واعتبروا كلامي نكتة وفتح ذلك عقدة لساني وأرخى من أساري تحدثت كثيراً وفجأة تخاصم الويسكي والعرق في شرايبي أفعوانان شريران من الغرب والشرق وشعرت بدوار مصلوب في دماغي قال محسن جملة تضايقت منها كانت ضحكته المجلجلة ترن كالحجارة في رأسي سألني حين حدقت به :

لماذا أنت ممتعض ؟ أما زلت في حمام المالح ؟

غاظني كلامه جداً وأشعرني بالاعتداد الأرعن

نعم محسن وسأبقى هناك إنه حي راسخ في الأرض من تربة هذا الوطن كما يقولون

– تربة الوطن موجودة في جميع أحياء بغداد

هذا الحي يشعرني بالارتباط مثلما تشعرك سيارتك ومركزك في الشركة

– بدأت تعض ؟

سمعت من يساري من يقول

– لماذا الأخ منزعج ؟

– منزعج من نفسي

– هل سبّب لك كلامي متاعب ؟

– لا أبداً متاعبي موجودة قبل كلامك وبعده

– ها ها ها

ألم أقل لكم إنه مشاغب ؟ إنه لسان خشن كالمبرد

– اسمعوا يا أخوان دعونا نتحدث عن أشياء لا تجلب الجدل

– أنا قلت البرجوازية مكروهة ولو كانت على حق

– البرجوازية على حق حين تتكلم عن نفسها فقط أما عن العالم فهي على باطل .

نحن أن نتكلم عن أنفسنا

اذن لا تتحدثوا باسم الجماهير

الجماهير لنا هل رأيت المظاهرة يوم الجمعة الماضي. ؟

تلك الجماهير لم تكن لكم

– لمن أيضاً ؟

للثورة إنها لا تخص أحداً إنها جماهير الثورة

الثورة البرجوازية أم الإشتراكية إذا قلت الإشتراكية فسأقول أنت سكران

الإشتراكية الإشتراكية

لا يا كريم تخنتها .!

– لماذا تريدون الجماهير لكم وأنتم لا تحبون إلا أنفسكم ؟

– ومن لا يحب نفسه ؟ الشيوعيون !

نحن لا نحب الشيوعيين لأنهم يلغون الملكية الخاصة ولا القوميين لأنهم يسلموننا لعبد الناصر

الحياة تتجمد لديكم في اللحظة المكتسبة أنتم ملك الحاضر فقط عبيد الحاضر

فلسفة لم أسمع مثلها

– الحياة استمرار ، عجلة تسحق الواقفين أو المتأخرين

من يتأخر نحن كفص

لا تشفع حتى للذين لهم ماض رائع

– ها ها ها يريد أن يقول أن الحياة خيارة مرة في يدك ومرة في.

الحياة قاسية لا ترحم ويلي عليك نوري

نوري ؟ بدأ يترحم على نوري السعيد

– نوري السائق من تربة هذا الوطن

– سائق عربانة ؟

الظاهر سكر

– لم أسكر أنا أعرفه قص عليّ حياته كلها الحياة لا ترحم الحياة البرجوازية

– لم يشرب هنا كثيراً فلماذا

كثير

–

صديقي حدثتك عنه

تو قفت سحـ . ـمة ـلك

– طيب لا تتوقف أنت حر يا أخي

– لن .. أبداً .

ها طيب اهدأ

لن أتوقف لن

- ٣ -

صوتي مبحوح وحلقي جاف صرخت بهم صرخة بلا صوت هذه ليست جماهيركم كشفوا عن أنياب بيضاء طويلة على وجوه زرقاء مغبشة إذا قلت اشتراكية اعتبرناك سكران سكران نعم اشتراكية سكران تسمعون صوتها خارج الفندق تملأ الدنيا تعالوا إلى الشرفة تعالوا وخرجت ورأيت النهر قد وصل إلى باب الفندق وهو مملوء بالزوارق ، مظاهرة ! وتأسفت وأحسست بانقطاع وخيبة مظاهرة صامتة ثم لمحت الجماهير محتشدة في الجانب الآخر رؤوس رؤوس ، ودوي مبهم موصول لا إنساني لوحت لهم ولم أرَ وجوههم كتلة ضخمة من الرؤوس في البعيد رأيت شعاراً مرفوعاً إشتراكية يتراقص أمام عيني يجيء ويروح فوق الرؤوس رؤوس بلا أجساد .بعيد بعيد إلى الأسفل تدحرجت غاب العمق قلت لنفسي غير معقول سمعت ضحكة محسن الخشنة كالمبرد هل تحب رؤية المعارض ؟ كنا نبحث عنك لماذا أنت واقف أمام هذه الصورة تعال تعال تصالح معهم يا أخي هذه صورة مقطوعة من الجرائد . اشبيك تعال اشرب لا ما روح حاول أن يسحبني ما روح ما روح أوه ضربة على رأسي بمطرقة صدى في أذني صداع أوه ، أوه أريد أن أتخلص من هذا المأزق عرفت الحل أفتح عيني أقفز بكل كياني أنتشل نفسي من الهوة الثقل انتفضت وتبدل المنظر أنا في غرفة سجن مستشفى ظلام بحلقت ، مددت عنقي

أنتشل جسمي الثقيل أقبلت على الأشياء هاجمتني راحت وجاءت أمام عيني تضخمت تراقصت اتخذت أشكالاً مختلفة ثم عادت إلى أماكنها توقفت أخذت أعرض هويتها صندوق عليه راديو سرير في الجانب الآخر مكتب كتب نافذة شرفة هذه غرفة اسماعيل

رأسي ملتهب بالصداع وحلقي جاف وجسمي أثقل حاولت أن أنهض لأشرب الماء تقاعست أغمضت عيني

الفصل السادس عشر

– ١ –

طفوت على سطح الوعي حملتني موجة تائهة من أعماق بحر النوم وشممتني أنفاس الحياة فقفزت اليها بكل جوارحي وكأنما أهرب من موت محتوم هكذا أنا. كلما صحوت من سكرة أحس وكأنني نجوت من ميتة انفتحت عيناي على ألوان ساطعة ثم انغلقتا كان الصداع يضغط على صدغي مثل كماشتين حاميتين ومع الصحو جاء الإشمئزاز والغثيان والضعف والندم شلل الإرادة موت الرغبات إنثالت عليّ ميزّق من ذكريات البارحة كريهة الرائحة سامة ظلت تتراقص أمام عيني كالأشباح في عرس الخطيئة فتحت عيني ورفعت رأسي الرصاصي عن المخدة لم أنطق خوفاً من أن تخرج الكلمات من فمي الجاف مهشمة لاإنسانية وعندما سألني عن حالي هززت رأسي تمتمت متهيئاً لأن أجازف وأتكلم كما يتكلم الناس وسمعت زلمه وعرفت ما تنطوي عليه حتى قبل أن يقول « هذا انتحار كان وجهه معبأ بمكنون لسانه الكلمات تطل برؤوسها القارصة من أساريرو جهه وددت لو أسأله سؤالاً واحداً ولكنني خفت جوابه لا بد أن يكون جوابه مخجلاً أنا لا أعرف كيف وصلت البارحة إلى هنا حاولت جاهداً أن تذكر حاولت بكل بقايا إرادتي المهشمة حاولت خلال جدار الصداع ولكن لا شيء كأنما جزء

من حياتي بتر من ذاتي بتر أ مت موتاً مؤقتاً لا وعي ولا ذكرى حمل اسماعيل لي قدح القهوة ووضعه أمامي ودعاني إلى الشرب دربت اساني في فمي والكلمة الأولى التي نطقت بها هي

ـ أنا آسف.

ـ على أي شيء ؟

على الإزعاج البارحة

يا زلمه أنا خفت عليك هل تعرف كيف وصلت البارحة

هذا ما كنت أريد أن أعرف

أوصلك رجل قصير ذو شارب عريض كنت لا تستطيع أن تصعد الدرج

وفجأة أفلتت من اسماعيل ضحكة وكأنما تذكر منظراً فكاهياً تصورت أنا المنظر اثنان يسحبانني عبر الدرج الضيق عاد اسماعيل يقول

ـ أنا لا أعرف كيف يقتل الإنسان نفسه كيف تبيح ذلك لنفسك هل الحياة رخيصة بهذا الشكل ؟

ـ أحياناً تبدو كذلك

ـ يعني يئست أصبت بانهيار

ـ عندما بدأت أشرب لم أرد أن أقتل نفسي

ـ ولكن كنت في حال سيئة خفت أن تموت .

مجرد أنني خلطت في الشرب .

ألم تكن البارحة مع نوري ؟

– ودعت نوري قبل العاشرة فذهبت هناك و

– من هذا الذي أوصلك ؟ عنده سيارة ضخمة

– صديق لي اسمه محسن مدير عام

قال بعد هنيهة من الصمت

– كريم أنصحك بألا تفرط في الشرب ستقع يوماً ما ستنهار صحياً كف عن الشرب الثقيل إكراماً لصحتك

– لا أشرب بهذا الشكل ولكن حديث البارحة استفزني

– ولم تتحمل ؟ أنت قليل التحمل بشكل عام ولهذا تلجأ إلى الخمرة الذين يخمرون أصحاب أعصاب ضعيفة لا يستطيعون مواجهة العالم بها عم كنتم تتحدثون ؟

– وأي حديث للعراقيين اليوم غير الثورة والإتجاه الذي يجب أن تتخذه ؟ ولكن لا أذكر الحديث كله يبدو أنني أسرفت في ردي عليهم وكنت غليظاً معهم

وهم ؟

– ألقوا علي محاضرة طويلة عن تفتح البرجوازية واعتبروه مكسباً ثورياً

– وهل غاظك ذلك ؟

لم يغظني هذا لا أذكر ماذا أغاظني نعم تذكرت كانوا يتحدثون عن الجماهير وكأنها ساعة في معصمهم ينصبونها فتشتغل لهم فقط نعم أتذكر أننا كنا نتحدث عن الجماهير كل حاكم مغرور أو صاحب سلطة يدّعي أنه متَلّكٌ الجماهير وأنها الآن رهن بنانه كل طبقة تنعم بالدعة تتصور أن الجميع مثلها يعيشون في رغد ويأكلون الحلوى مثلها هذا الذي أغاظني

وماذا تنتظر أن يحدثوك به ؟ عن مكاسب البروليتاريا ؟ البروليتاريا وأنصارها لا يجلسون في الأمباسادور كيف تسللت اليه ؟

ذهبت اليه مع صديق ذات مرة ليتني أعرف ماذا قلت بالضبط العقل الباطن انطلق

ونهضت وقلت لا بد أن أرى محسناً أريد أن أعرف ماذا قلت.

لا تذهب اجلس واسترح

لا اريد الذهاب

وتملكتني نوبة من الاصرار لا بد ان اذهب الى محسن واوضح له نفسي لا لأصحح انطباعه، ولكن لأفهمه نفسي بلسان صاح على الأقل لأثبت أنني لم أقل ما قلته البارحة لأنني سكران بل هذه آرائي في صحوي أيضاً ليست الجماهير ملكاً لفرد إنها ملك الثورة نعم هذا ما قلته البارحة ملك الثورة ورحت وجئت في غرفة اسماعيل كالمخبول وألقيت عليه آرائي وكأنني أقوم بتجربة إلقاء

نعم، يا اسماعيل. قلت لهم ليست الجماهير ملكاً لاحد، بل هي ملك الثورة الجماهير لا تلحق رجالاً بقدر ما تلحق المبادىء التي يلوحون

بها واذا خانوا هذه المبادىء خانتهم ونبذتهم النواة بينما هم أخذوا يحدثونني عن الإستقرار عن سيادة القانون حدثت ثورة فماذا يريد الشيوعيون بعد ؟ كفاية ! كل يوم ثورة ؟ إن هؤلاء البرجوازيين وعمّاظ القناعة المزيفين ما أن تتحسن أحوالهم ويمتلكوا ناصية الحكم حتى يبدأوا بالترويج بأن العالم وصل إلى أحسن ما يمكن أن يصل اليه وعليه أن يكف عن الحركة إلى الأمام عن الحلم عن المطالبة عن الطموح

ـ أقعد أقعد هذا تمثيل

ـ لا أين ماكنة الحلاقة ؟ اعطني إياها أرجوك

ـ سأفتح الشرفة واذهب واغسل عينيك أنت لا تستطيع أن تفتحها

ونهضت وغسلت وجهي في المغسلة كان الماء بارداً وكان رأسي يلتهب جازفت وسكبت الماء عليه وشهقت شهقات قصيرة متتابعة ولذيذة وأحسست ببشرتي تنكمش ولكن ذلك أنعشني وبعد دقائق كنت حليقاً كامل البزة خرج اسماعيل معي وأصر على أن يصاحبني ولكنني أردت أن أكون وحدي

ـ ٢ ـ

في الطريق ساءلت نفسي أهذا جبن ؟ أن أذهب لأدافع عن نفسي كأنني غير واثق من آرائي مواقفي كلها تمثيل كما يقول اسماعيل وأنا ذاهب للتأكد من أنني مثلت الدور دون أن أخدش عواطف الجمهور هذا هو ! وترددت قطعت مسافة عشرة أمتار جيئة وذهاباً لعدة مرات متأرجحاً في فراغ التردد مسلوب اليقين ولكن هل حقيقة أن آرائي كاذبة ، حماس أكثر من اللازم ؟ أليست الجماهير مللك الثورة ؟ أم هذه

مجرد أقوال رومانتيكية الحماس لا مجرد أن كلامي لم يكن في موضعه ولماذا قلتها ؟ كان في الإمكان الإلتزام بالمثل القائل أن تكون أحمق في الوقت المناسب خير من أن تكون حكيماً في الوقت غير المناسب لم تكن حماقتي في وقت غير مناسب كانت مجرد دفاع عما أعتقد انه صحيح واذا كان عقلي غير صاف فليس لأنني سكران بل لأن في الثورة قلما نجد عقولاً صافية

كانت وزارة التخطيط بناية غير مخططة ضئيلة صفراء طوفت في دهاليزها القصيرة مصحوباً بنظرات الفراشين المتساءلة و نعم سيد طلبت أن أقابل الأستاذ محسن قالوا إنه في اجتماع سأنتظر . ولما جلست على الكرسي الذي يجلس عليه الفراش نظر صاحبه إليّ نظرة مستهجنة تريد أن توقفني . ولما لم أقف يئس ، واندفع منها إلى غرفة عاد منها بـ «تفضل ! »

لم يكن محسن وحده في مكتبه كان معه ثلاثة وصافحني عبر المكتب واقفاً قصير القامة وضاء الإبتسامة فاحم الشاربين وقال

كنت أتصور أنك ما تزال نائماً بهذا النشاط أصبحت ؟

– هذا مجرد تحايل لتجاهل الصدع

– أنا أيضاً أحس بصداع خفيف

واستأذن الثلاثة بالانصراف وعدهم محسن بأن يستأنفوا الموضوع اليوم على الغداء ولما انصرفوا ازداد وجيب قلبي سألني محسن قهوة ، شاي ؟ كان الفراش على الباب فطلبت ما جاء على لساني أخذ محسن يقلب الأوراق أمامه ، ويوقع عليها مدير عام حقيقي ! إنشغل عني وطال انشغاله وضقت بهذا الصمت البارد مثل جو ثلاجة لحفظ الجثث وعندما جاء الفراش بالشاي ناوله محسن الأوراق قائلا : خذها إلى اللجنة ثم التفت إليّ بعد ذهاب الفراش وقال :

هل رأسك يوجعك من الجدل أم من الخمرة ؟

– من كليهما

ضحك وقال

– لم أكن أتصور أنك ستسكر من كأس واحدة الظاهر أنك احتسيتها بكثرة في مكان آخر

– كنت مع شخص عزيز عليّ فشربت. كان يحدثني عن حياته الموجعة

– هذا الذي سميته نوري ، فخري ؟

– هل ذكرته لكم ؟

– نعم كنت تتألم له ربما هو الذي أثار شجونك ، لا الأشياء الأخرى التي طالبت بها

– وهل تريد أن تمنعني من المطالبة ؟ هل كفّ العالم عن التحرك ؟

– يتحرك ولم لا ؟ ولكن بالاتجاه المطلوب

– اتجاهكم أنتم ؟

– عدنا إلى « أنتم » ؟ أنت تخاطبني وكأنني برجوازي كبير أنا فقير يا كريم والله العظيم ، فقير هل تعتبر السيارة ثروة ؟ أصبحت لكل الناس سيارات ، أصبحوا جميعاً في وظائف وكلهم يطمح في الزواج هل تستكثر عليّ ذلك ؟

– لا أستكثره ، ولكن لا أقرك إذا ربطت كل ذلك بالثورة وجعلتها مكاسب ثورية ، وتقعد تدافع عنها وتقول انتهى كل شيء اتركوا السياسة هذا آخر الدنيا . لقد انتهت الثورة .

— و نظل نعاني من الفوضى إلى الأبد ؟

— هذه ليست فوضى هذه مظاهر للثورة ايضاً

— ثورة ثورة ستقتلنا هذه الثورة ألا يكفي ما قمنا به من ثورة ؟

— هذا هو الفرق بيني وبينك

— لا أجد فرقاً أنا أتألم مثلك أنت ركبت الطائرة ورأيت بلادك صحراء من الجو وتألمت أما نحن على الأرض فنراها اكثر تعاسة وأشقى ما الفرق بيني وبينك ؟ كلانا وطني

— الفرق كبير ، يا محسن أكبر من أن تتصوره

— شكراً ، يا زميل الدراسة أنتم دائماً تتهموننا بالغباء ما هو الفرق ؟

— الفرق في فهمنا للثورة أنت تعتبر الثورة ولادة تأتيك بالوليد سليماً جميلاً لا كلفة له ولا آلام ولا مشاركة للموت فتلبسه أنت الثوب الذي تحبه ، المعد له سلفاً أما أنا فاعتبرها مخاضاً ، وفي حالتنا مخاضاً عسيراً كل شيء تتوقع منه الآلام الدموع الدماء معانقة الموت وقد يأتيك الوليد سليماً أو كسيحاً أو حتى ميتاً

قال في تهديد

— أنت ، إذن تنكر أن الثورة صنعت شيئاً ؟

— صنعت وبشرت ولكن لم تلد بعد ؟

— ماذا تلد ؟ الاشتراكية ؟

— وحتى في الاشتراكية تظل الثورة جارية ، والمطالبة موجودة . إذا

كفّ شعب عن أن يريد انطفأ ومات يجب أن تبقى المطالبة والإرادة دئماً وأبداً إنها تأشيرة الدخول إلى المستقبل

– ونحن ؟ حطب هذا المستقبل نموت وسط هذه النار المشتعلة

– الثورة تحتاج إلى تضحية

– تضحية ! ألم نشبع منها ؟

– التضحية هي الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن تأخذ كفايتك منه

ضحك محسن ، وخرج من وراء مكتبه باسماً ، وأقبل نحوي هازاً رأسه ، ضارباً جنبيه وقال

– أما أنا فأشعر بأنني أخذت كفايتي منها أعتبر حياتي الماضية كلها سلسلة من التضحيات

– أية تضحية قدمت ؟ هل دخلت السجن ؟

– يا عزيزي كريم – وضم محسن يديه على صدره وتابع قوله بعاطفة – ليس الذين في السجون أكثر الناس تضحية بالضرورة بل ربما كانوا أكثر منا راحة ضمير لا عين رأت ولا أذن سمعت العالم بالنسبة لهم منسيّ ، وخارج أنظارهم وأسماعهم أما نحن الذين كنا نعيش في الحرمان فقد كنا نتعذب أكثر منهم لأننا كنا نرى العالم حولنا يسبح في نعيم نرى المباهج والأغنياء والمسرات التي يقتطفونها نراهم يتمتعون بآلاف المتع أما نحن فاذا طمحنا في أكل وجبة كباب ذهبنا إلى الحاج شحاته لنرهن ساعتنا ، ولنأكل في مطعم رخيص

– ليست هذه تضحية .

تأوه محسن وقال

– ليست تضحية ؟ ماذا تسميها إذن ؟ ثم أليست تضحية كبرى أن نذبح شبابنا على عتبة الحرمان ؟ قل لي ما هو الشيء الأكثر روعة من الشباب ؟ لا أظن أن هناك ما هو أروع من الشباب لأنه ربيع قصير لا يتكرر أبداً وقد ذبحت أنا شبابي ذبحاً انفقته على الأحلام الكاذبة والعادة السرية والآن حين يولي الشباب وهو على وشك أن يُولي ، فما هو العوض له ؟ أي مال ، أي جاه ، أي نساء ، أي جنة ؟ عندما أشيخ لن يعوضي حتى منصب رئيس الجمهورية أوه ، يا كريم ربما عدت شبعان من المرأة

فوجئت بتحوله المفاجيء قلت

– هذا شيء آخر

– قل لي أرجوك هل أخذت كفايتك منها ؟

ولماذا تقلب الموضوع ؟

بالله عليك حدثني هل النساء هناك غاليات التكاليف مثلما هن هنا ؟

– لم أدخل في عملية شرائية معهن

– هل يطلبن منك سيارة وقصراً أو أن تكون عائلتك معروفة ؟

جرني إلى الكلام جراً

– عمليات المقايضة البرجوازية انتهت هناك

– وما حل محلها ؟

– أن ترضى المرأة بك .

– وإذا تقدم إليها ضابط ؟

لا يهمها من يكون المهم أن ترضى بك ، أن تحبك

– شيء عظيم إذا كان ذلك صحيحاً

– صحيح يبدو أنك في أزمة

– إن التي أردت أن أتزوجها جذبها قطب أثقل مني

– تلك التي اشتريت منها الأسبرين ؟

– هي نفسها ستبيع صيدليتها وتصبح زوجة ضابط له مستقبل

– يعني انتهت نهائياً ؟

– أظن ذلك أنا لا أقوى على المزاحمة

جاء اسماعيل متأخراً إلى الوكالة قال انه انتظر نوري كالعادة ولكنه لم يأت في الموعد المحدد فأضطر إلى الخروج إلى الشارع ، واستئجار سيارة من هناك إلا أن وصول الأخبار قد تأخر أيضاً ذهب المراسل إلى الاذاعة ليجلبها من آلة الاستقبال التي كانت منصوبة هناك ولم يعد لزمنا أماكننا صامتين كانت ماجدة تجلس وراء طابعتها مطوية الذراعين على صدرها منكسة الرأس حتى بدا أنفها الكبير أكبر من حقيقته متدلياً على صدرها كانت تبدو حزينة ومنطفئة ذابت رقتها القديمة واستجارت بفترات من الصمت طويلة كانت تتأفف تأففاً خفياً مستحيياً دون أن تتبع ذلك بضحكتها الشهيرة يبدو أنها كبرت كانت ترتدي ملابس أكثر احتشاماً وبألوان هادئة وكانت الحلقتان الخفيفتان الرماديتان اللتان كانتا تؤطران عينيها قد غمق لونهما وصارتا واضحتين كل ذلك ارضاء لاسماعيل او بسببه وكان اسماعيل نفسه يبدو متوتراً ملولاً ، شديداً على نفسه ، وعلى الآخرين لا أذكر انه ابتسم لها في المدة الأخيرة ، ولا داعبها كانت « يا زلمة » كثيرة التردد على لسانه احتجاجية نافرة ، ضيقة . وكانت آمنة تنظر إلى أظافرها الملونة بلون شبيه

باللون الذي على شفتيها المكورتين كحبتين من الشليك وكانت اهدابها ترف مثل مروحتين سوداوين تبردان عينيها الساخنتين الحزينتين حزناً مزمناً لا انفراج له القاسيتين المربكتين وكأنهما تعاتبانك على شيء غير لائق ارتكبته لتوك أصبحت أخاف أن أكلمها خوفي من نظرة العتاب في عينيها يا آنستي لقد طويت أشرعتي من بهر هواك والحديث معك لا يحمل غير لغو الحياة اليومية منذ أن ساء خطي في نظرك ورفضتِ أن ترسمي لي الحدود لم تعد لي ذكريات تثيرينها لي نسيت كل ذكرى قديمة حتى رسالة الصغيرة لم تثر إلا سورة صغيرة في أعماق نفسي أصبحت ذكرى عابرة أشواقي الملتهبة إليها حماقات قلبي رحلات اصابعي المحمومة عبر الجسد الدافىء أصبح كل شيء رزيناً متخشباً كالمومياء

– أوه تأخرت الأخبار كثيراً !

– ستأتي متأخرة وسنخرج متأخرين

– هذا من سوء حظي أملت ان أخرج مبكراً اليوم لأزور أبي في المستشفى

– أبوك في المستشفى ، يا آمنة ؟

– نقلناه البارحة

– هل ساءت حالته ؟

– لا سنعمل له فحوصاً ونقدمها إلى اللجنة الطبية لتوافق على نقله إلى لبنان

– من سيذهب معه ؟ أنت ؟

و من غيري ؟ اختي الصغيرة في الصف الخامس ابتدائي ؟

لا يوجد أحد عندك في البيت ؟

— لا

قالتها آمنة في ضيق ودفعت يدها إلى الأمام حتى ارتطمت بمحوّل السطور البارز على الآلة الطابعة وهي حركة كنا سنضحك لها لو كان ذلك قد حصل قبل بضعة أشهر إلا أننا راقبنا آمنة تنفخ في أصابعها ولم تقل شيئاً جاء المراسل بالأخبار وقال

— سيحدث التأخير كل يوم لأن الرقابة على الاخبار أصبحت مضاعفة.

قال مدير المكتب الذي جاء معه

— سنغير وقت الاستقبال ونجعله في الثانية عشرة بدلاً من الثالثة

طمأننا مدير المكتب وانصرف قالت آمنة

كنت أريد أن أتحدث معه عن إجازة

قالت ماجدة بصوت غير صاف

— اذهبي إليه في مكتبه سأطبع أنا في مكانك

— هل تتصورون أنه سيعطيني إجازة لمدة شهرين ؟

— سيعطيك اذهبي اذهبي

وخرجت آمنة من وراء طابعتها وطبطبت بكعبها الحديدي على أرض الغرفة العارية ولكنها عادت بعد خمس دقائق وقالت أنه خرج في سيارته وفي المساء انتظرنا جميعاً ومعنا داود كانت آمنة تنتظر المدير وكنا نحن في انتظار نوري ولم يأتِ نوري .

الفصل السابع عشر

—١—

في تلك الليلة أيضاً نمت عند إسماعيل كانت السماء مسبلة الجفون ، والمطر على أهدابها خشيت أن أذهب إلى حمام المالح فأبتل أو يعسر خروجي في الصباح وأنا أحمل للمطر ذكريات سيئة منذ سكناي في عقد الطاق

اشترينا طعامنا من بقالة الشارع وسرنا صامتين إلا أن إسماعيل نظر في الجريدة التي لف البقال عشاءنا بها وقال بعد تأمل وهو تحت أحد مصابيح الشارع

— أريد أن أسألك سؤالاً إذا كفت فكرة عن الإقناع فماذا تفعل ؟

— أية فكرة ؟

— أية فكرة كانت

— إذا كنت مؤمناً بها فسأظل متمسكاً بها

— ولكن إيمانك بها وحدك لا يكفي يجب أن تجد شركاء لك في هذا الإيمان يجب أن تقنع الآخرين بها .

بالطبع

– ولكن إذا لم تجد منهم أذناً صاغية فماذا تفعل ؟

– تريدني أن ألجأ إلى العنف والقسر ؟

– ليس هذا مقصودي العنف والإكراه لا يقدمان لك مؤمنين بل جبناء مكرهين مستسلمين يقدمان لك مسوخاً لا يصمدون لأقل امتحان ، وسيهتبلون أول فرصة للتبرؤ منك الا يجعلك ذلك تفكر لماذا كفت فكرتك عن إقناع الناس ؟ أما أنا فسأفكر من السهل عليّ طبعاً أن أتهم الناس جميعاً بالغباء والجهل والإغراض أو أنهم واقعون تحت تأثير قوى شريرة ولكنني لا ألجأ إلى ذلك فإنه لا يساعدني في نجاح الفكرة التي أؤمن بها سأفتش عن الخطأ في شيئين لا ثالث لهما إما أن تكون فكرتي في الشكل الذي أدعو إليه في هذه الظروف غير صائبة وأنها تحتاج إلى تعديل لتلائم الظروف وإما أن يكون الخطأ في الأسلوب الذي اتبعه لأقنع الناس بها في طريقة تصوري لها كأن اعتبرها بديهية ولا تحتاج إلى مزيد من الجهد والإقناع

قلت مستغرباً هذا الحديث المفاجىء في الشارع

– ما الذي جعلك تقول هذا ؟

– عنوان في هذه الجريدة هل تتصور أن عربياً واحداً لا يؤمن بقضية فلسطين والوحدة العربية ؟

وبدأت السماء تنثُّ ونحن على بعد أمتار من المنزل الصغير وقبل أن ندخل البيت كانت قطرات المطر تقرقع على طرف الجريدة المفهاف .

عند العشاء قال إسماعيل لي :

عجيب ! لم يأت نوري لا في الظهر . ولا في المساء فهل تراه تمرض مرة أخرى

وأوقف اللقمة في فمي كان ينبغي عليّ أن أكون السائل وأذهب إلى حمام المالح للاستفسار عنه إلاّ أن انفعالات اليوم جعلتني أدور في سورة داخلية غيّبتني عن عالم الآخرين والآن بعد هذه الجملة ، رأيت نفسي أمام هذا العالم المقلق الذي كلما غبت عنه لحظات قصارا وجدته قد سجل عليّ ديوناً مضاعفة جعلت ألوك اللقمة ، وكأنها قطعة مطاط جافة ونهضت وقلت سأذهب الآن إلى حمام المالح شيء مقلق عصف في صدري نبهني إسماعيل إلى الساعة ان وقت عصب العيون يوشك أن يحل

– كان يجب أن أذهب إليه أنا أعرف أنه في المدة الأخيرة لم يكن معافى.

– يبدو أنه تعب ألا يحق للإنسان أن يستريح إذا تعب ؟

استيقظت في الصباح الباكر كعادتي فرأيت قطرات المطر على الأشجار وعلى حافة السطح فوقي وكانت أرض الملعب قد غيرت لونها إلى لون نحاسي أحمر وتوزعتها برك صغيرة من الماء بينما كانت أرض الشارع صقيلة مغسولة حلقت واغتسلت وعندما عدت رأيت إسماعيل قاعداً في فراشه ينظف أطراف عينيه بإصبعه وخرجنا كان الصباح رطباً رغم سطوع الشمس في أماكن عديدة منه ركبنا عربة من شارع النضال سارت بنا عبر شوارع متشابهة مجهولة الأسماء حتّى وصلنا إلى الشركة التي يعمل فيها نوري شركة الاتحاد رأيت سيارة الشوفرليت الجديدة هناك وسيارتين أخريين طلع إلينا رجل ممتلىء عريض المنكبين مدور الرأس يضع نظارة مذهبة الإطار. صافحنا بيد رخوة ولما سألناه عن نوري قال رافعاً إصبعه إلى السماء

– نوري سوّى سواية لا يمكن أن يسوّيها أصغر سائق

نظرتُ قلقاً إلى فمه الصغير المكور الذي يطبق عليه خدان ممتلئان

ماذا حصل ؟

البارحة عمل مكسورة كبيرة — ومد الباء والراء

خير إن شاء الله

وهل ترجو من نوري خيراً ؟ راح انتهى

قل لنا ماذا حصل بالله عليك

مكسورة كبيرة دهس راكب دراجة

كان يجزىء الحقائق ببرود ويتلفت في الجانبين كأنه يتوقع أحداً كان فمه الصغير يتكور ويبدو أنه سيقول شيئاً شافياً ، ولكن ما يقوله لا يشفي غليلاً ، ولا يزيل قلقاً قال له إسماعيل في ضيق

قُلْ لنا القصة ، يا زلمة

— قلت لك البارحة قبل الظهر دهس راكب دراجة ، وقذف به أمتاراً

— وماذا حصل له ولراكب الدراجة ؟

هو لم يحصل له شيء وراكب الدراجة في المستشفى والسيارة في الكراج سحبناها من الشارع بسلنك أصبحت حديد خردة ، لا تنفع لشيء

وبدأ يصف ما حصل للسيارة بتفاصيل زائدة حامداً الله على أنها هي التي تلقت الضربة لا سيارة الشوفرليت الجديدة قائلاً كأن قلبي أعلمي عندما رأيت سحنته المقلوبة في الصباح ناوي على شر سبحان الله ! عيونه كانت بالعرض ولم أستطع أن أعرف في أي موقف هو . كان الرجل لا

يعرف شيئاً لا يهمه أن يعرف مصير رجل جنى عليه هذه الجناية المواقف كثيرة وسيجد جزاء فعلته ولكن كيف تعوّض خسارة السيارة ؟

وتركناه محمولين بقوة نفور قوية ظلت تقاطيع وجهه القاسية تتراءى لي وكلماته الباردة الممسوحة ترن في أذني مسافة طويلة قطعناها صامتين

— ٢ —

رأيت الخالة هدية واقفة عند الباب ما إنْ رأتني حتّى رفعت يديها إلى السماء وشهقت وقالت

— عيبي على بختك كرومي أين الخايبة ما بات البارحة بالبيت ما عندك خبر عنه ؟

— ما تعرفين عنه

— منين أعرف ؟ صار لي سبع سنين غير سبع دكاكين ما شايفه

ودخلنا البيت ورويت لها القصة وسط شهقاتها المتتابعة بأقل الكلمات إثارة مهوناً الأمر عليها قائلاً إنه سالم ولا أعتقد أن راكب الدراجة قد أصيب بضرر كبير مجرد حادثة تحصل لكل سائق

وتحصل له بهذا العمر ؟ شايب ويشوف الحبس ؟ سيموت في الحبس

ورفعت فوطتها بكفها على عينيها حتّى غطت وجهها كله لاطمة باليد الأخرى فخذها مجهشة ببكاء مولول نادب قائلة « خذني عليه خذني عليه ! قلت لا أعرف في أي موقف هو كان صاحب الشركة يهتم بسيارته أكثر من اهتمامه به اهدئي سأجده . أنا ذاهب الآن لأفتش عنه وسآتيك بالخبر اليقين .

وبدأت تجوالي على مراكز الشرطة ابتداءاً أولاً بمركز قنبر على القريب من حمام المالح ولم أجده في موقفه ثم عبرت شارع الكفاح إلى مركز الفضل ولم يكن هناك أيضاً كما لم يكن بين الموقوفين في الموقف الصغير في مركز بني سعيد وبعد ذلك سرت مسافة طويلة قاطعاً شارع الأمين كله إلى مركز إمام طه وقالوا لي « ماكو عندنا هيجي خلقه ! ومن هناك يممت صوب السنك إلى مركز العبخانة الذي كنت أعرف موقفه المطل على الباحة تحت الدرج نظرت بنفسي عبر بابه الحديدي العريض إلى الوجوه المصفرة الشاحبة ومددت بصري إلى الداخل وسألت الموقوفين مباشرة عن رجل يدعى نوري قال أحدهم

نوري السائق ؟

نعم

اليوم الصبح نقلوه عباس ، تعرف وين نقلوا صاحبك الشايب ؟

النشال

لا السائق اليوم الصبح عزمنا على فشافيش

ولم يعرف عباس وأجاب آخرون تخميناً ذهبت إلى مفوض الخفر فقال إنهم نقلوه إلى مركز السراي « قضية طويلة

في مركز السراي سألت مفوض الخفر عنه فسألني بدوري سياسي لو عادي ولما عرف أعطاني ورقة صغيرة أعطيتها إلى الشرطي الواقف عند باب الموقف قلقل المفتاح في القفل الكبير وفتح الباب الحديدي المشبك أودخلت الساحة الصغيرة وقفل الباب من دوني أنا أعرف هذا الموقف يضاً بحجراته الثلاث المطلة على باحة صغيرة : حجرتين كبيرتين متجاورتين

إلى يسار الداخل وغرفة صغيرة في أقصى الجانب الأيمن قرب المرحاض والمغسلة مررت بالحجرة الأولى أسأل عنه قابلني وجه أحمر حياني بجفاوة رافعاً يده إلى رأسه ما كدت أن أكلمه حتى سمعت صياح الشرطي ورائي « في الحجرة الثانية » نكصت ، وسمعت توسل ذي الوجه الأحمر ورائي أروح لك فدوة ، من ْ تخلّص مرُّ ْ عليّ ! . وكانت هذه الحجرة للموقوفين السياسيين على ما يبدو اجتزتها الى الحجرة الثانية ، ورأيت نوري جالساً على الحصير ، ممدداً ساقيه على الأرض ، مسنداً ظهره إلى الحائط ناديته فتململ ، وطوى ساقاً واحدة ، ونظر متردداً ثم نهض للقائي

كانت كلماتنا الأولى متقطعة مضطربة متهدجة كلانا كانت في رأسه أشياء كثيرة يريد أن يعبر عنها دفعة واحدة ، غير الهمهمة والتمتمة التي كانت تفصح عن أشياء مكبوتة ، لأن الموقوفين الآخرين كانوا ينصتون إلينا كلانا تخلص من المواقف الحرجة بألفاظ ،سكّنة مطموسة قدر قسمة كل شيء يحصل في الدنيا وبعد ذلك روى نوري لي الحادث المفجع كان يسير في شارع الكفاح والشمس في عينيه فجأة ظهر راكب دراجة من شارع فرعي إلى اليسار بدا وكأنه يريد أن يعطف يساراً عبر الشارع كله فارتبك نوري وكان رأسه مثل كورة زنابير على حد تعبيره وانعطف انعطافاً حاداً ليتفاداه ولكن في هذه اللحظات الحاسمة لم يرفع قدمه عن البنزين، فأصاب راكب العجلة من الخلف ، وصعد الرصيف الأيمن ، واصطدم بدكان مغلق مرتفع العتبة كل ذلك حدث في لحظات قصار غاضبة ضاجة هوجاء بدا فيها راكب الدراجة وكأنه ليس إنساناً يسير بالسرعة الاعتيادية على دراجة حجراً مقذوفاً جاء من يساره وارتطم في رأسه ، خفاشاً أعمى لصق في عينيه حتى لم يعد يعرف طريقه

قال نوري بصوت خافت بعد أن استراح من سرد القصة

ترى ماذا تقول هادية الآن

لا تهتم الآن بما تقوله الذي حصل حصل كانت تريد أن تأتي معي

— لا تتركها تأتي ستتعذب أكثر إذا رأتني أنام على الحصير أرجوك أن تسأل عن المسكين راكب الدراجة كيف حالته الآن ؟

— هل رأيته بعد الحادث ؟

رأيته ممدّداً على الأرض وساقاه ميتتان والدراجة بينهما كانت عيناه مغمضتين ووجهه أصفر متربأ حملناه إلى الرصيف قبل أن تأتي الشرطة وتضع الكلبجة في يدي

— سأذهب للسؤال عنه هل تغديت اليوم ؟

لا ولكن لا أشتهي

قال رجل خلفه

— إذا كنت لا تشتهي فنحن نشتهي الطعام لا يرد

قال نوري

يبدو إن الطعام هنا أصعب من مركز العبخانة

قال شخص من الداخل

— في مركز بني سعيد يقدر الإنسان أن « يقندل في الليل الموقف في الليل ما ينحمل من دون عرق

وضحكوا وقال أحدهم

هاي هي ! من جيوب الناس إلى العرق

ولم نستطع تبادل الحديث نوري والنشالون في موقف واحد قلت له «سآتيك بشيء تأكله» وانصرفت ورأيت ذا الوجه الأحمر يرفع ذراعه من بين القضبان يستدعيني لم يكن الشرطي في الباب فأقبلت عليه كان أحمر الوجه والشعر بشكل ملحوظ تكلم معي بضراعة

– أرجوك عيني ، تقدر أن تفهم المفوض مَنْ أنا ؟

– وكيف أعرف ؟

– أنا واقع بتهلكة اسمي سيد أحمد سيد هاشم مسلم حنفي والقرآن الشريف والكعبة وأمي معيدية من سبعة أبكار وها أنا أشهد أمامك أشهد أن

وتشاهد وقرأ الحمد ، وقل هو في نفس واحد فقلت مبهوتاً

– وما الداعي إلى ذلك ؟

– الشرطة تحسبني حنا بطرس بس أنا مسلم محمدي ، والقرآن الشريف أرجوك اقنع المفوض

كيف أقنعه ؟

أنتم الأفندية تتفاهمون وأنا إنسان مقطوع مسلم واقع في مصيبة

وقبل أن أرد بشيء شعرت بالشرطي إلى جانبي

– سيد ، إنت جاي على شخص آخر

وأخرجني ولما جلبت ماعون الكباب ، أخذه الشرطي مني في الباب ولم يقبل دخولي ثانية

كان مفوض الخفر مهذباً معي هذه المرة أخرج لي الكتاب الذي أوقف نوري بموجبه وأخبرني باسم المدهوس « ياسين محمد » العامل في مذخر للأدوية الراقد الآن في ردهة الحوادث في المستشفى الجمهوري ومكان الحادث في منطقة قريبة من الكيلاني في شارع الكفاح ، في الساعة الثانية عشرة والربع وقال غداً سيبدأ التحقيق مع نوري وخروجه بكفالة متوقف على حالة المصاب وخروجه من المستشفى

اشتريت شيئاً من الفاكهة في طريقي ويممت شطر باب المعظم كانت السماء قد بدأت تنث رذاذاً خفيفاً محبباً مدلهمة في طرفها الغربي إلاّ أن الريح كانت تسوق السحب نحو الشرق بسرعة كبيرة

انتظرت قرب ردهة الحوادث ساعة كاملة ، ولكن لم يسمحوا لي بالدخول بل سمحوا لامرأة كانت تنتظر قبلي وكنت أراها طوال انتظاري جالسة تحت الشباك الصغير مولولة بلا انقطاع من خلال فوطتها الموضوعة على فمها شجعني دخولها فأعدت محاولتي متذرعاً بأنني صحفي وبأنني لا أريد غير خمس دقائق أسلم فيها الفاكهة إلى ياسين محمد رفض الموظف حجتي وقال باستهانة ولماذا لم تسلمها إلى أمه ؟ الآن دخلت »

كانت المرأة المولولة أم ياسين محمد

أحسست بخيبة وخجل وكأنني كذبت عليه كذبة مفضوحة عزمت على انتظارها واقفاً قبالة الموظف ليرى انتظاري لها خرجت أم ياسين بعد ربع ساعة مخضوضة العينين امرأة قصيرة القامة ضامرة الجسم متخلجة في مشيتها . خجلت أن أدنو منها رأساً . تركتها تخرج إلى الحديقة ،

وناديتها أدارت لي وجهاً مستطيلاً ضخمته الدموع المسكوبة وخددته الدهشة أو ربما الفزع قلت

ـ العفو أم ياسين أنا أيضاً جئت لزيارة ياسين ، ولكن لم يدعوني أدخل

قالت ، وقد رفعت وجهها الشاحب إليّ

ـ أنا من الصبح هنا ، وما خلوني أدخل إلاّ ها الساعة

لم أسألها عن حال ابنها كنت أعرف أنها ستستأنف البكاء حالاً . رموشها السوداء القصيرة كانت ترف رفيفاً متسارعاً وكأنها تجاهد لإبقاء الدموع في المآقي

ـ لم أكن أعرف أنك والدته ، وإلاّ لأعطيتك هذه الفاكهة لتأخذيها له

ـ أها هو الشوربة لا يذوقها سودة عليّ يمه !

ورفعت فوطتها إلى عينيها ، مثلما فعلت الخالة هدية صباح اليوم

ـ لا تقلقي أم ياسين سيشفى بالتأكيد ، ويعود إليك كل شيء قضاء وقدر

ـ وليش القضاء والقدر علينا بس ؟ ما صار له شهرين من طلع من الجندية

ولم تسألني من أنا كنت أتوقع سؤالها في كل لحظة ، وأخشاه ، وأهيء له في ذهني الجواب الأقل إثارة غير أنها مضت تحكي لي قصة ابنها ، واقفة في الحديقة معي ابنها الوحيد تعبت وشقيت حتى ربته . مات أبوه وتركه لها

وبعد الصف السادس اشتغل في صيدلية أميناً ذكياً يدك الأدوية بالهاون ويخلطها ويجعل الماء الأبيض أحمر مثل الأطباء وبعد أن اشتغل سنتين عند حافظ الصيدلي أستدعي لخدمة العلم ذهبت الأم عائطة إلى الضباط وقالت لهم: هو ابني الوحيد، ومعيلي والآن لما صار يشتغل ويجيب لي ١٢ ديناراً تأخذونه مني ؟ هذا اشلون انصاف من جناب الجمهورية ؟ قال الضابط النجيب لو كان يخدم الملك لما تركته يخدم يوماً واحداً ولكن لأنها جمهورية وبحاجة إلى جنود شجعان حتى يدافعوا عنها سأجعله يخدم ستة أشهر « فاتركيه للجمهورية » فتركته لها وبعد خروجه من جيش الجمهورية اشتغل بمعمل الأدوية وما صار له شهرين حتى

وعدت أطمئنها حين عادت إلى بكائها هوني عليك سيعود ياسين إلى مذخر الأدوية مثلما كان ويخلط الأدوية كالسابق ويحول الماء إلى دواء يشفي الناس

يبدو أنها اطمأنت قليلاً ثم جاء سؤالها الذي كنت أخشاه كثيراً ولكن بصيغة أخرى

عيني أنت تشتغل وياه بمعمل الأدوية ؟

لا أم ياسين أنا مبعوث من شخص آخر، مسكين أيضاً قسمته آخر عمره ! بعد أكثر من أربعين سنة من السياقة ليس هو بالشاب الأرعن لتقولي إن ذلك كان عن إهمال ولا سائق مستجد لتقولي ذلك من قلة الخبرة

أنت ابن السائق اللي سحق ياسين ؟

ولم يكن في سؤالها ضغينة ولا ظل لنفور كان صوتها صافياً، وفيه مسحة من حنان وتلويع بمصائب الناس جميعاً

– لا أم ياسين بس مثل ابنه هو ما عنده ابن ولا أحد يساعده ويريحه في شيخوخته يشتغل حتى يأكل خبزته

ودهشت من نفسي لأنني استطعت أن أدخل إلى نفسها بهذه السهولة كانت صامتة ، بل رأيت شفتيها تتمتمان تمتمة خفيفة وقد زال انتفاخ وجهها وحل محله شيء كالمجاهدة ، والتفكير الجدي بشيء عسير ليس في طاقتها أن تحله قلت لها

– أرجو أن لا تضمري في قلبك شيئاً ضده

– لا عيبي واش فايده ؟ البغض لا يرجع لي ابني مثلما كان الله وحده المعين

الفصل الثامن عشر

– ١ –

أذنوا لي بالدخول إلى ياسين بعد عشرة أيام كنت خلالها أذهب كل يوم تقريباً حاملاً معي الفاكهة والطعام له والسكائر « أم الزبانة لأمه بعد أن اكتشفت أنها تدخنها كنت أراها أحياناً تنتظر حتى تجد من يشفق عليها ويدخلها في غير مواعيد الزيارة كانت تبدو لي في حالتين مختلفتين في التشدد والتسامح في القسوة على السائق « الذي فجعها بابنها الوحيد » واللين معه لأنه لم يفعل فعلته بسبب عداء سابق بينهما وكانت تتناول أكياس الفاكهة مني صامتة وتدخل في مشيتها المتخلجة إلى أعماق الردهة المظلمة الفواحة بالمعقمات والمراهم ، والدم الإنساني المخثر ورائحة طعام ثقيلة لزجة

وعندما دخلت الردهة واحتوتني تلك الروائح لم أشعر بها شعوري القوي ، وأنا في الباب كان الممر الطويل صقيلاً تتناثر فيه الناقلات والكراسي السيارة وكان أقل رنين في أعماق الممر يتردد قبيحاً قوياً يخدش الأذن رجوت الممرضة أن تدلني على ياسين محمد قالت « لا أعرفه أدخل وستراه » ولم يخطر ببالها أنني ألتقي به لأول مرة إلاّ أن مريضاً يسير على عكازتين أرشدني إليه ، قافزاً أمامي كالأرنب

رأيت أمامي فتى هزيل العود ، ناحل الوجه يتكىء على ظهر السرير

المرتفع قليلاً وقد برزت رجلاه سميكتين ناتئتين من تحت البطانية قابلني بابتسامة شاحبة مرتبكة وكأنه يعرفني ويعتذر لي لأنه في هذه الحال مدّ إليّ ذراعه محاولاً أن يرفع جسمه إلى الأعلى قليلاً إلاّ أن رجليه الثقيلتين في الأسفل لم تساعداه على ذلك قلت له

لا بد إن الوالدة أخبرتك عني

نعم وأشكرك على التكليف

كانت أكياس الفاكهة في يدي فلم أعرف أين أضعها رأيت رجلاً لم ألحظه من قبل ينهض من الجانب الآخر من السرير ويتناولها مني ، ويضعها على الطاولة الصغيرة قال ياسين للرجل

— إنه من طرف السائق

— السائق ؟ ذلك الذي أجرم في حقك ؟

— لم يعرفه سابقاً ليجرم بحقه عن قصد كان الرجل يجري وراء رزقه فوقع الحادث ولم يكن يريد أن يقع كيف يجلب الإنسان الأذية إلى نفسه ؟ إنه الآن رهن التوقيف

قال الرجل بقسوة

— دعه يلقى جزاءه هل عرفت ماذا فعل بياسين ؟ قل له ياسين ماذا قال الأطباء ؟

قال ياسين دون أن يجاري الرجل في لهجته العنيفة

— اليوم أخذوا أشعة لظهري وغداً سأعرف النتيجة إذا كان الظهر سليماً فستكون المصيبة أهون .

ثم بدأ يتحدث عن ساقيه فقال أنهما ثقيلتان كالرصاص وهو لا يحس بهما إلاّ حين يحركهما فتوجعانه وجعاً لا يعرف موضعه بالضبط

فانبرى الرجل يعلق على حديث ياسين الذي بدا لي مُبرءاً من كل قصد غير رواية الحدث

تصور ! رجلاك الحلوتان اللتان كنت تطارد بهما تصيران بهذة الحال والسيد يريد ألاّ نقول إن الذي فعل بك هذا أجرم في حقك

رد ياسين بادي الضيق

– ليست الآن محكمة لنحاكمه

– سيجد جزاءه في المحكمة هو والشركة التي وضعت السيارة في يديه ليقتل الناس بها

كان الرجل يتكلم بعنف مبدياً قدراً كبيراً من الضغينة غير ملتزم بأصول اللياقة وكأن ذلك لغرضٍ في نفسه وكان ياسين يقلب رأسه على المخدة برماً أو متوجعاً من الألم ثم سكن حين صمتنا ورأيت عينيه السوداوين تصفوان ويشع منهما بريق شفاف طفولي وكانت تقاطيع وجهه من الرقة والعذوبة بحيث تبدو غير قابلة لتحمل إساءة إلى أحد كان أنفه صغيراً مستقيماً ملموماً حتى أن فتحتيه تبدوان خطين رسماً بالحبر الأسود وكان فمه مثل فم أمه صغيراً تكتنفه نقرتان من الطرفين تنسرحان إلى الأسفل حيث تتلاشيان في الذقن المستدق المطمئن الواثق

قلت لأعيد الحديث الذي قطعته القسوة .

– هل جاءت الوالدة اليوم

اليوم جمعة ونستطيع أن تأتي في أي وقت

عاد الرجل ليقول

– تعذبت كثيراً ما شافت راحة وهاي المصيبة الكبرى الله يجازي الذي أجرم في حقك

أدار ياسين إليه رأسه دون أن يرفعه عن المخدة ، وسمعته يقول همساً !

– خالي ، يكفي !

وبدأ رأس ياسين يتقلب على المخدة قلت لنفسي إن هذا الرجل سيعقد الأمر على نوري ولم أكن أتوقع ذلك كانت أم ياسين تبدو سلسة ولم تكن مطاليبها كثيرة الدنانير الخمسة تناولتها شاكرة ولم تصغن ولم تفرط في شكواها . وياسين نفسه يبدو وديعاً . ولم يظهر أي ضغينة لمن سبب له الأذى. كان مطمئناً وادعاً ، وكأنه تحت تأثير مخدر أو مهدىء عيناه تبرقان بريقاً بريئاً راضياً بنصيبه أما هذا الرجل ، فلا أدري بالضبط ماذا يريد بمتفجراته هذه ولو كنت أخمن تخميناً أنه يسعى لتعويض أكبر

في الطريق ، بعد خروجنا من الردهة حاولت أن أشرح له وضع نوري إنه سائق أجير ، ولا يملك ذخراً ومدخراً تعب يومه لخبز يومه فقط إلاّ أنه جهرني قائلاً « والشركة ؟ » أنها ستدفع مضطرة

قلت له

– إنها لن تدفع القانون لا يلزمها بذلك .

قال الرجل بتهديد

– أمامنا المحكمة .

– أقصى ما تفعله المحكمة هو أن تحكم على السائق بالسجن

– ليسجن

وعجزت عن إقناعه كان منتفخ الأوداج بالغيظ ينز لؤماً وضغينة كان وجهه المدور الملفوف جامد التقاطيع ثقيل الفكين متوتراً يطلق الكلمات الحادة مثل دفعات من الهواء الفاسد ، دون أن يتحرك شيء في وجهه. فقررت أن أتجنبه

– ٢ –

ذهبت لزيارة نوري في موقف السراي ، ورويت له خبر لقائي بياسين فقال

– الشركة ! الشركة لم ترسل أحداً حتى الآن ليراني كانوا يريدون التخلص مني من زمان

قلت

– سأستشير قانونياً يعرف قانون العمل والعمال ربما تستطيع الشركة أن تتحمل شيئاً أعتقد أن الحال يطالب بتعويض أكبر

– وياسين كيف حاله ؟ هل سيبقى طويلاً في المستشفى ؟

– يبدو أن ساقيه مجبستان واليوم أخذوا أشعة لظهره إنه يبدو شاباً رقيقاً ترك في نفسي انطباعاً حسناً أنه مسكين

أطرق نوري برأسه . كنا جالسين في الفناء الصغير أمام حجرة التوقيف

قبلوا هذه المرة أن يفتحوا بابها ويتركوني أجلس معه في الفناء قرفصنا على الأرض قرب الحائط، باسطين أذرعنا على ركبنا. وأصابعنا تمس الشمس كان نوري يبدو في ضوء النهار نحيلاً هيكلاً عظمياً متعباً ضيق الصدر هزيل الرقبة ولأول مرة أرى أن أنفه أقرط رفع رأسه بعد صمت قال

مرتين سببت أذى لإنسان في المرة الأولى سحقته عمداً ولم آسف على ذلك لأنه كان يريد أن يقتلني وأنا لم أسبب له أذى كنت أدافع عن نفسي وكان هو المعتدي وفي المرة الثانية أسبب أذى لشاب لا أعرفه ولا يعرفني ليست بيني وبينه عداوة، ولا ثأر قديم شاب يمكن أن يكون له مستقبل الأول في بداية عمري والثاني في نهايته سأحمل للقبر حسرة وذنباً كبيراً ماذا أقول لله يوم القيامة؟

هدأته قائلاً

كل سائق لا يخلو من حادث هذه ضريبة الشيء النافع

— كم فم يشتمني الآن!

ثم مس يدي وذكرني بما دار بيننا يوم كنا في الحانة حديثنا عن التوبة راح تخليبي أقول التوبة. ولذعت قلبي كلماته. كان يهز يدي وهو يتفوه بكلماته المتقطعة الثقيلة وكنت أحس بوخزها داخل صدري إذن فأنا أيضاً شريكه في جنايته شريكه في عذابات ضميره ولا أعرف لماذا سألني بعد فترة من الصمت، عن أهلي، وهل وجدتهم؟ لعله يؤكد بذلك شراكتي له واستحالة التخلص منه لم أقل أنني عرفت مكان أخي وأنني سأذهب إليه غداً كنت أريد أن يطمئن إلى أنني سأكون معه حتى النهاية.

عندما تركته قابلني الوجه الأحمر

أرجوك أريدك تروح لسبعة أبكار وتجلب لي الهوية

لا أستطيع الآن لا أستطيع

وكنت خلال الزيارات السابقة قد عرفت قصة هذا الرجل إنه بائع جواريب ومناديل وأربطة يبسطها على عربة في عنق سوق الشورجة والناس تعرفه إلاّ أن شرطياً سرّياً شك في أمره ، وظنه شخصاً آخر اسمه حنا بطرس تبحث الشرطة عنه كان كلاهما يشتركان في حمرة الوجه والشعر وليس بينهما صلة أخرى وعبثاً حاو ل الرجل أن يقنع الشرطي بأن اسمه سيد أحمد سيد هاشم ، وليس حنا بطرس وأنه مسلم حنفي من محلة سبع أبكار وقرأ الشهادة أمامه والحمد وقل هو الله أحد ولكن الشرطي لم يقتنع وطلب إبراز هويته ولم تكن الهوية معه واقتيد إلى مركز السراي متهماً حتى يثبت براءته والآن يتشبث بكل شخص يتوسل إليه أن يذهب إلى بيته ويجلب الهويه له ولكن لا أحد يريد أن يتورط في شيء لا يعنيه

— ٣ —

خرجت من موقف السراي بعد الساعة الثالثة وأنا لم أتناول غذائي بعد أمامي موعد آخر في الساعة الخامسة كلما أتذكره يملأ أعصابي بالتوتر وكأنه مكتوب عليّ أن أسير على حبل بضعة أمتار أنا خائف ، وشاك ومتوقع مفاجأت والتباسات وإزعاجاً فضيحة عندما كنت أتناول طعامي كانت مشاهد البارحة تمر أمامي هل هناك داع لذلك ؟ مجرد أن أحدثك بشيء خصوصي ونكست رأسها ورأيت أنفها الكبير متدلياً مخذولاً متنافراً مع ملامحها الأخرى الجميلة كليوبطرة العاشقة ! هل سأكون وحدي مدعواً هذا خبثٌ ، لؤم ، وحركة إتفاقية رعناء من وراء ظهر صديق : سنشرب الشاي

ونتحدث حديثاً لا يجوز أن نتحدث به في المكتب ورأيت عينيها الواسعتين ترمقانني مطمئنتين جادتين لا مؤامرة فيهما ولا قبح دعوة بريئة ! وأنا الذي أصنع من الكلمات جسوراً توصلني إلى غايات مستورة في نفسي وكان إسماعيل قد خرج ليستقبل أحد أقربائه من مطار بغداد وآمنة لم تعد تشترك في تحضير الستنسلات أبوها أبوها شغلها الشاغل الآن وبقيت أنا معها لا ضحكة ولا ابتسامة ولا حديث صاف كلمات متقطعة جمل مهزوزة نظرات من وراء رموش وُطف ولم تكن ميزانيتي تتحمل التكسي فركبنا الباص زميلان بينهما المسافة المحرم اجتيازها وافترقنا في الباب الشرقي أنا أعرف موقع بيتها جيداً كم مرة أوصلناها إليه في سيارة نوري والآن أستطيع أن أيمم وجهي شطر الباب الشرقي ، ومن هناك أستقل السيارة « أم النفرات لا بأس ! سأمسك أعصابي بيدي ، وأسيطر على دقات قلبي وأبدو طبيعياً ولكن ما هذا الحديث الذي لم تستطيع أن تقوله هناك في ضجيج الرونيو ، ولا في الهواء الطلق حين عبرنا بقية البستان في الظلام ، ولا في محطة الباص حين انتظرنا السيارة الحمراء طويلاً سر يحتاج إلى جدران أربعة إلى خلوة والخلوة توحي لي بالمؤامرة والمؤامرة هي الكلمة التي أصبح وأمسي وأنام عليها أفطر وأتغدى وأتعشى على رناتها مررت بالفندق الملون الذي نزلت فيه حين وصلت إلى بغداد دلني علية نوري ونوري الآن في الموقف ارتكب جريمة جعلته يقول التوبة وأنا أول من نطق بهذه الكلمة وجعله يقولها أجبره إجباراً عليها أنا الجاني لا هو وضعت بيده آلة جارحة ومزقت صفاءه الحمرة تمزق صفائي ولكن لماذا أعطيها للآخرين ؟ مجرد أن الآثم يريد أن يأثم الناس مثله والفاسق يحب للناس أن يفسقوا والسكير يقرب الكأس إلى أفواه الصاحين أوه ، سيقتلني دائي ورغبت في أن آمر ببوفيه الجمهورية كنا نجلس هناك حين تناولنا حساء العدس ثم جاءت آمنة تمشي مشية الصغيرة ، وأكلت المعكرونة معنا .

آمنة ستفارقنا لتسد أبواب الذكرى والحلم عليّ وخزني أنفي وكأنني
شربت من توي زجاجة الكوكا التي قدمتها لي في مكتب محسن في بداية الأشياء
تلك كانت بارودة عذبة كان كل شيء عذباً جديداً استهلالات مبشرة
بالأمل والآن يبدو أن العالم قد شاخ الناس أيضاً عجالى مثلما رأيتهم لأول
مرة ولكنهم مضوضئون أكثر من اللازم يركضو مدفوعين لا مندفعين
عبرت الشارع وتوقفت عند بائع جرائد الجرائد البائرة تبقى حتى المساء،
مفروشة على الأرض مشدودة إليها بقطع من الحجارة والتراب يحبب
سطحها مثل نمل أشقر صغير يركض مع هبات الريح عناوين صارخة
تُوحي بالسلطة والتهديد وتنقل أخبار المجالس العرفية بشهامة صحفية
وتنشر أخبار المعارك والخصومات ببرود دم وتحلم وتوحي للناس بأن
يحلموا مثلها أن ينظروا إلى المستقبل بعين الحالم بأن معجزة ستحصل بعد
أسبوع ستحصل بعد ثلاثة أيام ستحصل. بعد يومين ستحصل غداً ستحصل.
اليوم ستحصل بعد ساعات ستحصل بعد ساعة في هذه اللحظة ستحصل
انظر إليها تطل عليهم المعجزة المعجزة، مثل الرجل الذي يكتب عنه شاعر
كبير كل الناس ينتظرون ويعتبرون ما يعكر صفو هم وما يزرع
الرعشة في أنفسهم مجرد أشياء عابرة، حلماً كابوسياً، أضغاث أحلام

وقبل أن أدق الجرس رأيت ماجدة على الباب تلوح لي بيدها إنها في
ملابسها المنزلية تبدو أكثر بساطة وأشهى وأصغر سناً طفلة في نعالها المنزلي
أقصر قامة مني، خفيفة الحركة، قريبة من النفس كانت تضع على كتفيها
بلوزة صوفية بنفسجية جميلة وذراعاها مشبوكتان هناك تحت الثديين
الناهدين تماماً وكان وجهها يبدو شاحباً وهي بدون مساحيق ولكن
البشرة ناعمة

أدخلتني إلى صالة صغيرة خالية توقعت أن أرى إسماعيل كانت على

التلفزيون دمية وعلى الحائط نخلة بنية اللون من الخشب وفي الجانب الآخر صورة مضيفة طائرة قالت حين رأتني أنظر إليها

هذه أختي مضيفة في الخطوط الجوية العراقية ستأتي مع خطيبها اليوم

وأجلستني على كرسي وثير وجلست قبالتي مادة ساقاً إلى الأمام عاكفة الأخرى تحت الكرسي ثم قفزت فجأة وقالت

– سأحضر الشاي أولاً

وتركتني أتمعن في الغرفة رأيت على الطاولة مجلة الكواكب و ١٤ تموز أخذت أتصفحها حتى جاءت تحمل صينية صفراء لامعة عليها أكواب الشاي وإبريقه وما يؤكل معه ووضعتها على الطاولة وبدأت تصب الشاي سألتها

– في هذه الغرفة احتفلت بعيد ميلادك

قالت حزينة

لم يكن احتفالاً شائقاً أنتم لم تقبلوا الدعوة اقتصر على اثنين أو ثلاثة هذا تقليد لا أحبه ولا أحتفل به لولا إلحاح أمي

– ولماذا ؟ أنه شيء جميل لو كنت أعرف اليوم الذي ولدت فيه لاحتفلت أنا لنفسي أعني لا أقيم احتفالاً بل محاسبة جرداً لأعمالي خلال عام

ابتسمت ماجدة ابتسامة شاحبة وقالت .

– العمر كالصابونة يذوب بين يديك وهو يذوب بسرعة كلما كثرت أوساخ الأحزان

– فكرة جميلة أهي من ابتكارك ؟

نكست رأسها وقالت

– لا في الحقيقة قالها لي إسماعيل ذات مرة

وخيل إليّ أن صوتها قد تهدج لدى ذكر إسماعيل أما أنا فأحسست أنه ينصت إلينا في حديثنا هذا كيف أكون معها وهو غير موجود ؟ خيانة قلت مكفراً عنها

– إسماعيل شاب ممتاز رزين دافيء أنا أحبه كثيراً

ومرة أخرى خيل إليّ أن يدها التي تمسك بقدح الشاي قد ارتجفت تخلخل القدح على الماعون

– لماذا خرج البارحة مبكراً ؟

– ذهب ليستقبل عمه وهو مجاهد فلسطيني حدثني عنه كثيراً

قالت بتساؤل عميق ملهوف

– قل لي بالمناسبة عم تتحدثان ؟

– في مواضيع كثيرة

نكست رأسها وقالت

– عن أي شيء مثلاً .

قلت مداعباً

– عن مواضيع كبيرة جداً تتصل بمستقبل العالم

أصابها فتور وظهر على جبينها ظل من خيبة أمل قالت بصوت متكسر لا يكاد يسمع

بعني لم تتحدثان عني

بوغت بسؤالها قلت مواربا

وربما تحدثنا عنك أيضاً

وفجأة تذكرت كيف نهض إسماعيل من مكانه مستفزاً عندما قلت له إن ماجدة محقة في الإعجاب بك أو شيئاً من هذا القبيل وتكدرت مخافة أن يزل لساني بكلمات لا تُرضي صديقي وأسفت على قولي حين سمعتها تقول

مثلاً ؟

– ذكرناك بالخير طبعاً

فرغت ماجدة من شرب قدحها ، وبقيت على هيئتها المنحنية تلك بعد أن أسندت حنكها على راحة يدها. وقالت بلجلجة لعل سببها إعاقة يدها لتحرك فكها

ألم يقل لك ماذا كان ينوي بخصوصي ؟

أسرعت بالنفي وهبط صمت ثقيل كالكابوس تخلخل القدح على الماعون في يدي هذه المرة .

– لم يذكر لك شيئاً عما كان يجري بيننا ؟

– لم يذكر وأنا أيضاً لم أسأل

لحظة صمت متردد خجول ثم

– ألم يذكر أنه كان يزورنا في البيت ؟

أحرجت إحراجاً شديداً إن هذه الفتاة تستجوبني استجواباً لم أكن على استعداد له

ربما ولكن لم أعر لذلك اهتماماً أنا أعرف أنكما زميلان ، وصديقان

قالت تهز رأسها وتزفر زفرة عميقة

– عجيب غريب

كأنما وجهت التهمة لي فقلت

– وما وجه الغرابة ؟

قالت لا شيء » بعد برهة من الصمت

قلت باستحياء متوقعاً شيئاً يخذلني

– اسمحي لي ماجدة هل وعدك بشيء ؟

ونظرت إليها متشجعاً قالت رافعة يدها عن فكها

– لم يَعِدْ بصراحة ولكن تردده إلى البيت كان مفهوماً على الأقل بالنسبة لأبي وأمي على أساس معين . . . على أساس أنه خطيبي

تملصت كأرنب هارب

اسمحي لي يا ماجدة هذه المواضيع لم يبحثها معي أمور شخصية :
ولكنك صديقه ويخفي عنك مثل هذه الأشياء ؟

دافعت عن صداقتنا واعتذرت لها

إنه صموت بوجه عام، ولا يحب الحديث عن نفسه، إلاّ إذا استفز

قالت ملحاحة

– استفزه أرجوك أبوس يدك

ولماذا تريدينني أن أفعل ذلك ؟ هل طرأ شيء يستجوبه ؟

انقطع عن المجيء إلى البيت وفي المكتب صار يعاملني ببرود لا يعجبه كلامي ولا ضحكتي ولا صوتي صار يتجنبني ولا يرفع عينيه إليّ وأنا أنا من كل قلبي أحبه

وانفجرت ماجدة باكية أمامي بكاء أربكني وجعلني أبدو ضئيلاً شبح رجل لم أعرف ماذا أفعله كيف أهدئها ؟ كلماتي ستبدو غريبة عنها ، تلسع قلبها ارتفع جدار أحمق بيي وبينها تقطعت خيوط الحديث الرقيقة ، وانزوى كل واحد يغزل في مغزله الخاص

همست خائفاً من كلماتي الفقاعية ، خائفاً من عجزي من مداراة الموقف ، والتأثير عليها

– ماجدة أرجوك الأمر لا يستحق كل هذا مجرد سوء تفاهم
أضرمت كامن النار فيها :

سأموت سأقتل نفسي ماذا فعلت له لكي يتغير هذا التغير ؟

كنت معه

ونوبة بكاء أخرى حادة قطعت جملتها أن المرأة حين تبكي تحس وكأن كل مصائب العالم جمعت في مصيبتها تبكي بكل حشاشة نفسها تضع في دموعها كل رصيدها كإنسان وكإمرأة لها حق قديم على البشرية كلها مغامرة بكل شيء في لحظة الضعف والمقاومة هذه مجاهدة أن تغسل مصيبتها بدموعها وبإحساس الناس بأنها مظلومة وأنها صاحبة الحق والأحرى بأن تصان وتكسب الرهان إنسانيتها شكلها الإنساني ارتباطها بالناس وبالعالم كلها موضوع في المراهنة

– ماجدة لماذا تتصورين أنه غير موقفه منك ؟ لماذا لا تقولين ربما عنده مشاكل خاصة ربما هو في حالة نفسة معينة

– أصبح لا يحتمل كلماتي كل شيء أقوله يثيره كل شيء كل شيء

من كلماتك أنت فقط

– لا أعرف

أنا أيضاً أحس بأنه متضايق من شيء ما ونفور وغير راض حتى عن سلوك الآخرين في قلبه شيء يخصه وأنا أعذره أنا أعرف نفسيته

كفت ماجدة عن البكاء . راحت ترسل التنهدات واحدة بعد الأخرى

تنهدات تطرد الهموم المعبأة في صدرها وتعيد إليها حالتها الطبيعية وعندما هدأت قالت لي

هل تعدني بأن تتحدث إليه ؟

سأحاول ولكن بطريقة غير مباشرة أنا لا أريد أن أتدخل في موضوع يعنيكما فقط

وفي الطريق أكملت الجملة التي لم أرد أن أقولها

إذا تدخل ثالث في قضية حب عذول أو مصالح ، فإن ذلك يعني أن الحب في أزمة

الفصل التاسع عشر

- ١ -

أقمنا حفلة توديعية لآمنة أقامها مدير الدار بالأحرى شاي وكعك وفاكهة دون نخاع الآلهة طقطقت فيها الصحون أكثر مما تحدثت الألسن حاول المدير قصاراه أن يشيع المرح وينظر إلى المستقبل بتفاؤل ويهون المنغصات ولكننا لم نلمح حرارة في كلماته كان لكل منا عالمه الخاص وأحكامه وتقديراته وهي بعيدة عن كل ما قاله كانت المجاملة سيدة المجلس وهي خرساء بكماء ، تقنع بالإشارة أو هز الرأس وحتى بالأكل الزائد كانت آمنة تتوسط المدير وزوجته ، وتبدو مرتبكة وعصبية يداها في هذه المرة أيضاً كانتا تعبران عما في صدرها وصدرها مملوء بجبال الثلج التي لا يظهر إلا جزء ضئيل منها كانت تتكلم أحياناً مجرد بدايات لأحاديث وليست أحاديث كانت غير واثقة بالمستقبل غير واثقة من أنها ستعود إلى الوكالة وغير آسفة على ذلك ستحمل أصابعها القصيرة معها وترحل وقد تجد في لبنان من يستأجر هذه الأصابع الحلوة في بنك أو محل تجاري أو شركة طيران ستقوم بالعمل بنفس البرود الذي كانت تقوم به عندنا وإلا فهل هي هواية العمر أن تقضي حياتك على آلة طابعة أن تستهلك قلبك من خلال تثليم أظافرك ؟ لم تقل كل ذلك بلسانها ولكن هذه تفسيراتي الخاصة لسكوتها ، لنظراتها الساجية . لحركات أصابعها الملول الضجرة

لبدايات الجمل وأطراف المواضيع للانتقادات لرفضها تحديد الحدود لي لكل ما التقطته عيناي الحانيتان عليها

وجلست ماجدة أمامي تماماً منكسة الرأس، مثلومة. ثكلى كانت بين الحين والآخر ترفع رأسها لترمقني رمقات ذات دلالة أو لتجيل بصرها في الحاضرين لعلها تجد إسماعيل بينهم لعلي كذبت عليها حين قلت لها أنه على موعد مع عمه وكان داود يجلس إلى جانبي مشغولاً بالأكل الصاخب مثل ماكنة الطحين في محلته

حدثنا المدير قائلاً

– أتعرفون أن آمنة أكبر أعضاء وكالتنا من حيث مدة الخدمة

– ومن حيث العمر أيضاً

– لا يا آنسي أنت ما تزالين في بداية الشباب

– شباب ؟ أنا لا أعرفه

صمت وطقطقة صحون وتحول المدير إلى موضوع آخر

– هذه الحلوى جيدة صنعتها زوجتي

– من صنع زوجتك ؟

– نعم من صنعها هي

– كُلْ هذه الحلوى إنها من صنع الزوجة

أكل بعض الحاضرين الحلوى ثم قالت الزوجة صانعة الحلوى لآمنة :

– ستشهدين رأس السنة في لبنان .

– نحن لا نحتفل برأس السنة

– نعم المسلمون لهم رأس سنة أخرى

– وهذه أيضاً لا نحتفل بها كثيراً

لماذا ؟

لأننا قلما نحتفل وحتّى إذا احتفلنا لا نفرح نصخب ونضوضيء ولكن لا نفرح

شربت من كوبي كان الشاي بارداً ولأنه بارد خلطته بشاي حار

لا حباً لمزيد من الشاي قال أحدنا

أعتقد أن السماء ستمطر

– لا أظن موسم الإمطار لم يبدأ

ربما تمطر اليوم

وربما لا تمطر

– ستمطر في الليل

– دعها فنحن نائمون

وعاد المدير إلى موضوعه القديم

– ثم جاء داود إلى الوكالة بعد آمنة مباشرة

صحيح داود

كان فمه مشغولاً فهز رأسه .

ـ كانا كالساعة يأتيان في وقت واحد ويخرجان متلازمين

ـ وبعد انتهاء العمل يأكلان في بوفيه الجمهورية

ـ هل تذكر ذلك يا كريم ؟

ـ وهل نسيته يا آنسة ؟

ـ نسيت ، لا أتذكر

ولم أعرف هل نسيت أم تتذكر جملتها غامضة ، مثل النظرة في عينيها

ـ ثم جاءت ماجدة كانت أختها توصلها إلى الشغل

ـ وبعد ذلك جاء كريم

ـ جئت عن طريق آمنة هل تذكرين ، يا آمنة ؟

ـ أذكر

ـ ثم أصغر الأعضاء إسماعيل

ـ يا زلمه ربما هو أكبرنا سناً

ـ صحيح ، يا ماجدة أين إسماعيل ؟

ـ لا أعرف اسألوا عنه صديقه كريماً

ـ إنه مشغول بعمه

ـ عمه ؟

ـ نعم ، عمه وأرجو أن لا يكون مشغولاً به إلى الأبد

حاولت أن أتجنب النظر إلى ماجدة . سمعت سعلتها الباهتة المفتعلة

تنظيف الحنجرة   ولم ألتفت   لعلها تطالبني بالدين ؟ أنا مدين لها   مثلما أنا مدين لآمنة   وآمنة مشغولة بتقشير تفاحة

وطقطقت الصحون والشوكات والأكواب   وتوقفت « ماكنة الطحين » عن الطحن   سألني

– بالمناسبة   هل أفادك الأسطه رحيم ؟

– أفادني فائدة تامة

– يعني لقيت أهلك

– عرفت الكثير من أخبارهم   أخي أصبح جندياً يخدم في إحدى وحدات الجيش في معسكر خارج بغداد لا أعرفه بالضبط   وأمي معه

– يعني حُلّت عقدتك

– تقريباً

وبعد أحاديث من هذا النوع جاء وقت العمل . لأول مرة منذ خمسة أشهر لم تكن آمنه وراء طابعتها

—٢—

وبسفر آمنة وفتور العلاقة بين إسماعيل وماجدة بدأ العمل يفقد رونقه إن الإنسان   أحياناً   يستمد الهمة من أمل ضعيف غامض   ترابطات ذهنية لها مبرراتها العاطفية   متابعة سلوك شخص معين   وتوقع اللذة من ذلك الظن بأن وجوده بين الآخرين لازم ومأمول فيه   الإنسان يتابع تباشير الأمل وبوادره في ضميره . دائماً يأمل بأن يكسب شيئاً   بأن تحدث تحولات لصالحه

الإنسان دائماً يدخل في حوار مع الأمل وهو لا يعترف بالهزيمة بلسانه إنه مجنون بخلق المبررات لانتصارات خيالية ومتع فقاعية وحين تزول عكازات الأمل هذه يجد نفسه معلقاً في فراغ وإن كان يعاود المحاولة بعد زمن بعد تضميد الجرح بعد نسيان الصدمة

ولكنه يعيش لحظة الخواء هذه ، على أية حال ، لحظة انهيار التوقعات وها أنا أعيشها أنا حتى الآن لا أعرف ماذا أضمر لآمنة حباً ؟ احتراماً ؟ عطفاً ؟ لا أعرف بالضبط إنها كانت تمس شيئاً في قعر نفسي ، تنفذ إلى زاوية مبهمة فيها كنتُ طوال الوقت أحس بحضورها كانت تملأ مساماتي بحضورها تشعرني بشخصيتها بصرامة ومهابة ، وفتنة كانت تحاور في شيئاً لا أعرفه أظن أن الرجال لا يحبون النساء المستسلمات المتعطشات إلى الحب من النظرة الأولى فينا شيء من فوارس القرون الوسطى الذين تغريهم القلاع والغوامض والمجازفات ومعرفة « ما وراء الحجب وآمنة مثل قلعة حصينة تجد عسراً في اقتحامها وفي الوقت ذاته تغريك بوجودها الثابت الرصين كأنها لا تهتم بك ، كأنها قائمة بذاتها بحيرة تستمد الماء من ينابيع داخلها ولأنني بلا كيان ثابت فقد أحسست بميل إليها كانت بالنسبة لي حقيقة ثابته ، وأنا حتى الآن لا أحس بشيء ثابت حولي ثورة ، جمهورية ، مشاريع أحلام ، توقعات عناوين جبارة في الصحف خطب تزرع الوشوشة في الرأس من حدتها ووعودها إلاّ أنني كنت أحس وكأنني في مزاد علني لا أستطيع أن أظفر بحاجتي منه إلاّ بمقدار فلوسي القليلة التي هي إمكانياتي

ثم بدأت أحس بالرتابة ، أخبار . أخبار . أخبار . وكأنني دلاّل أنادي على بضاعة غيري ثم ترجمت خبراً عن السيبيرنيطيقا واحتمال ابتكار آلات مبنية على قواعده تستطيع ترجمة الكتب وحتى الروائع ، والإجابة عن الأسئلة

وحل المعادلات. فما قيمتي في الحياة إذن؟ ما الشيء الذي أصنعه من نفسي لها؟ ما هو الخاص بي الخارج من نفسي، المفروز من كياني؟ لا شيء أنا مجرد ناقل أخبار الآخرين من لغة إلى أخرى حمار يحمل بضاعة الآخرين من منزل إلى آخر ثم جاءت تلك المحاضرة اللعينة التي ألقاها علينا مدير الدار الترجمة تقتضي ارتخاء أعصاب تفتحاً تاماً لتقبل أفكار الآخرين صفاء ذهن صوفيا، وراحة بال برجوازية وإصراراً بروليتارياً الترجمة هي فن تداعي الكلمات المطلوبة وحضورها وهي لا تحضر وأنت مشغول بأفكارك الخاصة، بهمومك الخاصة يجب أن تكون كالأسطوانة الشمعية الحساسة قبل أن تحفر عليها ذبذبات الصوت خطوطاً متفاوتة في العمق

ولم أرد أن أكون هذه الاسطوانة بدأت أعبث بدأت أزود في الكلمات، وأضيف كلمة هنا وجملة هناك وأحذف ما أراه زائداً وأدس تعليقاً مولفاً من جملة واحدة فلماذا لا يحق أن يكون لي حرفي الخاص في فوضى الكلمات والتعابير هذه؛ لماذا لا أعبر عن نكهة نفسي؟ هل أنا مجرد إبرة في حاكي؟ وأخذت أتمرد حتى على ساعات العمل ونبهني إسماعيل إلى خطر هذه اللعبة الأمانة يا زلمه أنت كالصراف في بنك يجب أن تحفظ فلوس الآخرين بأمانة ما هو شعور الصراف الذي تمر فلوس الآخرين بين يديه وليس له حصة فيها؟ قد يكون مفلساً أيضاً الأمانة الأمانة

– ولكن الأمانة إزاء النفس؟ أنا أخون نفسي

– أنت لا تخونها ولكنك تضعها على جانب

– وإذا وضعت على جانب ضمرت وماتت

– لن تضمر إذا كانت تحمل مخططها الخاص

– ليس لي مخطط .

وتلك هي المصيبة

أنا لا أملك شيئاً في الحياة

وهل أنا أملك

ولكني لا أضيف شيئاً من ذاتي أريد أن أقول أفكاري

الوكالة لا تمنعك من ذلك الأمر موكول لإرادتك

جئنا إلى الإرادة مرة أخرى

وأي شيء آخر ؟

كنت أحمل جرحي الخاص الذي أنزفه في الوكالة جاء رجل كان يعمل على الطابعة الإنكليزية وحلّ محل آمنة رجل يبدو أنه لا يعرف العربية ليس مثل آمنة التي كانت تعرف خطي حتى بعد أن تدهور كان لا يفتأ يسأل عن الكلمات التي استعملها كذا أم كذا ؟ وكنت أرفع رأسي وأرد عليه ويشلني ذلك عن العمل دقائق لارونق في العمل لا حرارة ، لا بسمة لا فكاهة لا لمعة عيون ، ولا افترار شفاه

وفكرت في البحث عن عمل آخر

وجاء رأس السنة حزيناً

— ٣ —

قبل عام ، في نفس هذا اليوم احتفلنا به احتفالاً صاخباً كانت هناك قاعة كبيرة فيها موائد بيضاء كثيرة وفي وسط القاعة شجرة متلألئة بالألوان مزدانة بالشرائط واللعب الملونة وغنى صوت شجي بالإنكليزية عيد جديد سعيد لك » . وطافت الكؤوس مشعة محببة ، وارتفع الضحك .

وهزج المرح ورنت القبلات وعزفت الموسيقى الألحان الراقصة وعربدت الخمرة في رأسي فقبلت الصغيرة من فمها وسط هرج الآخرين كل شيء مباح لك في رأس السنة حتى تقبيل نساء الآخرين فالناس تنشد الصفاء في مثل هذه الليلة تيمناً بالعام الجديد وتتغاضى عن التوافه والقيود لتقول للعام الجديد نحن سعداء ، يا عامنا الجديد طلقاء ومستبشرون فعاملنا معاملة حسنة نحن أقوياء بالمرح والتسامح والتفاؤل والثقة بالنفس نأتي إليك من العام القديم منقولين على أبسطة النشوة الطائرة فإياك أن تسيء فهمنا وتعتبرنا طريدي ومشردي العام الفائت

وجاء دوري في الغناء فتشت في زوايا ذهني عن أغنية لبلادي طليقة كفيافيها حارة كشمسها رقراقة كمياهها الثرة صداحة كعصافيرها ولم أجد في تلك الزوايا غير نشيد « نحن الشباب ألقيته بحماس بالغ ، وهزات قوية من ذراعي إيقاع حماسي ، استصراخ ميئوس منه وصفقوا لي مجاملة وسألني جاري إن أغنيتك تفيض بالثورة والحماس والحزن قلت له تلك هي أغانينا لا تعرف المرح ولا الفرح وحقدت على نفسي هل أن بلادي لم تعلمني أغنية فرحة أم كنا نعطي كل مداركنا للعمل ؟ ونتقوقع في جدران مصيبتنا الكبرى ؟ كوننا نعيش في مجتمع مقهور مأزوم

وأحسست بالسوداوية تملأ جوانحي وانزويت مفكراً من أنا ؟ وأين أنا ؟ ولماذا أنا هنا في مهرجان المرح والغبطة ؟ بينما أنا في أعماق نفسي تعيس حزين مشرد تفصلني عن بلادي آلاف الأميال وأحاول أن أتعابث وأستقبل العام الجديد بمجون

والليلة كنت وحيداً مع نفسي ، في حانة سكرى بعد ساعة سيولي العام القديم ويهل عام جديد.وعندما يخلو الإنسان إلى نفسه يكون أكبر إخلاصاً لها . لن أقول للعام الجديد : كنت سعيداً ومرحاً وطليقاً . كانت لي أفراحي

وأتراحي الصادقة   ولكن الوحدة نفسها تبقى «ي الجزء الصلب غير القابل للذوبان ، المترسب في قعر نفسي   مأساة حياتي   كنت أحس بها حتى في لحظات المرح والصبوة ، حتى وأنا ممدد إلى جانب الصغير في فراش واحد أنها ألصق بي من جلدي   كنت أكافحها متظاهراً بالبهجة   متوهجاً أنني أقاتلها بأسلحة فعالة   ولكن ما هي إلاّ سيوف خشبية   ولكن الوحدة في الغربة تظل شيئاً طبيعياً تحملها تبعات أحزانك   وتقذف في مستنقعها بجثث آمالك الذاوية وخيباتك ، حماقاتك   وأعمالك الهوجاء   أما في الوطن ، الوحدة في الوطن ، الغربة في الوطن ، الوحشة في الوطن فشيء لا يحتمل على الإطلاق

الفصل العشرون

– ١ –

في شارع الكفاح رأيت رجلاً مصفد اليدين يجره شرطي وراءه بسلسلة طويلة مثل نعجة مثل أسير حرب وخلفه أطفال حفاة مناكفون يهتفون بكلمات مهينة « حرامي زمال ، سختجي ، حيال » كان الرجل قصير القامة ضئيل الجسم ، رزى الهيئة ، نامي شعر الوجه ، يسير منكس الرأس مقهوراً مغلوباً على أمره ، مغمض العينين تقريباً كأنه يريد أن يغيب عن هذا العالم بأناسه وقوانينه وشمسه ، وهوائه

وتصورت أن نوري كان يمثل هذه الحال حين وضعوا « الكلبجة في يده وساروا به عبر شارع الكيلاني كله إلى مركز العبخانة مارين بنفس المكان الذي انتظرني فيه يوم عودتي إلى بغداد واكتشافي لزوال المحلة التي عشت فيها وترعرعت إن مستقبل نوري زال أيضاً ماراً بنفس البقعة شاعراً مثلي ، بأن شيئاً مريعاً ثقيلاً حاسماً قد حصل في حياته ، وهو أنه لم يعد صالحاً لأن يشتغل شاخ ضعف بصره ولم تعد يداه قادرتين على أن تمسكا بالدفة بإحكام ولم يشفع له ماضٍ ولا تاريخ ، ولا ذكرى ، ولا غبار طرق قرح عينيه . حصان عجز ، فأطلق في البرية .

كانت حالة ياسين قد تحسنت تبين أنه قد أصيب بكسر في فخذه اليمنى . ورضوض طفيفة في ساقه اليسرى ومرفق يده ومن المؤمل أن يخرج من المستشفى في غضون أسبوعين وانتهت المفاوضات مع العائلة على أن يدفع نوري مائة دينار تعويضاً تُقسط لمدة سنة يتم الصلح بينهما

قمت بمحاولات مع الشركة لتدفع قسطاً من هذا التعويض

تعويض ؟ أنا الذي أريد تعويضاً منه سيارتي تحطمت

ولكن نوري اشتغل ستة أعوام في الشركة ألا يحق له أن يطالب بمساعدة وهو في محنة ؟

سندفع له راتب الشهر كاملاً والأمر لله

وذهبت إلى النقابة وشرحت لهم القصة بحثوا في دفاترهم ، ولم يجدوا فيها اسم نوري حسن

لا وجود له في السجلات مع أن التسجيل إجباري أين يشتغل ؟

في شركة الاتحاد

هذه الشركة الملعونة تُشغل ستة سواق وتسجل ثلاثة ؟

ـ نوري سائق قديم ، رقم إجازته ستة بغداد وتتركونه في محنة ؟

ـ لا النقابة لا تترك أحداً في محنة فلماذا أسست إذن ؟ ما رأي عائلة المدهوس ؟

ـ عائلة المدهوس قبلت بتعويض

سنقدم له مساعدة .

ذهبت إلى مركز السراي كنت قد اتفقت مع الخالة هدية على أن نلتقي هناك وكانت قد تعودت أن تسلك أزقة عباس أفندي وتخرج إلى شارع الجمهورية ثم شارع الأمين ومن هناك إلى مركز السراي رأيتهما جالسين في الساحة الصغيرة متكئين على الحائط في شمس كانون الثاني الدافئة العسجدية وبينهما الصرة الزرقاء التي كانت تحمل فيها هدية الطعام له كباباً بيتياً وبطاطس وبيضاً مسلوقاً ورغيف خبز عروق أحياناً

قالت هدية حين رأتني

– كريم ابتلى بنا

– لا خالة هدية كل إنسان يتعرض لضائقة

بدأ نوري يسعل وحين انتهت نوبة سعاله قال

– جاء حاكم التحقيق اليوم وحقق معي مرة أخرى قال لي: وجودك في الموقف يتوقف على وجود ياسين في المستشفى حين يطلع أستطيع أن أخرجك بكفالة

– أعتقد أن ياسين لا يبقى في المستشفى طويلاً

– شهر ونصف وأنا في الموقف

ثم التفت إليّ وسألني

يريدون مائة دينار للمصالحة

– نعم

– ومن أين نأتي بها ؟ سنرهن البيت ؟

– هون عليك يريدونها تقسيطاً .

– وحتى التقسيط

– لا تهتم بذلك

وحكيت له نتيجة محاولاتي صمت نوري لحظات ، ثم قال

– هل تعرف أن إسماعيل جاء إلى هنا البارحة ؟

– لم يقل لي

– جاء ومعه فاكهة وأمسك به صاحبك الأحمر

وابتسم نوري مثل ابتسامته السابقة وهو يشير إلى موقف الموقوفين السياسيين قلت مشجعاً فيه بادرة الفرح

– تقصد حنا بطرس ؟

– يا حنا بطرس ؟ المعيدي سيد سيد رآه بنظارته السوداء ، وقيافته ، وبدلته النبيلة فاعتبره صاحب نفوذ ، محامياً أو حاكم تحقيق توسل إليه أن يتوسط له لدى المعاون

وضحك نوري ، وسعل ، وقال بصوت خفيض

– ولما جاءني إسماعيل قال لي: شو هذا ؟ مجنون ؟ شو أعمل لو ؟ قلت‌له: لا تهتم به هو بتشبث بالرائح والجاي حتى أعطي أربعة دنانير لحشّاش ليجلب له الهوية والحشاش ذهب ولم يعد

– إنه لم يمسك بي اليوم

– نايم ، مريض

– بودي أن أساعده . ولكن لا أعرف أين سبعة أبكار هذه .

– لا تتورط معه   هل تحسبهم لا يعرفون به ؟ ولكن لحاجة في نفس يعقوب وضعوه في الموقف

– ٢ –

بعد انتهاء العمل قال لي إسماعيل

– تعال معي اليوم

– وعملك ؟

– سافر   ودعته اليوم

وبرقت عينا ماجدة تذكرني   كانت تجلس وراء الماكنة الفارغة مطوية الذراعين   ولما أردنا أن نخرج قال لها إسماعيل

– هل تحبين أن نوصلك

ردت بصوت متهافت

– ستأتي صديقتي عليّ

وخرجنا إلى البستان   قلت لإسماعيل

– هل تعتقد أن ماجدة صادقة في قولها ؟

– لا أعرف أنها حرة

صمت   كان إسماعيل يتلفت في الفراغ عيوفاً متضايقاً

– أظنها متألمة من شيء ما

– لا أدري   من أي شيء

ربما أنت السبب

يا زلمة أنا السبب ؟ ولماذا ؟

بصراحة كانت علاقتكما جيدة تخرجان معاً وتضحكان ، والآن ؟

كانت علاقة طبيعية بين زميلين لا تحملها أكثر من اللازم

أوقفني بكلامه. وكان من المفروض أن لا أسترسل في الاستجواب، إلاّ أنني تابعت نقاشي أريد أن أنهي المهمة التي أوكلت لي ؟

علاقة بين زميلين فقط

على الأقل من ناحيتي أنا

ولمحت في كلامه مراوغة قال الجملة وكأنه يتبرأ من شيء متورط فيه

وبعد أن صمت برهة قال وكأنما تملكته رغبة مفاجئة في أن يعرف ماذا في صدري

— ماذا كنت تعتقد

كنت أعتقد أن أحدكما يحب الآخر

هو هوه حب !

— كنت أعتقد والآخرون أيضاً والعشاق عادة ينسون الناس فيما حولهم ويتصورون أنهم لا يلحظونهم

لا يا سيدي إذا كنت تقصد بالحب هو ذلك الشيء المعقد الذي إما أن ينتهي بزواج أو بارتكاب فعل محرم

نوع من العلاقة الصميمية ثم لا تنس أن المرأة دائماً تضع في علاقتها هدفاً أساسياً

المرأة الشريفة لا تعبث

– أعرف لهذا سحبت نفسي

قالها بصوت خافت فقلت متشجعاً

– ولكن بعد فوات الأوان على ما يبدو

استفز قال

– كيف بعد فوات الأوان ؟ هل تورطت في شيء ؟

– لا ولكن ألم تكن تذهب إلى بيتها ؟

– نعم بحضور عائلتها جلسات عائلية

– مثل هذه الجلسات العائلية تحمل مدلولاً واحداً العلاقة تأخذ مجراها الطبيعي

قال بعد صمت

– عندما فطنت إلى ذلك لملمت نفسي

بعد فوات الأوان

– الأوان لم يفت أنا لم أعدها بشيء ، ولم أدخل معها في علاقة سرية أنت واهم

– ولكنها اعتبرت ذلك تسليماً . اعتبرت كل شيء يودي إلى ما في ذهنها .

***

— إلى الزواج؟

— إلى الزواج وإلاّ فما بعد هذه العلاقة ؟ ثم يبدو أنها أحبتك ألا تنظر إلى الانكسار الذي يرين عليها ؟ أنها تحبك ، يا إسماعيل

— إنها فتاة ساذجة لا تعرف من أمور الدنيا شيئاً

— وإذن ؟

— ثم إن الزواج شيء آخر مشروع خطير لم يخطر على بالي قط يا سيدي ، أنا لن أتزوج

— ضد الزواج بشكل عام ؟

— لا ، بالنسبة لي فقط

— لماذا ؟

— عندي أسباب لا أستطيع أن أشرحها لك

— أنا لا أفهمك

كان الحديث قد أنسانا أنفسنا فغادرنا منطقة الباص مسافة طويلة ، وتوغلنا في شارع كرادة مريم باتجاه جسر الجمهورية حتّى توقف إسماعيل ، ويحثت عيناه عن سيارة تكسي كان المساء صافياً ، والهواء مضمخاً ببرودة منعشة .

قال إسماعيل ، وكأنه راجع نفسه

— ضروري أن أبرر لك ذلك

— لا ، ليس ضرورياً .

– إذن فلنترك الأمر

– على كيفك ولكن كل رجل ينشد الاستقرار

ولم يتكلم وبعد لحظة أحسست بمرارة الخيبة تجتاح كياني ماذا سأقول لماجدة ؟ أنه لا يريد الزواج لسر دفين في نفسه ؟ ولا حجة معقولة تبرد حرارة اللهفة في نفسها إلاّ أن إسماعيل بدأ الحديث بداية جديدة ، بعد أن مشينا مسافة صامتين

– هل تعرف أن بعض الدول الأوروبية مستعدة لتوطين أي فلسطيني ومنحه الجنسية ؟

– لا لا أعرف

– توجد مثل هذه الدول كندا مثلاً وأنت تعرف الغاية من ذلك وهي على العموم ليست مساعدة الشعب الفلسطيني كشعب هم أيضاً ينشدون الاستقرار للفلسطينيين ولكن في غير أرضهم

وحتى في تلك اللحظة كان شيء غير مبرر باقياً في نفسي ضده شيء غامض ومستفز وغير مقبول عندي من الناحية العاطفية على الأقل ربما لأنني لم أكن ألمّ بالصورة ربما كان ذلك مفاجأة بالنسبة لي ربما كنت ملتزماً جانب فتاة من وطني أرجو لها الخير كان إسماعيل يبدو أمامي في موقفه هذا ، غريباً وغير مبرر تماماً ، يخفي عني جوانب من صورة تحتاج إلى خطوط قوية إلى بروز أشد

وفي تلك الليلة عاد إسماعيل كما كان يوم تعارفنا الأول

٣

حاولت أن أجمع في ذهني ما لم ألتفت إليه وأفكر فيه من أقواله وعاداته وتصرفاته كيف غاب عي ذاك وأنا أصاحبه كل هذه المدة ؟ أذكر أنه قال لي مرة أنه يحمل معه تذكاراً من وطنه ولم يطلعني عليه وأعرف أنه لا يحب السير مسافة طويلة يبدو أن المشي يتعبه ، والباصات ترجه فيستعين بسيارات تكسي ثم أنه لا يدخن ويكره أن يجلس في مقاهينا المملوءة بدخان السكائر ، والأنفاس المكتومة وكان دائماً لا يرتدي فانيلة من نصف ردن يبدو من خلالها عظما الترقوتين وجانب من الصدر الضيق المشعر وذراعان رقيقتان ليستا هزيلتين ولكنهما ليستا مفتولتين كان أقرب إلى النحافة ، في قامته الرشيقة ميلان إلى الأمام كنت أرجعه إلى عادة طوال القامة الذين لا يريدون إلفات الأنظار إلى طول قامتهم وحتى تذكار بلاده نسيته ولم يدر في خلدي أنه في مكان آخر تذكار من بلاده يحمله أحد عشر عاماً محفوظ في مكان عميق لا يصدأ ولا يعفر تذكار مغروز باللحم

عندما كان في الثامنة من عمره كان يراهم يقلعون الأحجار من محاجر قرب قريتهم كان بعض العرب يساعدونهم عملية بسيطة قلع أحجار ويدفعون لها أثماناً غالية وعندما كبر عرف مدلول هذه العملية بل رأى نتائجها بعينه

لم أكن أدري وأنا صغير أنهم سيبنون من هذه الأحجار في أرضنا أسواراً وقلاعاً ، ويقذفوننا خارجها . لم أكن أعرف أنهم سيقيمون منها أوكاراً لأسلحة الإبادة التي شحذوها لنا كانت الأرض آمنة مملوءة ببساتين البرتقال ، وشذى الليمون والزيتون وطيب سنابل القمح وكان كل شيء منها يعني شيئاً لنا ، كل شبر ممزوجاً بالعرق واللحم والذكرى والتاريخ ، والآباء والحب والأمومة كل شبر عانقته ظلالنا بالرواح والمجيء والعمل وعندما أخذ

الانجليز يخرجون ويتركون الأرض التي حكموها بالسلاح والبغضاء والتفرقة بدأت المعارك من أجل هذه الأرض أرض الحاضر والماضي والمستقبل

كنت في العشرين من عمري آنذاك أحارب مع عمي كان هناك معسكر للجيش البريطاني في تل ليتفنسكي بجانب مستعمرة بهذا الاسم وقرر الانجليز فجأة إخلاء هذا المعسكر وبلغنا الخبر فعزمنا على احتلاله وكذلك المحصنون في المستعمرة أرادوا أيضاً

تجمعنا عند الظهر وكان الفصل في أواخر الربيع في نيسان عندما وصلنا المعسكر كان الوقت عصراً كانت سنابل القمح ترف في الحقل وتحدثنا بأغنية نفهمها نحن وحدنا نحن الذين نرعاها مثلما تعرف الأم همهمات رضيعها دخلنا المعسكر من الجنوب وهم من الشمال وكان الانجليز واقفين في سياراتهم متهيئين للمغادرة ضاحكين ملء أشداقهم لأنهم أعدوا هذا الشرك ومتفوهين ببعض الكلمات النابية الأرض التي امتصوا خيراتها يبصقون فيها ، ويلغمونها بالبارود . ويفجرون الدم فيها كان بعضهم يدلنا على مداخل المعسكر والبعض الآخر يدل الآخرين ، مسالمين وادعين مجرد لعبة يتفرجون عليها وجوبهنا برصاص غزير ينهال علينا من الشمال والغرب ولكننا اسطعنا أن نتسلل من خلال الأسلاك الشائكة ودخلنا ورأينا صفاً من البيوت الخالية فتشناها ولم نجد شيئاً كان يبدو وكأننا احتللنا المعسكر دون عناء ودار أحدنا خلف البيوت فجوبه برصاصة أوقعته جريحاً ذهبنا لنحمله فلقينا مثلما لقي وتبين أن مكامن قد نصبت لنا تركونا ندخل المعسكر وكمنوا هم في أماكن في نهاية المعسكر ولما صرنا داخله أطلقوا ناراً شديدة من مكامنهم وقتلوا وجرحوا عدداً كبيراً منا ومنهم أنا اضطررنا إلى الانسحاب كان جرحي بليغاً فنقلني أربعة أشخاص على نقالة وما إن سرنا عشرة أمتار حتى رأينا الرصاص يلاحقنا كانت المنطقة

مزروعة بالقمح ولا شيء نختبي فيه فقتل منا اثنان وجرى الآخران كان الأصيل قد تقدم ولم يبق على المساء غير ساعة أو ساعة ونصف وكان علينا أن نقطع مئتي متر في العراء حتّى نصل إلى أشجار البرتقال انتظرت غروب الشمس استلقيت بين سنابل القمح ونظرت إلى المساء الصافية الوادعة فوقي سماء شغافة لا مثيل لها في العالم ربما أراها لآخر مرة بعد فترة رأيت الجريح الأول قادماً بأعلى قامته وهو يمسك جرحه بيده صرنا في الحقل خمسة ثلاثة جرحى وقتيلان فكرت في الزحف سأزحف قدر مستطاعي كانت معي قنبلة يدوية واحدة سأقذفها في وجوههم إذا هاجموني كنت أحس الجرح في بطني أو في أسفل صدري فأخذت أزحف على ظهري وأستريح بين الحين والآخر وكانت السماء تبدو من خلال سنابل القمح واطئة ، تحنو علي كالدثار الحريري الدافيء كنت أدفع جسمي بقدمي وكانت سنابل القمح تميل وأحس الأعداء بوجود حركة جاءوا فسكت جاءوا ليبحثوا عن الجرحى ويجهزوا عليهم فتشوا في الحقل الذي كنت أرقد فيه تهيأت لهم لففت جرحي بالكوفية ، وسحبت قنبلتي اليدوية وأعددت الفتيلة ولكنهم عثروا على الجرحى الثلاثة أولاً أطلقوا النار على الجريح الأول وأكملوا عليه وسمعت أنينه يتلاشى في أذني أما الآخران فلم أسمع أي توجع منهما ربما كانا من الضعف بحيث لم يستطيعا ترديد آهة وانصرفوا غربت الشمس بعد ذلك كان هناك حوالى كيلومترين إلى الطريق العام المسفلت كنت لا أقوى على النهوض جاءت جماعتنا في الليل تبحث عنا ، إلاّ أنها جوبهت برصاص شديد فاضطرت إلى الانسحاب كان الليل بارداً وكانت الريح وهي تمر على أشجار البرتقال تشعرك وكأنك أناساً قادمون لنجدتك تشعرك بأنك لست وحيداً كان الليل مظلماً لا قمر فيه ظللت أزحف طوال الليل . لم أشعر بطوله ألا أدري لماذا ربما لأنني أصبت بفترات إغماء قصرت عليّ طوله .

كنت أحس بعطش يلهب جوفي فكنت أمتص الندى من السنابل ندى حلواً بارداً منعشاً فيه رائحة حياة جديدة خضراء صامدة وكنت مصمماً على الحياة لا أريد أن أموت ليس حرصاً على الدنيا بل لهفة لأن أعرف ماذا سيحصل بعدي كيف ستتطور الأمور هذه الرغبة وحدها هي التي أبقتني وفي ظهر اليوم التالي وصلت إلى منطقتنا أدخلوني المستشفى المصري وخاطوا الجرح وتماثلت للشفاء

وسكت إسماعيل ضاماً رأسه بين يديه ، ناظراً إلى الأرض وحدقت فيه لم يدر بخلدي أنه يملك هذه التجربة كان فتى رقيقاً ناعماً بل فيه شيء من الليونة والانقياد بينما هو يروي لي مثل هذه الأشياء الكبيرة

– وها أنت تعيش وترى

لم يلتفت إليّ بل قال وكأنه يكمل القصة

– كنت طوال المدة أحس بوجع في صدري ذهبت بعد ثلاثة أعوام لأفحص معدتي بالأشعة فوجدوا رصاصة في أسفل الصدر قرب المعدة طوال هذه السنوات الثلاث كنت أحملها معي لم ينصحني الأطباء بإخراجها خوفاً من المضاعفات

– ولم تخرجها حتى الآن

– ما زالت معي مستقرة هنا في أسفل الصدر

– ولا تؤذيك

تذكرني بنفسها بين الحين والآخر أصبحت ملفوفة في اللحم جزءاً من كياني – تذكرني دائماً ببلادي وتدعوني إليها وتريد أنت أن أستقر وأتزوج عراقية وأذوب . . . ذلك ما يسعى إليه الآخرون الذوبان والتلاشي

الفصل الحادي والعشرون

– ١ –

دخل الأحمر يتبعه شرطي وأدى تحية تعظيم صاخبة ، ووضع دفتراً صغيراً على مكتب المعاون ، قائلاً

– تفضل ، أستاذ

ومن مكاني رأيت عيني المعاون الواسعتين تبرقان وهما ترتفعان إليه بتساؤل ، وبكثير من الضيق والغضب

– تفضل هذي الهوية واقرأ اسمي سيد أحمد سيد هاشم مسلم حنفي

انشغل المعاون في المسألة بين يديه دون أن يجيب بينما تلفت الأحمر في الغرفة فرآني وحياني بمودة واضعاً كفه المبسوطة على صدره ، قائلاً بصوت هادىء

– من أول يوم أحلف لهم أغلظ الإيمان وأتشاهد عشرين مرة ، وأقرأ الحمد لله ، وقل هو الله أحد ولا أحد يصدق . تفضلوا هذه هويتي واقرأوا . صادق لو كاذب أنا ؟

التفت المعاون إلى الشرطي وقال

– مَنْ أمرك أن تدخله علي

إلحاح زائد منه

تفضل عيي أغاتي تاج رأسي هذه هويتي

رمقه المعاون مرة أخرى. وتناول الهوية بأطراف أصابعه ، وقلبها وقال الأحمر

– هذا الاسم سيد أحمد سيد هاشم مكتوب بالعربي الفصيح مو تمام ؟

خسرت أربعة دنانير حتى جابوا لي الهوية الحشاش طلع محترم وهاي أمي المعيدية بالباب

ألقى المعاون الهوية على المكتب دون أن يقول شيئاً

وأنتم حبستوني أكثر من شهرين ، لا من أكل لا من شرب أروح ؟

قال له المعاون

مستعجل

الهوية قدامك اسمي سيد أحمد سيد هاشم مو حنا بطرس

مستعجل ؟

أروح على باب الله السجن ما يطعم خبز

وتتصور نترك حنا بطرس نعفي عنه ؟

لا تعفوا عنه . اسلخوا جلده . بس شنو دخلي

لا   لك دخل

– شنو دخلي ؟

– انتظر إلى أن نعثر عليه

– انتظر بالموقف ؟

– انتظر   شرطي   خذه للتوقيف

– عمي ، والهوية ؟ الهوية ؟ سيد أحمد سيد هاشم ؟ والله العظيم   سيد أحمد سيد هاشم

واقتيد سيد أحمد سيد هاشم المشبوه بأنه حنا بطرس من قبل   والرهينة لحنا بطرس الآن   وسط الاحتجاج والضجيج

لم أتدخل   كنت أريد أن أنجز معاملة نوري   كانت هدية جالسة في الرواق تنتظر انتهاء المعاملة   ومعها صرة ملابس نوري   وكانت الكفالة قد كملت يوم أمس بعد الظهر   إلاّ أنهم أجلوا أخراجه إلى اليوم   انتظرت بنفاد صبر أن يفرغ المعاون مما بين يديه   كان المطر يسح غزيراً في الخارج ، ويحول الصباح إلى مساء   ولكن ذلك لا يعيقنا   نسيم الحرية منعش وضاء في كل الأحوال   سواء أصفت الطبيعة أم عربدت   وأنا أعرف مبلغ شوق نوري إليها   عندما حصروه في شارع الرشيد يروح ويجيء فيه   ولا يتعداه انقبضت نفسه   فكيف   وهو في أربعة جدران منذ شهرين ؟ إن الطائر العجوز يحتاج إلى هواء نقي أيضاً   وكل سائق مثل طائر   لا سيما سواق البراري القدامى الذين قرح عيونهم غبار الطريق

خرج المعاون من وراء مكتبه ، وغادر الغرفة حاملاً أوراقه   قائلاً لي « دقيقة » . خرجت إلى الرواق فرأيت الخالة هدية جالسة القرفصاء قرب

الحائط تتحدث مع امرأة أخرى حديثاً شجياً هازة رأسها كثيراً وجدت من تحدثها وتسر إليها ما في قلبها وفي كل امرأة – والقديمات منهن على الأقل – شيء من نائحة تنوح على مصيبتها من خلال مصائب الأخريات عندما تريد المرأة أن تبكي تذهب إلى عزاء وتذرف دموعها بحرقة .اقتربت منها فسمعتها تقول بتفجع « أي عيبي إي » ولما رفعت عينيها الشاحبتين المحمرتين رأيت الدموع تبلل حوافيها كانت الأخرى وضاءة البشرة طويلة الأنف تقرفص مرتعشة الركبتين كالمرعوصة وسمعتها تقول

– الهوية وشافوها بعد شيريدون منه ؟ راح أروح عايطه للدفاع »

ولم يكن الأمر يحتاج إلى تخمين كانت هذه أم سيد أحمد سيد هاشم

حطت يد على ساعدي فالتفت ورأيت شرطياً يدعوني إلى المعاون عندما دخلت قال المعاون أنا آسف أخرتك الشغل إلى هنا « وأشار إلى رقبته ». ثم قال حين حدثته عن تأخر البارحة « يعني إحنا ما نريد شغلنا يقل ؟ يا ريت الموقف يفرغ للتالي »

وقرأ الكفالة مرة أخرى وفتح دفتراً كبيراً ونادى الشرطي ليجلب الموقوف نوري

وبعد نصف ساعة كان نوري ينظر إلى السماء أمام مركز السراي وكأنه يراها لأول مرة

في البيت تمدد نوري على السرير وبح زفيراً عميقاً من أقصى حلقه فعل مَنْ يتلذذ بالراحة بعد تعب ورأيت الخالة هدية تقبل عليه بشوشة وتعانقه ، وسمعت أصوات القبل مرنة مثل تمطق من طعام لذيذ . قال لها :
– يمكن شتمتني هوايه .

أشتمك ؟ شتفيد الشتيمة ؟ راح وقتها خفت على عظامك تتكسر بعدها سليمة

– هذا الذي أريده من الله أنت ضوا البيت

– تضحكين عليّ ؟ يا ضوا أنا ؟

– الرجل دائماً ضوا البيت حتّى الأعمى والمكَرّم

– الله يعافيك سمعت كريم ؟ أنا أعمى ومكرم صحيح هدية عميت وتكرمت بعد مابيه نفع سيارة عتيقة وخربانه

– أنت ما تخرب أبداً

وشبكته ثانية وارتفع التمطق من جديد حتّى خجلت من نفسي ، وهممت بالنهوض أنا في حضرة عاشقين إلاّ أن هدية أوقفتني ، وقالت سأخدر الجاي خدري الحاي خدري ، عندي لمن أخدره . وهللت ، وخرجت إلى الليوان بخفة وكأنما رد إليها شبابها ذهبت إلى حجرتي لبضع دقائق كانت الحجرة قد فرشت بحصران من سعف النخيل وتزينت جدرانها بمستطيلات السجاجيد القديمة الصغيرة لتشيع بعض الدفء فيها ولكن الحصان الأسود ما يزال في موضعه في الجانب الذي أمدد فيه رجلي في السرير وكانت الكتب تتبعثر على طاولة صغيرة وزجاجات فارغة تلوح تحت السرير

ذلك هو بيتي الآن وربما سيظل زمناً طويلاً ارتبطت يا فحل وجدت نفسي في الأحبولة من حيث لا أدري الآن لا أستطيع أن أتخلى عن هذا البيت حتّى بعد أن أجد أهلي أصبحت ممزوجاً بتعاسته ، وضياع غده سأدفع ثمن تشردي استلقيت على السرير وتذكرت يوم أعدت ترتيب الأشياء في غرفتي . كانت الأشياء تبدو جديدة وفيها أمل في التغير أما الآن فتبدو

مستهلكة جامدة عجماء وخيل إلي أن هذه الحجرة ستكون حجرة توقيفي الخاص لن أخرج منها بكفالة وفكرت بمقدرة هذه الحياة على خلق المصادفات وحوك الشباك التي تلفك بها من حيث لا تدري كيف تنشأ الحوادث وتتطور وتطويك في دوامتها كنت نصف هازل حين قبلت بدعوة نوري في أن أسكن بيته أو بالأحرى كنت مدفوعاً بقوة غامضة غير عاقلة كأنني مشترك في لعبة أريد أن أعرف نهايتها والآن لم تعد هناك لعبة بل مسؤولية أمام الضمير إذا تركتها فسأحس إحساس من يتخلى عن إنسان يموت عطشاً وهو يحمل قدح ماء سيظل صوت الاستغاثة الجاف يعذبه طوال حياته ستظل الصورة محفورة في ثنيات نفسه

ثم تملكتني نقمة جامحة على نفسي حين سمعت خالة هدية تناديني على الشاي أنا الذي كنت غارقاً في الغيبة إلى أذني متوحلاً في الندم صعلوكاً لا قلب له قلّبت الزجاجات الفارغة علني أجد جرعة منسية أشربها على المرارة إن الخمرة أحياناً تنقلب إلى انتقام من النفس فلأنك غير متصالح مع نفسك ناقم عليها تشربها انتقاماً منها ليزيد جرحها ويتعمق ولم تكن في الزجاجات أية جرعة لا شيء غير الغبار لوّث أصابعي

هبطت الدرجات إلى الفضاء ورأيت عيون الموقد النفطي في الليل مثل مصابيح صغيرة في ضريح وسخان الماء وإبريق الشاي يستقران عليه مثل رأسي عفريتين لقد ذبحت لي الخالة هدية هذين العفريتين كفارة عن غيبي واهتزاز ضميري

قال العم نوري

ـ سأذهب إلى الحمام جلدي يهرشني وفي المساء نذهب إلى ياسين

قالت الخالة هدية :

لياسين ؟ وخاله ؟ سيطردك من باب الدربونة

— اتفاهم معه اللسان لأي شيء خلق ؟

قلت

— أعتقد أننا اتفقنا على كل شيء وذهاب العم نوري ضروري سنذهب سوية

— والجيران ؟ سنكون فرجة

— سنذهب إليه والدنيا مظلمة

— ٣ —

كان ياسين قد خرج من المستشفى قبل أربعة أيام من خروج نوري من الموقف وكان يسكن في بيت قديم مع أمه وعمته في أعماق محلة الطوب سرنا في دروب طويلة متعرجة ضيقة حتى وصلنا إليه ودخلت الخالة هدية أولاً من باب موارب يلوح منه الضوء قائلة ما تريدون خطار ؟ ولمحنا ظلاً مكوراً يبرز في أسفل مستطيل الضوء وبعد دقيقة أذنوا لنا بالدخول

كان ياسين يجلس على تخت خشبي تكورت عليه عدة مخدات في أوضاع مختلفة وقد مدد رجليه المضمدتين على التخت عندما دخلنا عليه الحجرة الصغيرة رفع الكتاب الذي كان يسجل منه شيئاً في ورقة ، واعتدل في جلسته ، وافتر فمه الصغير عن ابتسامة شاحبة أسيفة ، وكأنما يريد أن يقول لا ضرورة لكل هذا العذاب تقدم منه نوري وقال بصوت منحول خجول مسجون بطلب المغفرة

— سامحني يا بي ؟ أنا الملعون إلى يوم القيامة .

– مسامح يا عم الذي صار صار

– عمري كله لم أعتد على أحد ولم أسبب الأذية لأحد وفي آخر عمري أسبب الأذية لشاب حلو مثلك

– قسمة ! حظ ! أنا في النادر ما أركب دراجة عندنا في المدّخر مراسل يدور على الصيدليات وأنا عندي شغل آخر يوم الحادثة لم يأت حسون تمرض وكان في الإمكان تأجيل الشغلة إلى الغد صيدلية في شارع الكفاح تريد أنبولات من الماء المقطر وأنا ورائي شغل كثير

وحتى مدير المدخر اعترض على ذهابي ولكن شيطاناً وسوس لي لأذهب وأقضي الشغلة بثلث ساعة وأشم الهواء والجو طيب وكان في الدراجة عطب صغير أصلحه ابن جيراننا الصائغ وطلعت وإذا على غفلة

قلت مهوناً

– الله سلم وانتهى الأمر إلى هذه النهاية

قالت الأم

– الحمد لله على سلامته يومها كنت أريد بس أنفاسه تردد

سألت ياسين

– كيف رجلك الآن ؟

– رفعوا الجبس عن اليسرى الرضوض التحمت واليمنى جُبِّست مرة أخرى تجبيساً صغيراً عند الرسغ

وجد نوري نفسه يعتذر مرة أخرى .

– سامحي يا ابي سامحي

– مسامح ! مائة مرة مسامح

هز نوري رأسه آسياً

– وتتصور قلبي راح يبرد ؟ سأظل متندماً بقية عمري هذه المدة القصيرة اللي بقت منه أنت سامحي والله يخليك وتعيش مائة سنة بس يوم القيامة هل يسامحي الله ؟ يطلعي بكفالة مثل ما طلعت اليوم ؟

وضحك ياسين ضحكة قصيرة عذبة وقال

– سيطلعك تبرئة

وأطلت على الوجوه ألوان مختلفة من البسمات وتلفت في الحجرة كانت مستطيلة فيها شباك عريض يشرف على الفناء وفي أحد أضلاعها منضدة عليها ميزان صغير من النوع الذي يستخدمه الصيّاغ وبعض الدوارق وإلى الأعلى رفان صفت عليهما زجاجات وعلب زجاجية لصقت عليها وريقات بيض ووردية قلت لياسين

– عندك مختبر كامل

– هذه هوايتي شغلي وسلوتي

قالت أمه

– حرام إذا رحنا يوماً لطبيب ياسين يحضر لنا الدواء إذا صار عندنا إسهال ركضنا عليه ، وإذا مغص ، وإذا وجع رأس ، وإذا وجع سن وإذا وجع ظهر .. كل شيء . كل شيء

التفت إليها ياسين

لا تبالغي ! كل شيء   كل شيء ! هذا قانون الأدوية العراقية وأنا أستعين به عند الحاجة الصغيرة

وبدأ ياسين يقص قصة شغفه بالكيمياء قائلاً

– الحياة كلها تفاعلات كيمياوية   الهواء الذي نتنفسه   الطعام الذي نأكله   والعلاج كله تفاعل كيماوي في الجسم   وإذا هذا التفاعل لم ينجح يجرب الطبيب تفاعلاً آخر

وساد جو من المرح   ثم خرجنا متمنين له شفاء مبكراً

الفصل الثاني والعشرون

– ١ –

فوجئت البارحة برسالة طويلة من مهدي عبد الصمد مرسلة إليّ من الكويت بيد شخص يذكر فيها مهدي أنه طلب نقله للتدريس في الكويت تخلصاً من مطاردة أخيه ولبي طلبه وتنسم أنفاس الحرية إلاّ أن حكومتنا الوطنية « لم تكسر بخاطر أخيه أيضاً فاعتقلته أثر انتخابات المعلمين وهو حتّى الآن رهين الاعتقال بتهمة لم تحدد حتّى الآن ويروي مهدي وقائع غريبة بأسلوب لاذع مرير وينصحني بأن لا تنطلي علي الأكذوبة القائلة بأن في العراق جمهورية واحدة هناك على الأقل أربع عشرة جمهورية لكل منها رئيسها ونظامها، وجلاوزتها فهنا، في الكويت، تنقض جمهوريتها ما تبرم جمهورية بغداد وتحطم الآلات المستوردة بموجب اتفاقية مع حكومة بغداد والإصلاح الزراعي عندنا في أوج مجده الإقطاعي على أساس الاستفادة من خبرة الشيوخ ألم يستفد لينين العظيم من خبرة المهندسين البرجوازيين حين أراد كهربة روسيا ؟ والجمعيات الفلاحية تسير عندنا على النهج القديم أنا وعشيرتي » ومن الغريب أن سدة الكوت وضعت تحت الحراسة خوفاً من فئران حمر فوضويين قد يعيدون قصة سد مأرب وفي المعتقل أخذ بعض المعتقلين ينشدون السجن ليس لنا ونشأت معادلة غريبة : كلما ازداد الهجوم من اليمين ازدادت النقمة على

اليسار ، والرهبة منه ويبدو التراجع « السمة » التي تتجلى بها جمهرة واسعة من المثقفين « الأفندية » أستفزوا رأوا ابن الشارع يعبر عن إحساسيسه لأول مرة في حياته ويظهر من صلب الشعب أشخاص حاولوا بهذه الطريقة أو بغيرها أن يعلنوا عن أنفسهم فسرت الرعصة في أوصالهم وقالوا كيف يتجاسر هولاء على رفع أعناقهم والإعلان عن أنفسهم ؟ صحيح أن هناك ثورة ولكنها ليست ثورة رعاع ولا « رقاعين » ليست ثورة حمراء ولا حتى وردية ، بل ثورة موزونة نابعة من تربة هذا الوطن ومتلونة بألوانه السمراء والسبخة ، وليست فيها أية قطعة غيار مستوردة

غمتني لهجة الرسالة ليس فيها بصيص من تفاؤل ولا بارقة أمل كل شيء يتدهور على نحو لا يرد متزايد السرعة في تدهوره وفي بغداد خيم شبح طائش من القلق والتمزق كان هناك تحد واضح للسلطة وجرى تصنيف غريب بين ما هو وافد وما هو نابع من تربة هذا الوطن كانت كل الأشياء تُقسم قسمة ضيزي بين قسمين لا ثالث لهما قومي وشعوبي فوضوي ومومن بسيادة القانون ، متأن ومستعجل

وسرت في بغداد موجة ورع مفاجئة وتدلى « الله » فضياً وذهبياً بين نهود العذراء وبدأ الناس يسمعون عن اغتيالات غامضة عن سيارات تجوب الشوارع وتطلق النار على من تريد وكانت الأماسي كئيبة مشبعة بالقلق والتوجس والأحزان والمقاهي والبارات تحيا حياتين حياة مرح ظاهر ، وحياة ضياع مطلق من الأعين ، والشفاه الموشوشة كان كل إنسان يبدو بلا حماية حتى لو كان يحمل في جيبه مسدساً غير مجاز من يدري ماذا تخبىء الدقيقة التالية ؟ القتل غيلة ، أم الاختطاف أم الإهانة ، أم التوقيف ؟ وبدأ الناس يغيرون أماكن سكنهم مجبرين على ذلك أو دفعاً للشر ونشداناً للأمان . وصارت بغداد ، كالكوفة ، قسمة إلى أحياء مغلقة . وكانت المجالس

العرفية في ذروة نشاطها ولكل مجلس عرفي قوانينه غير المكتوبة ومنطقه الخاص وكانت الصحف تفيض بالشتائم تعلن البراءات وتتهم وتنشر التكذيبات الرسمية وغير الرسمية ، وجرى التزوير في وضح النهار ، وسرقت أسماء وعناوين ونشرت يوميات واعترافات جهنمية واختلط الأبيض بالأسود وبيع الأخضر بسعر اليابس

وخلال ذلك كله أطلق هذا التعبير العبقري قطار الثورة يسير رغم شحارات ركابه المختلفين مآكل ومشارب وما دام سائقه المحنك فوق الميول والاتجاهات فسيسير على الخط المطلوب وفي الاتجاه المطلوب ، ولا يهم إذا تخاصم الركاب وتشاجروا وتناقشوا بأصوات زاعقه ولا يهم إذا تحول النقاش إلى عراك والعراك إلى عداوة والعداوة إلى دم والدم يمد جسراً إلى دماء جديدة كل شيء غير مهم حتى إذا قلع أحد الركاب أسنان الآخر فستهدى للمتضرر أسناناً صناعية وحتى إذا سرق طعامه فسينعم الجائع بوجبة كباب توحي بالزهد والتقشف ، وحتى إذا فقأ عينه فما فائدتها إذا كانت الدنيا كلها ترى من خلال عين واحدة ؟ وحتى إذا قذف به من النافذة ، فستقدم لعائلة الفقيد فدية موضوعة في مظروف خاص القطار سائر لا يتوقف في المحطات ولا يتريث ، ولا يلتفت إلى الخلف لا يهم كم خسر من ركاب المهم أنه يسير يلهث يصهل في وجه الدنيا

وكان ذلك أسوأ الأشياء

— ٣ —

قضيت تلك الليلة عند إسماعيل تراقصت الأفكار أمامي كالشياطين كانت الأفكار تكتسي لحماً وثياباً وتتراقص أمامي في فترات النوم المتقطعة واستيقظت في الصباح الباكر ، ونهضت.. نظرت إلى الملعب من خلال زجاج

باب الشرفة المغبش بأنفاسنا كتبت على الزجاج كلمة « ثورة ونظرت من خلال لمعان الحروف البلوري إلى الملعب كانت الطبيعة صامتة متزنة دافئة توحي بالاطمئنان والأرض حية ثابتة قوية وبعد قليل ستنعم بدفء الشمس تلك هي الحقيقة الطبيعية الصلدة

استيقظ إسماعيل ونظر في ساعته الموضوعة على الكرسي إلى جانبه ، قال

– متى تريد أن نخرج ؟

يجب أن نصل إلى محلة الطوب بعد العاشرة بقليل

ما زالت أمامنا ثلاث ساعات تقريباً

وددت لو نتمشى قليلاً الجو ساحر ، ونستطيع أن نجلس في الشمس قليلاً قرب الملعب

– سنتناول طعامنا ، ونذهب

عندما خرجنا إلى الشارع ملأت صدري بعذوبة شفافة وأحسست بمسرى الهواء الناعم على وجهي كانت الشمس تسطع بلون ذهبي شاف سرنا صامتين باتجاه الملعب حيث كانت بعض المصاطب الخضراء .إلا أن إسماعيل قال الأفضل أن نتمشى في الجو رطوبة خفة

– ليكن أنت تعرف أنني أحب المشي

بعد برهة قال

– يبدو أنني سأسافر إلى الأردن .

نظرت إليه باستغراب كان ذلك مفاجأة لي

– ما هذا الكلام ؟

– الأمور تقتضي أن أسافر إلى نابلس

– شوون عائلية ؟

– وغيرها هذا الذي أحمله في صدره يوجعني أحياناً ، كأنه مرتبط بأعصابي

– سأترك الوكالة إذا سافرت

– ولماذا ؟ راتبها جيد وعملها قليل

– ستتحول إلى عنكبوت ذكرى

– من يدري من سيحل في مكانك ؟

– سيأتي من يأتي الطبيعة لا تحب الفراغ ، وستبدأ قصة جديدة

– وسأكون أنا شاهداً فيها

ربما لن تكون قصة حزينة

– ومن يدري ! النفس لا تتخلص من ترسبات التجربة الماضية بسرعة سأضع قلمي في جيبي ، وأبحث عن عمل آخر

أبطأ إسماعيل من خطواته البطيئة في الأصل ، وقال همساً

– يبدو أن ماجدة حانقة علي

– وضعت أملها فيك . كنت فارس أحلامها .

فارس مصاب بطلقة في صدره ! هل يرضيها ذلك لو عرفت ؟

الحب نوع من الاستشهاد أيضاً رصاصة في القلب على حد تعبير توفيق الحكيم

تبسم إسماعيل وقال

ولكنها لا تخلف أثراً هل تراها تخلف ؟

يتوقف ذلك على عمق الرصاصة

لا أظن الرصاصة عميقة في قلب ماجدة أنها بنت اليوم الذي تعيشه ، وهي ما تزال في مستهل شبابها ستتعرف وترى

كلامك اليوم أكثر هدوءاً من يوم تحدثنا أول مرة في هذا الموضوع يبدو أنك قد تفهمت

أنا أفهم كل شيء حتى أن يكون لي بيت وزوجة ولكن ليست ماجدة هي التي في خيالي وأرجو المعذرة أنا على العموم أحس بأنني طارىء، وإقامي هنا موقتة هذا ليس موطني ولا المكان الذي تشدني إليه ذكرياتي أن مكاني هناك

كل ما آسي عليه هو أن شيئاً قاسياً هنا في صدري يشكل حركاتي ويحدد لي الطريق الذي أسلك من قال أن الأطباء صادقون فيما قالوه ؟ ربما في الإمكان إخراج الرصاصة بعد هذا التاريخ

نظرت إليه مدهوشاً ممراً بصري على وجهه الفتى النحيل ورقبته وصدره الأهيف . وقلت له

– لا يكاد يدخل في عقلي أن تسير وفي صدرك رصاصة إن الإنسان إذا دخلت في إصبعة سلية لا يكاد يصبر على الألم

– إنها مغروسة في اللحم ، هنا قرب المعدة ، مستقرة فيه ترى في الأشعة بيضاء مستطيلة وبين الحين والآخر تذكرني بنفسها

وبقيت على استغرابي لا يمكن ، لا يمكن أن أتصور أن رصاصة تستقر في الصدر ، ويستطيع الإنسان أن يعيش . ونظرت إليه مرة أخرى وتقابلنا وفجأة سمعت صوتاً صارخاً من ورائي التفت فلمحت شخصاً يركض متجهاً نحونا في البداية تصورت أنه يلاحق أطفالاً وعندما اقترب تبينت أنه جندي شاهر مسدسه وكان يشير إلينا أن نقف مهدداً إيانا بمسدسه ذُهلت من المفاجأة ، وتسمرت في مكاني كان المسدس يرتفع أسود مشؤوماً فوق رأسه وقبل أن يصل إلينا هتف مهدداً

– تعالوا – تعالوا

لم نتحرك من مكاننا قال إسماعيل

– شو مالك ؟ أيش اللي حصل ؟

– تعالوا لا تعارضوا ، تعالوا

– ماذا حصل ؟ قل لنا لماذا نأتي ؟

– ترمون الحجارة على بيت أخت

وسمى اسم شخص مرهوب الجانب كان الجندي يقف إلى جانب إسماعيل ، يحاول أن يدفعه احتج إسماعيل بهدوء

– ما هذا الذي تقوله ؟ هل نحن أطفال لنقذف الحجارة ؟

عندكم غرض تعالوا طلبتكم هي

– ومن قال إننا قذفنا الحجارة ربما غيرنا

– لا أحد غيركم الشارع فارغ

زعق به إسماعيل

– يا أخي أنت مجنون ؟ أفنديه ، ويرمون الحجارة على البيوت ؟

– لا أدري ! عندي أمر أن آخذكم إليها

– وأين هو بيتها ؟ لا نعرفه

صحت وأنا أتلفت حولي

– وأين الحجارة منا لنقذف بها ؟ هل ترى حولك حجراً واحداً ؟ ثم هذه أيدينا هل تراها ملوثة بالتراب ؟

وتقدمت منه ، وعرضت عليه يدي ، مثل تلميذ يعرض يديه على معلمه للنظافة

ورأيت الجندي ينظر إليّ مشدوهاً عينان مستديرتان ، وأنف مستدق ، وشارب أسود مستقيم فوق فم صغير ورأيت ملامح متضخمة لشخص أليف لي ، واشح مع نبض ذاكرتي المرفرفة لهفة وتحسساً وكأنما تتشمم رائحة حبيبة تمتمت ه ه قبل أن يقول الجندي الشاب

– أظن كريم ؟

– بالضبط

– وأنا عدنان .. ألم تعرفني ؟

– ابن محلّتي عدنان   عدنان

ولم أستطع أن أكمل ، فأكمل الجندي اسمه ، ثم قال

– نحن جيران

– وتريد أن توقفنا ؟

ضحك عدنان   وتمدد شاربه   وقال

– أنا آسف

توقفت مستجيباً لصدى عميق رنّ في نفسي

– الآن   بدأت أتخيل

والتفت إلى إسماعيل   فرأيته يطوي ذراعه على صدره مشدوهاً

– إسماعيل   هذا رجل من محلّتي المفقودة

– ولم تعرفه ؟

– تركته في سن لا تعرف إذا التقيت به بعد ستة أعوام   الآن أنظر إليه أي شاب غدا   يريد أن يستخدم السلاح ضدنا

وتأبطت ذراع الجندي   ونظرت في وجهه العرق من التأثر

أعاد عدنان المسدس إلى قرابه   وسرنا متلازمين   وكان إسماعيل يسير خلفنا حتّى وصلنا إلى قصر ضخم

توقف عدنان عنده وقال

– أنا أحرس هنا .

اذهب وقل لصاحبته إن الذي توهمت أنه قذف الحجر هو ابن محلّي ولا يمكن أن يفعل ذلك

بدت الحيرة على الوجه المربع الأسمر وقال

– وهل ستصدق ؟

وبدا الجزع على وجه الصغير

– قل الحقيقة أيها الجندي ولا يغرر بك أحد هل رأيت حجراً يُقذف ؟

– لا ! ولكنها قالت أنها سمعت صوت حجر يقع في الحديقة فاذهب وأتني بمن في الشارع

– أنها تريد أن تظهر سلطتها

– أنا أعرف ذلك

– فلِم الحيرة إذن ؟ كن شجاعاً أيها الجندي

قال بعد إطراقة

– سأذهب ولكن متى سنلتقي ؟

– ٣ –

أوقفنا السيارة عند أول الزقاق الذي يقع فيه منزل ياسين ورأينا في انتظارنا في البداية حاول أن ينهض على عكازتين ولكنه كان يسير متخلخلاً فاضطرنا أنا والسائق أن نشابك أيدينا ونصنع له منها مقعداً وحملناه إلى السيارة وفي المحاكم حمله حمال إلى مصطبة عند باب المحكمة ، وأجلسه

عليها كان نوري وهدية في انتظارنا قلقين ولم يطل انتظارنا صاح الحاجب نوري حسين وياسين محمد وفي هذه المرة أصر الحاجب على أن يحمل نوري ضحيته ويدخل به إلى المحكمة ورأيت رقبة نوري تتوتر وهو يحمل ياسين على ظهره نفس الرقبة التي رأيتها أول مرة وأنا في سيارته ، فانطبعت في ذاكرتي دخلنا المحكمة شبه المظلمة ، حيث يجلس الحاكم على منصة عالية ، وقرأ الحاكم تقرير حاكم التحقيق ، وكنت أسمع لهاث نوري من مكاني وراء حاجز المتفرجين شيخ يحمل شاباً في مقتبل العمر ومرت الدقائق بطيئة متوترة طويلة وبعد ذلك رفع الحاكم رأسه وقال موجهاً كلامه إلى ياسين

– هل تصالحتما ؟

– نعم

– وليس عندك شيء ضده ؟

– لا

صمت الحاكم مقلباً أوراقه ، ثم نطق بحكمه

– حكمت المحكمة بغلق القضية على أن يبقى الحق العام وهو يقضي بأن تسحب من السائق نوري حسن إجازته لشيخوخته وضعف بصره

أيلول ١٩٧١

كتب للمؤلف

حصيد الرحى (قصص) بغداد ١٩٥٤

مولود آخر (قصص) بغداد ١٩٥٩

النخلة والجيران (رواية) بيروت ١٩٦٥

خمسة أصوات (رواية) بيروت ١٩٦٧

الحكم الأسود في العراق — استعراض صحفي لأحداث العراق لما قبل ثورة ١٤ تموز — القاهرة ١٩٥٧

قصص واقعية من العالم العربي (اختيار وتقديم بالاشتراك مع محمود أمين العالم)، القاهرة ١٩٥٧

لاشين عملاق الثقافة الصينية القاهرة ١٩٥٧

الفهرس

مطبعة الحرية - بيروت

منشورات مكتبة التحرير - بغداد